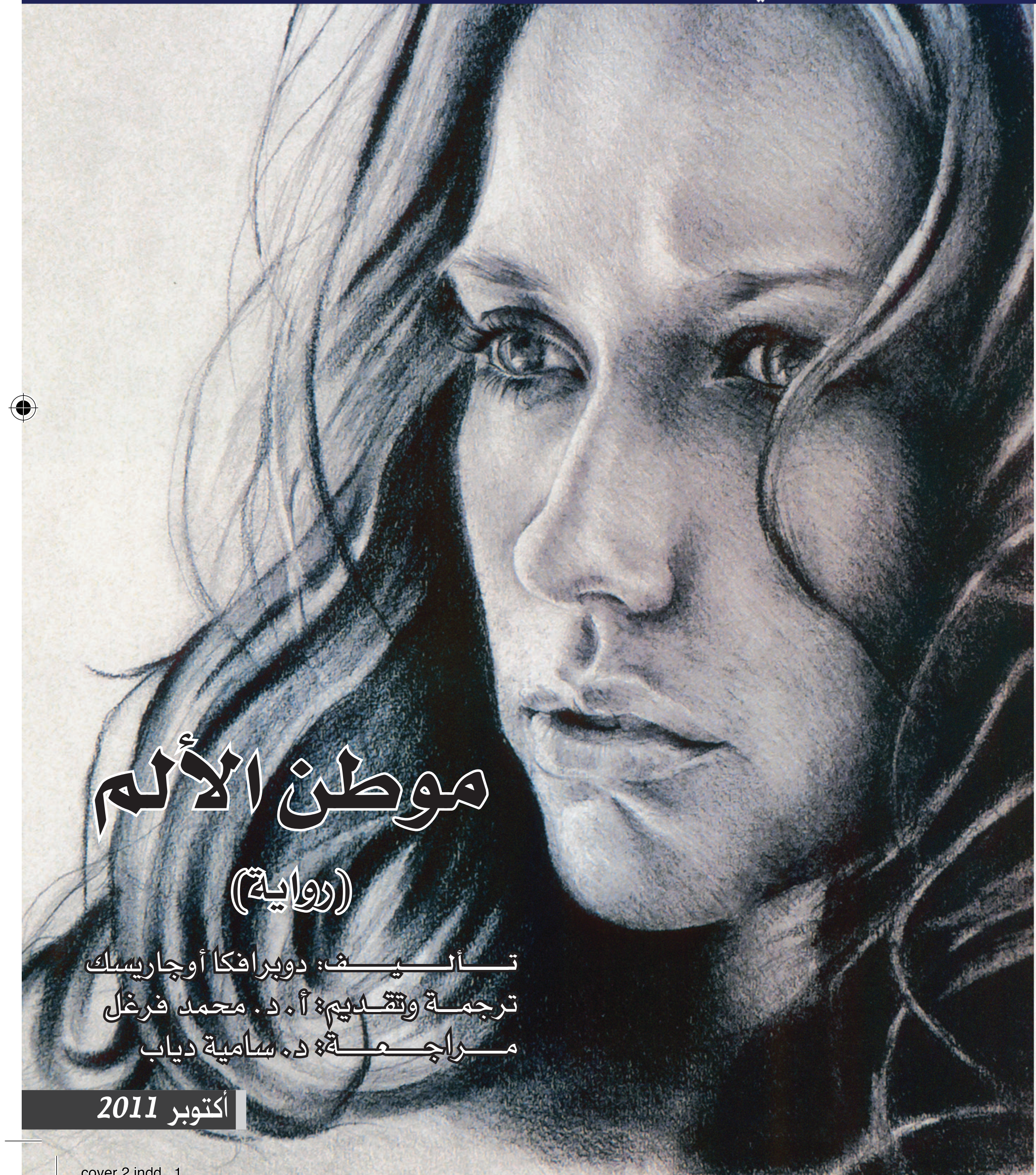
إبداعات عالمية

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

387

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



موطن الألم

(رواية)

تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
ترجمة وتقديم: أ. د. محمد فرغل
مراجعة: د. سامية دياب

أكتوبر 2011

إبداعات عالمية

موطن الألم (رواية)

الكويت - أكتوبر 2011

387

إبداعات عالمية

موطن الألم

نتعرف في هذا العدد على كاتبة روائية كرواتية معاصرة، تعيش الآن في هولندا، وقد أبدعت هذه الكاتبة بروايتها «موطن الألم»، أو كما يحلو للبعض تسميتها بـ «وزارة الألم»، حيث إنها تناقش قضية النزوح الكبير من يوغسلافيا السابقة إلى الخارج بعد اندلاع الحروب العرقية بين مختلف طوائف البلد من صرب وكروات وبوسنيين، وغيرهم سنة ١٩٩١.

تدور جل الأحداث المادية في هذه الرواية بمدينة أمستردام الهولندية؛ حيث لجأ إليها كثير من اليوغسلاف لأسباب مختلفة. ويشكل اللاجئون اليوغسلاف في أمستردام معظم الشخوص في هذه الرواية، منها الدكتورة تانيكا (تانيا)، والطلبة «إيجور» و«ميليها» و«آنا» و«جوهانكي».

وسيلاحظ قارئ الرواية أنها تحكي قصة ضياع وفقدان هوية، وتناقش مواضيع إنسانية غاية في الأهمية، تتعلق بتداعيات العيش في المنفى من خلال النموذج اليوغسلافي، بالإضافة إلى هاجس العودة إلى الوطن.

وهنا أيضا تقدم الرواية صورة سياسية متعمقة عن حقبة النظام الشيوعي في يوغسلافيا، وما رافقها من فساد وظلم واستبداد، أدى في نهاية المطاف إلى بزوغ النزعات العرقية المقيتة وتفسخ الدولة اليوغسلافية.

وتنتمي هذه الرواية من حيث التصنيف الأدبي إلى ما يسمى بـ «أدب المنفى».

وأخيرا وليس آخرا نشرت هذه الرواية باللغة الكرواتية في العام ٢٠٠٤، وترجمها «مايكل هنري هايم» إلى اللغة الإنجليزية في العام ٢٠٠٨، كما أن هناك ترجمة إنجليزية أخرى نشرت في ٢٠٠٥.

رقم الإيداع: ٢٠١١/٥٩٢
ردمك: ٤-٣٤٨-٠-٩٩٩٠٦-٩٧٨



الفنان: أحمد مقيم

Hear my Heart

رصاص على ورق

٣٦ x ٤٠ سم

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

الكويت

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب



الإصدارت الدورية

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

الكويت

أصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب



الإصدارت الدورية

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

موطن الألم

(رواية)

تــــألـــــيـــــف: دوبرافكا أوجاريسك

ترجمة وتقديم: أ. د. محمد فرغل

مــــراجـــعـــة: د. سامية دياب

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:
م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:
د. سليمان خالد الرباح

هيئة التحرير:
د. زبيدة علي أشكناني
أ. د. سليمان علي الشطي
د. علي عجيل العنزي
د. ليلى عثمان فضل
أ. وليد جاسم الرجيب

سكرتيرة التحرير
لمياء القبندي

التنضيد والإخراج والتنفيذ:
وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
E.Mail:
ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147
دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠١١/٣٦٧
ردمك: ٤-٣٣٥-٠-٩٩٩٠٦

• موطن الألم
(رواية)

العنوان الأصلي:

THE MINISTRY OF PAIN

by: Dubravka Ugresic

TELEGRAM - *2008*

الطبعة الأولى – الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، *2011*م

إبداعات عالمية - العدد *387*

صدر العدد الأول في أكتوبر *1969*م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

ثناء علي دوبرافكا أوجاريسك

تتحدث أوجاريسك في سخطها وحزنها عن الكثير من الناس، والكثير من الخبرات. إنها كاتبة تحفزنا على متابعة القراءة لها. كاتبة يُعتز بها.

سوزان سونتاج

في كتب أوجاريســـك تأملات عميقة عــن الثقافة، والذاكرة، والجنون. أفضل ما ستقرأ أبدا.

«الإندبندنت»

دوبرافكا أوجاريسك شخص شرس، يُستشهد بمقولاتها، فهي ذات بصيرة نافذة.

«الأوبزرفر»

إنسانية لا غنى عنها، وحياة إيجابية.

جلاسجو هيرالد

تكتب فرجينيا وولف عن نذر الحرب، أما دوبرافكا أوجاريسك فتكتــب عــن عواقب ما بعد الحــرب، وكلتاهمــا واضحتان في إدانتهما لقوى الدمار، واستحضارهما لما نخاطر به.

ت.ل.سي

تؤكد أوجاريســـك - مثلها مثل نابوكوفـــا - على قدرتنا على التذكر كمصدر للحفاظ على هويتنا الأخلاقية، الرحيمة.

«واشنطن بوست»

تســـخر أوجاريســـك من الفرضية المتفائلة التي تقول بأن كل شيء سيكون أفضل في عالمنا الجديد الشجاع.

«لوس أنجلوس تايمز»

تهكـــم لاذع، يخدش، مع ذلك فهـــو كلام قاطع، فها هنا امرأة قطعت شـــوطا طويـــلا لتقول رأيها فـــي الابتذال، والوحشـــية، والطبيعة الهزلية للنزعة القومية.

مجلة الجيل الثاني

لقد ضمنت دوبرافكا أوجاريســـك مكانا لها على رف الكتب المخصصة للكلاسيكيات.

ليترالي ريفيو

أطلقت أوجاريسك ســـهاما متنوعة من جعبة بلاغتها، من بينها حس تهكمي لاذع، وروح فكاهة نادبة، وحد قاطع من احتقار الابتذال.

كيركاس ريفيو

إنها في داخلنا.

«الأدب اليوم»

المقدمة

دوبرافكا أوجاريسك، كاتبة روائية كرواتية معاصرة، تعيش الآن في مدينة أمستردام (هولندا) حيث تتفرغ للكتابة، وتقوم بالتدريس من حين لآخر في بعض الجامعات الأوروبية، والأمريكية. ولدت في الثالث من مارس سنة ١٩٤٩ في مدينة «كونتينا»، في كرواتيا (التي كانت جزءا من يوغسلافيا السابقة). ألفت العديد من الروايات الأدبية (إحدى عشرة رواية)، وحازت العديد من الجوائز الأدبية المحلية والعالمية، أشهرها جائزة الدولة النمساوية في الأدب الأوروبي سنة ١٩٩٩. كانت «دوبرافكا أوجاريسك» من المناوئين البارزين لاستقلال كرواتيا عن يوغسلافيا السابقة، وبعد اندلاع الحرب سنة ١٩٩١، اتخذت موقفا صلبا ضد الحرب والنزعة القومية، مما أدى إلى اتهام الحركة القومية الكرواتية لها بالخيانة، كذا الرأي العام الكرواتي، فاضطرت إثر ذلك إلى مغادرة كرواتيا، واللجوء إلى هولندا حيث هي الآن.

الرواية التي بين أيدينا، موطن الألم، نشرت باللغة الكرواتية سنة ٢٠٠٤، وترجمها «مايكل هنري هايم» إلى اللغة الإنجليزية سنة ٢٠٠٨ (وهناك ترجمة إنجليزية أخرى نشرت سنة ٢٠٠٥). ويسرنا هنا أن نقدم للقارئ العربي،

فــي هذا العــدد من سلســلة إبداعــات عالمية، ترجمــة باللغة العربيــة منقولة عن ترجمة «هــايم» الإنجليزية. تنتمي هذه الرواية من حيث التصنيف الأدبي إلي ما يسمى أدب المنفى، ذلــك الأدب الذي يعالج التداعيات النفســية، والاجتماعية، والسياســية للعيــش فــي المنفــى نتيجة ظــروف غيــر عادية مــر بهــا الوطن. مــع ذلك فإن العيــش في المنفــى بعيدا عن الوطن، يُبقي الوطن الهاجس المســيطر، والشغل الشاغل لمن يشتغلون على هذا النوع الأدبي.

تتنــاول روايــة موطن الألم النزوح الكبير من يوغســلافيا السابقة إلى الخارج بعد اندلاع الحروب العرقية بين مختلف مكونات الوطن من صرب، وكروات، وبوســنيين وغيرهم ســنة ١٩٩١، والتــي انتهــت بتفــكك يوغســلافيا إلى دول مســتقلة لقوميــات مختلفة. تصف الراوية، «تانيا»، هذا النزوح قائلة: «لقد هربنا من بلادنا مثل جرذان نجت من سفينة تغرق. كنا في كل مكان. العديد هرول إلى المناطق الحدودية في الدولة للتواري لفترة معينة، وهم يظنون أن الحرب ستنتهي قريبا، كأنهــا عاصفــة رعدية، وليســت حريقا ســيأتي على الأخضر واليابــس». لقــد أتــت الحرب علــى الأخضــر واليابس، ولجأ أفواج ممن كانوا يسمون بـ «اليوغسلاف» إلى مختلف أصقاع الأرض طلبــا للنجــاة والعيــش الكريم. والأســوأ، كما تصور هــذه الروايــة، أن اللاجئيــن لم ينته بهــم الأمــر فــي المنــفى

فقـط، بل إنهم فقدوا وطنا كانوا يحملون جنسيته، ولم يعد موجودا على الخارطة السياسية.

تـدور جـل الأحـداث المادية فـي هـذه الرواية فـي مدينة أمسـتردام الهولندية حيث لجأ الكثير من اليوغسلاف إليها بعد اندلاع الحرب لأسـباب مختلفة، بعضها حقيقي سببته الحرب، وبعضها مُصطنع اسـتخدم الحرب كذريعة للوصول إلـى أرض الجنـان - أوروبا الغربية، لينتهـي بهم المطاف في الاتجـار بالمخـدرات، والأعمـال الإجرامية، والبغـاء والكثير مـن الوظائف الوضيعة. ويشـكل اللاجئون اليوغسـلاف في أمسـتردام معظم الشـخوص في هذه الرواية، وهم: الراوية، الدكتورة تانيكا (تانيا)، التي حصلت على وظيفة لمدة فصلين دراسيين لتدريس الأدب الصرب/كرواتي (وهو تخصصها) في جامعة أمستردام، وطلبة الفصل الذي تدرسه، وهم عبارة عن مجموعة من الطلبة اليوغسـلاف الذين التحقوا بالجامعة، ليس بدافع حقيقي لدراسـة هـذا التخصص (الذي لم يعد موجـودا أصلا بعد تفـكك الدولة اليوغسـلافية)، ولكن من أجل إضفاء صفة الشرعية على وجودهم في هولندا.

وبدل أن تقوم الراوية، الدكتورة «تانيكا»، بتدريسهم الأدب الصرب/كرواتـي، الـذي كانت تعتقـد أنه آخر مـا يحتاجون إليـه، حولـت الأمـر إلى لعبـة في الذاكـرة اليوغسـلافية، إذ قـررت إنشـاء ما سـمته «المتحـف الافتراضي اليوغسـلافي»

الذي يوثق الحياة اليومية في يوغسلافيا السابقة، وطلبت من طلبتها استرجاع ما يمكن استرجاعه من تلك الذاكرة، والمساهمة في صيرورة ذلك المتحف، مغفلة، أو ربما متناسية، أن هذا الموضوع بمنزلة قنبلة موقوتة. فطلبتها ينتمون إلى عرقيات مختلفة (صربية، وكرواتية وبوسنية، وغيرها)، مما سيؤدي إلى إيقاد أحقاد أفرزتها الحرب من الأفضل دفنها، بدلا من إحيائها. وتأتي مساهمات الطلبة المفصلة لتؤرخ اليوميات اليوغسلافية بحلوها ومرها، معرجة على الكثير من الجوانب الحياتية البسيطة والمعقدة بأسلوب جدّي أحيانا، وبنقد ساخر لا ينقصه المرح أحيانا أخرى. لقد تحول الفصل إلى جلسات في العلاج النفسي داخل غرفة الصف، وخارجها أيضا، حيث كانت المُدرسة، والطلبة يلتقون بشكل منتظم في المقاهي لإكمال تلك الجلسات، والتنفيس عن همومهم.

ولم يكد الفصل الدراسي الأول ينتهي حتى انقلب السحر على الساحر. فقد أخبرها رئيس القسم الهولندي عن تلقيه شكاوى من الطلبة تقول إنها لا تقوم بأي شيء له علاقة بتدريس الأدب، وإن الفصل الدراسي مجرد مضيعة للوقت. ينزل عليها الخبر كالصاعقة، إذ إنها لم تلاحظ أي شيء ينم عن ذلك من طرف الطلبة، وكانت تعتقد أن الطلبة يستحسنون أسلوبها، وأن الأمور كانت تجري على ما يرام.

لقد كانت كل المعطيات تشير إلى ذلك، فجميع الطلبة، على سبيل المثال لا الحصر، احتفلوا بعيد ميلادها، وقدموا لها الهدايا المتنوعة. وهنا تريد الروائية دوبرافكا أوجاريسك أن تصور حالة الانفصام التي عادة ما تصيب من يعيشون مشردين بلا هوية في المنفى.

وتظهر هذه الشخصية الانفصامية عند الراوية نفسها، «تانيا»، في الفصل الدراسي الثاني، فهي تحول المقرر الدراسي إلى كابوس للطلبة من خلال القراءات والامتحانات، والأبحاث المطلوبة، كنوع من الانتقام منهم لما قاموا به من وشاية بها لرئيس القسم. وكان هاجسها الأول والأخير، معرفة من وشى بها، وكان بحثا بلا جدوى، إذ عرجت عليهم جميعا في خضم حدسها. وبالرغم من الذهول الذي أصاب الطلبة من هذا التغير المفاجئ في سلوك مُدرّستهم، الذي أدى إلى ترك بعضهم للدراسة، فإن من تبقى في الفصل، وهم أربعة فقط (إيجور، وميليها، وآنا، وجوهانكي) أثبتوا أن لديهم دراية ومعرفة بالأدب الصرب/كرواتي تضاهيان، إن لم يكن يتفوق، على ما تملكه مدرّستهم في هذا المجال. وفي هذا السياق، تبين الكاتبة من خلال النقد الأدبي الذي تقدمه شخوصها، الراوية، والطلبة على حد سواء، هامشية ذلك الأدب (مقارنة بالآداب الأوروبية الأخرى)، وتكرارية وسذاجة المواضيع التي يتناولها. انظر ما تقوله الراوية

نفسها: «لقد أدهشتني تكرارية ظهور الصفات الشائعة لبطل الرواية. شعرت وكأنني أقرأ فى علم الوراثة وليس الأدب. بدا الأمر وكأنه اكتشاف لشيء طالما أدركناه من دون أن نعيره أي أهمية، مثل اكتشاف شامة في جسمك في نفس المكان الذي توجد فيه في جسم والديك أو أطفالك، أو أحفادك. كثيرا ما شعرت بأنني أشاهد مسلسلا تم إنتاجه في أكثر من دولة، بالرغم من أنه لم يكن من الممكن أن أعترف بذلك علنا».

وفي المجمل، تقدم هذه الرواية قصة ضياع وفقدان هوية، وتناقش مواضيع إنسانية في غاية الأهمية، تتعلق بتداعيات العيش في المنفى من خلال النموذج اليوغسلافي. وأهم هذه التداعيات هو هاجس العودة إلى الوطن. وهنا، تطرح هذه الرواية ثنائية مرعبة: فالعودة إلى الوطن تعني الموت، في حين أن البقاء في المنفى يعني الهزيمة. وبين هذين الخيارين تبرز قضية الانتحار المؤرقة، التي أصبحت شائعة في الوطن والمنفى، كأحد الإفرازات المأساوية للحرب. انظر ما تقول الراوية في هذا الصدد: «الانتحار نوع من الرفاهية أثناء الحرب؛ إنه مواساة يندر توافرها». وتقود الروائية راويتها إلى ثلاثة حلول لا رابع لها: الحل الأسوأ، وهو استمرار الضياع والنوح على الماضي المفقود، أو الحل الأحسن، وهو التكيف والانخراط في حياة جديدة، أو حل «يوروش»، أحد طلبتها، وهو الانتحار. تطرح الدكتورة «تانيكا»، في المحصلة

الأخيرة، فكرة الانتحار جانبا، وتقف مشدوهة، عاجزة عن اتخاذ قرار، بين الحلين الآخرين.

ومن تداعيات الضياع وفقدان الهوية في المنفى، ظهور الإعاقة اللغوية المرتبط باللغة الأم، اللغة القومية التي ولد الإنسان وترعرع معها. فالراوية وطلبتها على حد سواء وجدوا أنفسهم عاجزين عن التعبير عما يدور في خلدهم بلغتهم الصرب/كرواتية (اللغة القومية ليوغسلافيا السابقة) - والتي تفرعت الآن إلى لغات عدة (الصربية، والكرواتية والبوسنية) - ولم يعد لها وجود من الناحية الرسمية. وللتغلب على هذا العجز اللغوي، لجأوا إلى التواصل فيما بينهم باللغة الإنجليزية، أو باللغة الهولندية لمن استطاع تعلمها. ويصل هذا الأرق اللغوي إلى أوجه عندما تتساءل الراوية عن قدرة لغتها القومية على سرد الرواية التي بين أيدينا، فتقول: «هى لغة ذات حفيف، ترن، وترجع الصدى، وتقعقع وترعد، وتزأر، وتدوي كتلعثم أو .. أو لعنة، أو تشويه سمعة، أو ثرثرة، أو عبارة متاجرة خالية من المعنى». لكن الكاتبة، على أي حال، تمكنت من سرد الرواية التي نحن بصددها، بكل ما فيها من هواجس وتجليات.

هناك قضية مهمة أخرى تثيرها تداعيات الضياع وفقدان الهوية، وهي فقدان القدرة على التعبير عن الحب كعاطفة إنسانية. فبالرغم من وشائج الحب القوية التي جمعت

بـين الراويـة الدكتـورة تانيـكا، وإيجـور أحد طلبتهـا، إلا أن تلـك العاطفة بقيـت قابعة خلف جدار فـولاذي عصيّ على الاختراق. لقد حاول إيجور مُلمحا، مرارا وتكرارا، أن يحصل علـى إشـارة، ولو بالتعريـض، عن ذلك الحب الجـارف الذي تكنّـه لـه محبوبته، لكـن دون جـدوى، إذ إنها فقـدت قدرتها على التصريح له بهذه العاطفة، وتحول هذا الحب في نهاية الروايـة، بعد فوات الأوان، إلى مشـهد مـن الهذيان يجمعها بحبيبهـا في حميميـة يعوزها الـدفء الحقيقـي. تأمّل في هـذا الجزء مـن الهذيان حين تقول: «الحياة عاملتنا بشـكل جيـد. يغادر إيجور البيت ويعود إليه مبكرا. يتوجه مباشـرة إلـى الحمام، وينظف ما علق به أثناء العمل، يرتدي ملابس نظيفـة، ويكـف أكمام قميصـه، ثم يأخذ مكانـه على طاولة السـفرة. أقدم وجبـة طازجة. نأكل ببـطء وبغرابة متناهية، ونتكلـم قليلا. كلماتنا جافة كالرمل، وأنا أحب كونها كذلك. ربمـا أصبحنا كالهولنديـين. يقال إن الهولنديـين يتكلمون فقط عندما يكون لديهم شـيء ليقولـوه». ويتجلى الهذيان والتشـاؤم فـي نهاية الروايـة بإطلاق الراوية سلسـلة طويلة من الدعوات المنفرة، والبغيضة موجهة إلى مخاطَب مستتر، إليك منها: «ليتك تُلعن في هذا العالم والعالم الآخر.

ليتك لا تعيش لترى شروق الشمس.

ليت النسور تلتهمك».

وأخيرا وليس آخرا، تقدم الرواية صورة سياسية متعمقة عن حقبة النظام الشيوعي في يوغسلافيا، وما رافقها من فساد، وظلم، واستبداد، أدى في نهاية المطاف إلى بروز النزعات العرقية المقيتة وتفسخ الدولة اليوغسلافية. ثم جاءت الدويلات القومية لتزيد الوضع سوءا، وتتحول بدورها إلى ديكتاتوريات أشد فتكا من سابقتها (الدولة الأم). وتبقى قضايا الاستبداد، والظلم، وغياب الديموقراطية، هي الأسباب الكامنة وراء الحركات الانفصالية والثورات الشعبية، وهي قضايا ليست ببعيدة عما جرى حديثا ويجري حاليا في كثير من الدول العربية (في العراق، وتونس، ومصر، واليمن، وليبيا وسورية، والحبل على الجرار)، وما ستؤول إليه الأمور. من هنا، فإن ما تثيره هذه الرواية في هذا السياق بالذات، ينبغي أن يقع في صلب اهتمامات القارئ العربي في الوقت الحاضر. على كل حال، لا نريد أن نضع العربة أمام الحصان هنا عبر حديث ونقد مطول عن هذه الرواية، ونترك المجال أمام القارئ الفطن لسبر أغوارها واستكشاف مكنوناتها بنفسه، آملين، من خلال توافر ترجمة عربية لهذه الراوية، أن نفتح نافذة، ولو صغيرة، على الأدب البلقاني الحديث، وأن نستخلص العبر المرجوة من انهيار وتفكك الدولة اليوغسلافية.

والله وليّ التوفيق،

أ. د. محمد فرغل

white

الجزء الأول

white

١

إن الراويـة، وقصتهـا، والشـخصيات، وموقفهـم في الرواية التي أنتم على وشك قراءتها، كلها من وحي الخيـال. حتـى مدينـة أمسـتردام هنا ليسـت كلها حقيقية.

د. أو.

المنظـر االطبيعـي الشـمالي شـأنه شـأن الصحراء يشـير إلى المطلق، بيد أن صحراء الشـمال خضراء وتعـج بالميـاه. فيمـا عـدا أنهـا تفتقر إلـى المغريات والاسـتدارات أو المنحنيـات، فالأرض منبسـطة مما يجعل الناس مكشـوفين تماما، وهذا بدوره ينعكس علـى سـلوكهم. لا يحـب الهولنديـون التواصـل الاجتماعـي كثيـرا؛ فهـم جبلوا علـى المجابهة. هم يحملقـون في عيون الآخر ويسـبرون أغواره. وليس لديهـم أماكن للتواري حتى في بيوتهم. هم يتركون ستائرهم مفتوحة، معتبرين ذلك إحدى فضائلهم.

سييز نوتبوم

لا أتذكـر متـى لاحظت ذلك للمـرة الأولى. اعتـدت أن أقف منتظرة الترام في المحطة وأنا أحدق في خارطة المدينة خلف اللوح الزجاجي حيث يؤشـر بالألوان على خطـوط الحافلات وعربات

الترام، تلك الخطوط التي لم أفهمها ولم تعن لي الكثير، أو تعن أي أهميـــة في ذلك الوقت. كنت أقف هناك، وفجأة ودون أدنى فكرة، وأنــا ملازمة الخط الأزرق، تســتولي عليّ رغبة في صدم رأســي بالزجاج وإيذاء نفسي. وفي كل مرة كنت أدنو من ذلك بشكل أكبر. ها أنا هنا، ومن الممكن أن أفعلها في أي لحظة، ومن ثم ...

«توقفي يا رفيقة»، كان يقولها بنبرة فيها شيء من السخرية، واضعا يده على كتفي. «إنك حقا لن تقومي بـ ...؟».

هذا كله من خيالي، طبعا، لكن الصورة التي يرسمها خيالي كانت واقعية لدرجة اعتقدت أنني أسمع صوته وأشعر بيده على كتفي.

يقــول الناس إن الهولنديين لا يتكلمون إلا عندما يكون لديهم شــيء ليقولوه. وفي هــذه المدينة، حيث يحيط بــي الهولنديون مــن كل جانب، وأتواصل معهم بالإنجليزية، غالبا ما أشــعر بأن لغتي القومية غريبة عــن هذا المكان. لم أكن أعرف أن مواطني بلدي يلحنون بهذا الشــكل، مبتلعين نصــف كلماتهم ومتلفظين بما يشــبه الأصوات، إلا عندما غــادرت الوطن. إن اختبار لغتي القومية كمحاولة من قِبل لغوية، عجزت عن توصيل حتى أبسط الأفكار من خلال الإيماءات، والتكشيرات، وتغيير حدة الصوت. إن محادثــة بين أبنــاء جلدتي تبــدو طويلة، ومرهقــة، وخالية مــن المحتوى. وبدلا مــن الكلام، يبدون وكأنهــم يرمون بعضهم بالكلمات، ناشرين رضابا مهدئا، رنانا بعضهم فوق البعض.

لهذا الســبب أشــعر بأني أتعلم الكلام هنا من خلال الحك. وهذا ليس سهلا. إنني في حالة ترقب دائم لمسافات للتنفس كي أتعامل مع حقيقة أنني لا أســتطيع التعبير عما يجول بخاطري.

وثمة سؤال أكبر عما إذا كانت لغة لم تعرف تصوير الواقع، وكون هذا الواقع في التجربة الداخلية معقدا، تكون قادرة على فعل أي شيء على الإطلاق - كسرد القصص، مثلا.

وأنا كنت مدرسة للأدب.

بعد ذهابي إلى ألمانيا، استقررنا أنا وجوران في برلين. كانت ألمانيا اختيار جوران: فألمانيا لا تحتاج إلى تأشيرات. كنا قد ادخرنا بعض المال، لما يكفي لسنة واحدة. وسرعان ما تدبرت أمري بحصولي على وظيفة مربية لدى عائلة أمريكية. دفع لي الأمريكيون راتبا أكثر من مقبول، وثبت أنهم أناس مهذبون. كذلك وجدت عملا لبعض الوقت في المكتبة الوطنية، حيث كنت أرتب الكتب في القسم السلافي ليوم واحد في الأسبوع. وبما أنني كنت أعرف بعض الأشياء عن المكتبات وأتحدث اللغة الروسية، بالإضافة إلى «لغتنا القومية»، وأستطيع أن أدرك فحوى اللغات السلافية الأخرى، لذا كان العمل سهلا . غير أنني لم يكن لدي تصريح للعمل، مما جعلهم يدفعون لي راتبي سرا. أما بالنسبة إلى جوران الذي كان قد درس الرياضيات في جامعة زغرب، فسرعان ما وجد وظيفة في شركة للكمبيوتر، لكنه استقال بعد بضعة شهور، لأن أحد زملائه الذي حصل على وظيفة محاضر في جامعة يابانية، كان يغريه بالمجيء إلى اليابان، مؤكدا أنه سيجد له عملا أفضل هناك. حاول جوران بدوره أن يقنعني بالذهاب، لكنني تمسكت برأيي وقلت: «أنا أوروبية»، وبررت نفسي، بأنني أريد البقاء بالقرب من أمي، ومن والديه. وكان ذلك صحيحا، ولكن كان ثمة حقيقة أخرى.

لم يستطع جوران أن يجد سلام نفسه مع ما حدث. لقد كان خبيـــرا في الرياضيـــات جيدا، وكان محبوبا مـــن طلابه، ولكن، وعلى الرغم من أن تخصصه كان محايدا، فإنه أزيح من وظيفته بـــين ليلة وضحاهـــا. لقد أكد له الجميع مـــرارا أن ذلك طبيعي جدا، ففي أوقات الحرب يتصرف بني البشـــر هكذا دائما. لقد حدث ذلك لكثير من الناس، وليس فقط للصرب في كرواتيا، بل أيضا للكروات في صربيا، وحدث كذلك للمســـلمين، والكروات والصرب في البوسنة. كما حدث ذلك لليهود، والألبان، والغجر؛ لقد حدث ذلك لكل الناس وفي جميع الأماكن في وطننا السابق المشـــؤوم - كل ذلك الجدل فشـــل في ترك أي أثـــر في حرقته الممزوجة بالشفقة على نفسه.

لو أراد جوران حقا، لكنا جعلنا ألمانيا مستقرا لنا. فقد كان هناك آلاف مؤلفة مثلنا. يبدأ الناس عادة بقبول أي وظيفة يســـتطيعون الحصول عليها، ولكنهم في المحصلة الأخيرة يرتقون إلى مستواهم الحقيقي، وهكذا تســـتمر الحياة ويتكيـــف الأطفال. لم يكن لدينا أطفال، مما ســـهل قرارنا على الأرجـــح. كانت أمي، ووالدا جوران يعيشون في زغرب. بعد رحيلنا صادر الجيش الكرواتي شقتنا في زغرب - شـــقتي أنا وجوران - وذلك قبل أن تســـتولي عليها عائلة أحـــد الضباط الكروات. لقد حاول والد جـــوران أن يخرج متاعنا من الشقة، الكتب على الأقل، لكن من دون جدوى. لقد كان جوران صربيا، مما جعلني أنـــا «تلك العاهرة الصربية»، كما أتصور. كان زمنـــا للثأر الدامي، هدفه إيقاع الأذى بشـــكل عـــام، وأخذ الناس بثأرهم حيثما وجدوه، وغالبا ما كان ضحيته الأبرياء.

مع ذلك، رتبت الحرب أمورنا أفضل بكثير مما كنا نستطيع فعله نحن. فجوران، الذي غادر زغرب - مصمما على الابتعاد عنها قدر المستطاع - وقد صار ذلك حقيقة، انتهى به المطاف في الجهة الأخرى من العالم. وبعد فترة وجيزة من رحيله، وصلتني رسالة من صديقة تدعى «إنيس كادفتش»، تعرض عليّ فيها وظيفة محاضر لفصلين دراسيين في الدراسات الصرب/كرواتية في جامعة أمستردام. لقد كان زوجها سيز درايسما رئيسا لقسم اللغات والآداب السلافية، وكان بحاجة إلى من يشغل الوظيفة على عجل. فقبلت العرض بلا تردد.

أمن لي القسم شقة على قناة «أودزيدز كولك». كانت قناة صغيرة مع بضعة منازل فقط، تؤدي جهته الأولى إلى محطة أمستردام الرئيسية بينما تتفرع الأخرى، مثل أغصان سعفة نخيل، إلى شارع «زيدياك»، الذي يشتهر بسكانه الصينيين، وإلى «أودزيدز فوربورجوال» و«أودزيدز أتشبورجوال»، وهما قناتان تمران عبر المنطقة الحمراء. لقد كانت شقة أرضية صغيرة تشبه غرفة في فندق متواضع. كان من الصعب أن تجد شقة في أمستردام، وفق ما قالت سكرتيرة القسم، فقبلت بها على مضض. لقد أحببت الحي، واعتدت في الصباح أن أسلك شارع «زيدياك» باتجاه السوق الجديد، والتوقف عند «جولي جوكر» أو «ثيو» أو «تشاو فرايا»، وهي المقاهي التي تطل على منطقة «دو واج» القديمة. وأنا أرتشف قهوتي الصباحية، كنت أراقب الناس يتوقفون عند الأكشاك التي تعرض أسماك الرنجة، والخضراوات، والأجبان الهولندية، وأكوام من المخبوزات

الطازجة. كان ذلك الجزء من المدينة الذي يتجمع فيه أكبر عدد من الشـــواذ، وبما أنها أيضا تشكل بداية المنطقة الحمراء، فقد كانت مكانا لتســـكع منتهـــزي الفرص الصغار، وربـــات البيوت الصينيـــات، ومدمني المخدرات، والســـكارى، وبقية من الهبيين، وأصحـــاب المتاجـــر، والبائعـــين المتجولـــين وصبيـــة التوصيل، والســـياح، وصغار المجرمين، والعاطلين عن العمل والمشـــردين. حتى عندما كانت تهبط السماء (تلك السماء الهولندية الشهيرة) وتلقي بشـــحوبها على المدينة، كنت أجـــد متعة بالغة في الإيقاع المتمهـــل لمختلف المارة. بدا كل شـــيء حقيـــرا نوعا ما، في حالة أســـوأ لكثرة الاستعمال، وكأن الصوت قد انخفض أو أن الصورة تجري بالحركة البطيئة، كأن ثمة شيئا ما مراوغا في الأمر كله، ومع ذلك بدا الكل متماسكا بفضل حكمة علوية. كان مكتبي في الجامعة في منطقة «سبيوسترات»، التي تبعد عن شقتي مسافة عشر دقائق مشيا على الأقدام. كان كل شيء متناسبا مع بعضه، على الأقل، هكذا كنت أعتقد في بادئ الأمر. أضف إلى ذلك أن صيف تلك الســـنة كان صيفا هنديا، امتد حتى ديسمبر، وكانت أمستردام، لطيفة وبطيئة الحركة مثلما كانت، فذكرتني بالبلدات الممتدة على البحر الأدرياتيكي في المواسم هادئة النشاط.

كنت قد سمعت قصة عن امرأة بوسنية قبل مجيئي إلى هنا، عندمـــا كنت في برلـــين. كانت كل عائلتها فـــي المنفى - زوجها، وأطفالهما، ووالدايّ زوجها - ذات يوم ســـمعت المرأة إشـــاعات مفادها أن الســـلطات الألمانية عازمة على ترحيل كل المهاجرين البوسنيين، وإعادتهم إلى بلادهم. ولأنها كانت خائفة من العودة

إلى البوسنة، طلبت من أحد الأطباء منحها أمر تحويل مزيفا إلى مستشفى الأمراض النفسية. كانت إقامتها لمدة أسبوعين بمنزلة استنشاق لهواء نقي، معبق بعبير الحرية لدرجة أنها قررت ألا تعود. وهكذا توارت، اختفت، وغيرت هويتها. لم يعرف أحد ماذا حدث لها، ولم تعد إلى عائلتها قط.

لقد سمعت عشرات من قصص مشابهة، فالحرب كانت تعني خسائر فادحة للعديد من الناس، ولكنها في الوقت نفسه كانت سببا للانسلاخ من حياة قديمة، والشروع بأخرى من نقطة الصفر. على أي حال، غيرت الحرب مصائر الناس بصورة تامة. بل إن المستشفيات النفسية، والسجون والمحاكم، أصبحت جزءا من الحياة اليومية.

لم يكن لدي أدنى يقين أين أقف من كل ذلك. ربما كنت أبحث عن عذر. فأنا لم أكن في وضع اللاجئة، ولكنني مثل اللاجئين ليس لدي وطن أعود إليه. على الأقل هذا ما كنت أشعر به. قد أكون مثل آخرين كثيرين، حولت بؤس الآخرين في لا شعوري إلى عذر يبرر عدم عودتي. ألم يكن تحطم الوطن، وبؤسي أيضا الذي نشأ عن الحرب، ألم يكن سببا كافيا للرحيل؟ لا أستطيع الإجابة! كل ما أعرفه هو أنني قد ولجت فيما بدا أنه ماض بعيد، ولم أصل بعد إلى وجهة معينة. عندما رحل جوران، انتابني شعور بالراحة مصحوب بشعور قوي بالخسارة والخوف: ففجأة صرت وحيدة تماما برأسمال مهني ضئيل القيمة، ومال لا يكفي سوى لبضعة أشهر. كنت قد حصلت على شهادة في اللغات السلافية وآدابها؛ حيث كتبت أطروحة حول استخدام اللهجة

«الكاجوفية» في أعمـــال الكُتاب الكروات؛ ولدي أيضا خبرة في التدريس لبضع ســـنوات في كلية تدريب المعلــمين في زغــرب. أما أمستردام فكانت فســـحة لالتقاط الأنفاس مدفوعة الأجر. أما ماذا ســـأفعل، أو إلى أين ســـأذهب بعد أمستردام، فلم يكن لدي أي فكرة.

٢

كانــوا في البدايــة ينادونني بالدكتورة «لوســيتش»، ولكن ما إن انتظــم التدريس في الفصل الأول حتــى انتقلوا إلى مناداتي بــ «الرفيقة»، فكانوا يطيلون أحــرف الكلمة وخصوصا الحرف الأخيــر، ويرفعونه عند النهاية وكأنــه ذيل لفظي. لقد أصبحت كلمة «رفيقــة» بمنزلة كلمة الســر الحميمة بينــي وبين طلبتي الجدد، تربطنا جميعا، بمقاعد الدراســة التي تركناها منذ زمن طويل، وفي عهود بعيدة في الماضي، وفي دولة لم يعد لها وجود: فتلك الكلمــة هي التي اســتخدمها الأطفال اليوغســلاف في الخمسينيات وبدايــة الســتينــيات في مخــاطــبة أســاتذتهم. أمــا هنا في هولندا فلم تكن هذه كلمة ذات شــأن كبير بقدر ما كانــت تعني رنين جرس بافلوفي. فعلى الرغم من مخاطبتي لهم بشكل رســمي، فإنني كنت أشير إليهم بتلامذتي أو أطفالي. كل ذلك على سبيل الدعابة المتخيلة: فأنا لم أكن قط «رفيقة» أحد؛ وهم لم يكونوا تلامذة. ولم يكونوا أطفالا، فقد تراوحت أعمارهم بين العشرين والثلاثين عاما مما جعلني أكبر منهم ببضع سنوات فقط. كانت ميليها في مثل عمري، وجوهانكي ولاكي أكبر مني. لذلــك، فإن الشــيء الوحيد الذي كان يذكــر بقواعد اللعبة هو مخاطبتي لهم بشكل رسمي.

لقــد جاءوا إلــى هنا مع انــدلاع الحرب. اســتطاع بعضهم الحصول على صفة لاجئين، وفشــل آخرون. كان معظم الرجال، أولئــك الذين أتوا مــن صربيا وكرواتيا، قــد رحلوا عن بلادهم

لتجنب الخدمة العسكرية؛ حيث جاء البعض من جبهات القتال؛ وآخـــرون جاءوا للتنـــزه، لكنهم قرروا البقـــاء. وهناك أيضا من سمعوا عن كرم السلطات الهولندية في منح الرعاية الاجتماعية والمسكن للاجئين اليوغسلاف، فجاءوا لاستبدال شيوع حيواتهم غير المضمونة بأشـــياء واقعية. وهناك من سنحت لهم الظروف باتخاذ شريك حياة.

فقد قابل ماريو فتاة هولندية في النمســـا - حيث كان والداه قد أرســـلاه خوفا من أن يجند في الجيش الكرواتي - عادت به إلى هولندا. قال لي ذات مرة، مبتســـما: «ربما تزوجتها من أجل الحصول على جواز الســـفر، ثم وقعت في حبها بعد ذلك. أو قد أكون وقعت في حبها بداية، ثم جعلت ذلك رسميا من أجل جواز السفر. لا أستطيع أن أتذكر».

أما بوبان فكان قد ذهب إلى الهند بصفقة مجملة مع مجموعة من نساء ذوات مقامات رفيعة في «بلجراد»، من أتباع «ساي بابا». وقد قامت والدته بتنظيم وتمويل تلك الرحلة، وكان همها الوحيد أن تنتشـــل ابنها من الخدمة في الجيش مؤقتا. وفي الهند ترك الرحلة وهام على وجهه لمدة شـــهرين قبل أن يصاب بالإســـهال ويغادر البلاد جوا على عجل. هبطت الطائرة في أمستردام حيث كان يفترض أن يســـتقل طائرة أخرى إلى «بلجراد»، لكن، وبينما كان يتنقل بين المراحيض في مطار «شـــيبول»، داهمه خاطر رائع وطلب اللجوء السياســـي في هولندا. حينئذ، كان إمكان الرجوع لايزال قائما. لكن الســـلطات الهولندية كانت متساهلة: فقد كان أي أحد قادم من يوغســـلافيا الســـابقة يمكنه استخدام اندلاع

الحرب هنـــاك كذريعة مقبولة. ولكن، مع مـــرور الوقت، تغيرت الأمور وأغلق هذا الباب.

كانت «جوهانكي» هولندية. كانت تتحدث لغتنا بطلاقة وبلكنة بوسنية. كان والداها من اليساريين الهولنديين الذين شاركوا في شـــق الطرق وبناء السكك الحديد مع كتائب الشباب العالمية بعد الحرب العالمية الثانية. فيما بعد، ذهبوا في رحلة ســـياحية إلى شواطئ «دلماســـيا». في إحدى المرات زارت جوهانكي سراييفو، ووقعت في حب شـــخص بوســـني، مما جعلها تقيم هناك لبعض الوقت. والآن، هي مطلقة وأم لطفلتين صغيرتين، وقد قررت أن تحصل على شـــهادة في اللغات السلافية. كانت مترجمة شفوية معتمـــدة لدى المحاكم تترجم مـــن «لغتنا» إلى اللغـــة الهولندية، والذي اتضح أن عملها ذو فائدة كبيرة: فهي كانت تترجم، وتوثق أي وثيقة يحتاج إليها أولادنا.

هنـــاك أيضا من جاءوا مرة أو مرتين ثم اختفوا ســـريعا. كان «لاكي» من «زغـــرب»، وبقي في ذاكرتي لأنـــه الوحيد الذي كان يناديني: السيدة لوسيتش. من الواضح أنه كان يعتبر كلمة «رفيقة» كلمة يوغســـلافية، وشـــيوعية، وبناء عليه فهـــي كلمة مناهضة للكـــروات. كانت لـــه طريقـــة كلام زغربية تصيبنـــي بالعصبية «فكان ينطق كلمة ســـيدة مشددا على المقطع الأخير من الكلمة، ويستعمل بشكل متواصل الأفعال المنعكسة على الضمائر، والصيغ الفعلية لكي يشـــير إلى نفســـه، وقد جعله ذلك يبدو متصلا مع كل شـــيء على سطح الأرض بحميمية. جاء لاكي إلى أمستردام، مثـــل آخرين كثيرين أتوا من أجل الحشـــيش الرخيص. جاء قبل

الحرب ودرس اللغات السلافية وآدابها لسنوات، واعتاش على الرعاية الاجتماعية، والمساكن الشعبية المدعمة من الدولة. قال لي كل الأولاد إنه يعمل مخبرا براتب لدى الشرطة، وأنه يتباهى بترجمة المكالمات الهاتفية المتنصت عليها والمسجلة بين أفراد المافيا اليوغسلافية التي تقوم الشرطة الهولندية بمراقبتهم. كان الأولاد ينادونه بعالم اللغة «لاكي»، كونه كان يدعي أنه يعكف على تأليف قاموس هولندي - كرواتي، والذي لم يستطع قط إيجاد جهة لدعمه. ورفض الاعتراف بالقاموس المتوافر للهولندية والصربية والكرواتية.

ثم هناك زولي الذي سكن مع أحد المثليين الهولنديين من أجل التأهل للحصول على تصريح الإقامة، وداركو، من أوباتيا، الذي كان مثليا بالفعل. كانت السلطات الهولندية كريمة خصوصا في منح اللجوء السياسي للذين ادعوا أنهم قد تعرضوا للتحامل عليهم في بلادهم بسبب «الاختلاف الجنسي»، فكانت أكثر كرما معهم عن ضحايا الاغتصاب أثناء الحرب. وما إن دار النبأ، حتى عرف الناس من أين تؤكل الكتف. كانت الحرب ورقة التوت لكل شيء. كانت شيئا يشبه اليانصيب الوطني: فبينما جرب العديد من الناس حظهم نتيجة مآسيهم الحقيقية، فإن آخرون فعلوا ذلك الأمر لأن الفرصة ببساطة قد سنحت لهم. وفي ظل تلك الظروف الشاذة، فإن الرابحين والخاسرين كان لا بد أن يُحاكموا وفق معايير جديدة.

لقد درسوا اللغة الصرب/كرواتية لأنها تخصص سهل. وإذا لم يكن لديك تأشيرة لاجئ، فإنه يمكنك تمديد إقامتك قانونيا

بأن تقيد اسـمك في أحد البرامج الجامعيـة. لقد بدأ البعض حتى أكملوا برامجهم الدراسـية فـي الوطن، ولكنها لم تعن هنا شـيئا تقريبـا. كانت الدراسـات الصرب/كرواتيـة التخصص الأسـرع، والأسـهل للحصول على دبلوما هولنديـة، حتى تلك الدبلوما الهولندية لم تكن سترفع من شأنك. إذا كنت، مثل «آنا»، لديك تخصص «رئيسي» في لغة أخرى، فيمكنك أن تكسب بعض الأرصدة بلا تعب من اللغة الصـرب/كرواتية. لكـن إذا ما كنت طالبـا بقـروض أو بمنحة دراسـية، فإن الدراسـات الصرب/ كرواتية هي بطاقتك للإقامة.

لقد تدبـروا أمورهم. فقـد لعب معظمهم «كـرة المضرب». ولعـب كرة المضرب في لغة جماعتهم العامية كانت تعني تنظيف البيوت. كان يدفع لهم خمسة عشر جيلدرا في الساعة. والبعض عملوا كغاسـلي أوان، أو نُدل في المطاعم. كان آنتي يجني بعض الفكة من عزفه على الأكورديون في سـوق نوردير. وعملت «آنا» في فرز الرسـائل في مكتب البريد كل صباح. كانت تقول: «ليس الأمر سـيئا جدا. أشعر بأنني مثل القزم في حكاية ساعي بريد تشابيك».

لكن أفضل الوظائف أجرا التي تستطيع الحصول عليها دون تصريـح عمل، هي وظيفة في «الـوزارة». لقد وجد أحد «أهلنا» عملا في مكان يصنعون فيه الملابس للمتاجر الإباحية، وسرعان مـا عملـت كل المجموعة هناك. لم يكن العمـل مضنيا: فكل ما عليك فعله هو تجميع المواد التي يلبسـها الماسوشيين/الساديين من جلد ومطاط وبلاسـتيك كل على حِدة. كان إيجور، ونيفينا،

وســليم يذهبون ثلاث مرات في الأسبوع إلى شارع «ريجيوليتر» شــمال أمســتردام حيث تقع ورشة «ديماســك»، المتعهد لتوريد العديــد من أوجه الصناعــات الإباحية الهولنديــة. وكان هناك نادي دعارة سادي/ماسوشي في منطقة «لاهاي» يدعى «موطن الألم»، وقد اعتاد طلبتي على تسـمية عملهم المرهق في الورشة «بالوزارة». فكان إيجور يقول لي مازحا: «يا رفيقة، ذلك النوع من الساديين/الماسوشيين، يُعتبرون من لابسي الملابس الأنيقة حقا. فهم لا يعتقدون أن أجمل الأجســام هي العارية. وأنا لن أنســى ذلك لو كنت مكان غوتشي أو أرماني».

لقد تدبــروا أمورهم بطريقة جيــدة - آخذين بعين الاعتبار البلد الذي جاءوا منه. وكانوا يجرون وطنهم الســابق خلفهم مثل قطار. قيل هنا إن المافيا اليوغسلافية مسؤولة عن ثلث الأعمال الإجرامية في أمســتردام. وكانت الصحف ممتلئة بجرائمها في السرقة، وتجارة البغاء، وتجارة الســوق السوداء، وجرائم القتل والثأر.

لكنهــم لم يعرفوا مــا ينبغي فعله في وضــع بلدهم الحالي. وإذا ما جاءوا على ذكر كرواتيا والبوســنة، فإنهم يتوخون الحذر الشــديد. وإذا ذكروا يوغســلافيا، التي هي الآن اســم لكل من صربيا، والجبل الأســود، فإنهم يذكرونها بأســى شديد. لم يكن في مقدورهم التكيف مع الأسماء الجديدة التي استمرت وسائل الإعلام في إطلاقها. على سبيل المثال، كفل يوغسلافيا. فكانت ميليها تصرخ: «بحق الســماء، من أين يأتون بمثل ذلك الشــيء؟ أذلك لأنهم قطّعوها إربا كشرائح اللحم؟».

يوغسلافيا، البلد التي ولدوا فيها، والتي جاءوا منها، لم تعد موجودة. لقد عملوا كل ما في وسعهم للتعامل معه بتجنب الاسم، مختصرينه ليصبح «يوغا» (مثلما فعل العمال المهاجرون اليوغسلاف في ألمانيا، من قبلهم)، وهكذا أصبحت «يوغسلافيا السابقة» تسمى «يوغا السابقة»، أو تحويلها على سبيل الدعابة إلى «بلد تيتو»، أو «التيتانك» أما بالنسبة إلى سكانها، فقد أصبحوا يسمون بـ «اليوغاف» أو بكل بساطة «أهلنا»، وهي الأكثر شيوعا. وشاع ضمير الملكية أيضا عند الإشارة إلى اللغة التي يستخدمونها فيما بينهم بـ «لغتنا» (فلم يكن أحد منهم سلافيا، أو مقدونيا، أو ألبانيا): فلكي يتجنبوا الاسم السابق، وبما أن اللغة الصرب/كرواتية أصبحت خطأ من الناحية السياسية، فإنهم أطلقوا عليها ببساطة «لغتنا».

٣

لم تعد جديرة بأن تصور
فقد استغرقت سنين
لذا رحلت كل الكاميرات
لساحات معارك أخرى.

فيسلاوا شيمبروسكا

في أول مرة دخلت فيها حجرة الدراسة، كان بوسعي أن أقول مـــا الذي جعلهم «أهلنا». إن كلمـــة «أهلنا» لها صفعة غير مرئية على وجوههم. فقد كان لديهم تلك النظرات الجانبية، التي تشبه نظـــرة أرنب، مع ذلك التوتر الخاص في الجســـم، وتلك الغريزة الحيوانية في شم الهواء لمعرفة الاتجاه الذي سيأتي منه الخطر. جاء استخدام ضمير الملكية «نا» من خلال كآبة مؤكدة متوترة في ملامحهم، وفي غيمة خفيفة على جباههم، وانحناء داخلي بالكاد يُرى. قد يقول سليم: أهلنا يجوسون في المدينة كأن هناك غابة، مضروبة بقذيفة. ونحن جميعا هذه الـ «نا».

لقـــد هربنا من بلادنـــا مثل جرذان نجت من ســـفينة تغرق. صرنـــا في كل مكان. الســـواد الأعظم هرول إلـــى حدود الدولة الســـابقة، للاختباء فترة، وهم يظنون أن الحرب ستنتهي قريبا، كما لو أنها عاصفة ممطرة وليست حريقا مدمرا. كانوا يختبئون عند أقاربهم، أو أصدقائهم، أو أصدقاء أصدقائهم، الذين عملوا ما بوســـعهم للمســـاعدة. وقد يذهبون إلـــى مخيمات اللاجئين

المرتجلة، وإلى منتجعات السـياح المهجـورة، وإلى الفنادق آملين أن تأويهم مؤقتا - في الأغلب فنادق السـاحل الأدرياتيكي، وكان ذلك فقط خلال فصل الشتاء، عندما لم يكن هناك أي سائحين ومن ثم يعتنون بأنفسهم، وبعد ذلك يعودون إلى الوطن، فالحرب لـن تبقى إلى الأبد، ولم تبق حرب إلـى الأبد من قبل، فالحرب تنهـك الناس، وعندما يتعبون بما يكفـي، تتوقف. بعضهم مكث سـنة، أو سنتين، أو ثلاث سـنوات - حيث لم يعد السائحون - وآخرون انتقلوا. وكل منهم لديه قصة يرويها.

امرأة مـن بلجراد عرفت إلى أين تتجـه الأمور وارتعبت من الكراهية التي أحستها من الزميل الصربي، فباعت منزلها، قبيل اندلاع الحرب بالضبط، وانتقلت إلى كرواتيا «الآمنة». اشـترت شقة في روفيني. ولكن عندما بدأ الكروات يكشرون عن أنيابهم، باعت تلك الشـقة وانتقلت إلى سـراييفو. وكانـت أول القنابل الصربية على الإطـلاق - كأن تلك القنابل تقتفي الخطوط في راحـة يدها منبئة بالمصير الذي ينتظرهـا وعائلتها - قد فلقت شـقتها من وسـطها. قالت صديقة لها وهي تـروي قصة تلك المرأة ببسـاطة: «الحمد لله أنها لم تكن في المنزل عندما قاموا بالقصف. لقد كتبت لي في رسـالتـها الأخيـرة، أنها الآن على ما يرام. من كان يتصور أنه سـينتهي بها المطاف في «كاراكاس» من بين كل مدن العالم!».

اللاجئون من سـلوفينيا - وهم كروات - توجهوا إلى زغرب، وإسـتريا، ثم إلى البحر. بينما توجه اللاجئون من البوسـنة إلى الجنوب، إلى كرواتيا، أو إلى الشرق، لصربيا. أما صرب كرواتيا

فقد ضربهم الكروات بهدوء ليتراجعوا، إلى أن جرت مطاردتهم بالجملة. وانسل المجريون من فويوفودينا بلا ضوضاء إلى المجر، وتبعهم بعد حين أعداد من الصرب أيضا. وسرعان ما بدأ ألبان كوسوفو في الانتقال.

لقد هربنا من كل مكان وإلى أي مكان نستطيع الوصول إليه. والثمن المدفوع اعتمد على الظروف. البعض فكر فيما يخصه فقط، والبعض فيما يخصه ويخص الآخرين، وآخرون لم يكترثوا بالسؤال حول ذلك على الإطلاق. بعض المسلمين البوسنيين ذهبوا إلى تركيا، وإيران، والعراق، وبقدر ما إلى باكستان؛ والكثير منهم ندم على ذلك اليوم. بعض اليهود البوسنيين ذهبوا إلى إسرائيل؛ والعديد منهم ندموا على ذلك اليوم. غيّر الناس أسماءهم، واشترى من استطاع جواز سفر رخيصا. ما كان يعني كل شيء لهم حتى وقت قريب - كإيمانهم، وجنسيتهم - صار فجأة عملة عديمة القيمة عديمة الجدوى. سيطر عليهم حب البقاء على الحياة. وما إن تم تأمين ذلك، وما إن استقروا على شاطئ الأمان، حتى تنهدوا، وتحسسوا أنفسهم ليتأكدوا من أنهم مازالوا أحياء، وعلق كثيرون أعلامهم مرة أخرى، وأقاموا أيقوناتهم وشعارات نبالتهم، وأضاءوا شموعهم.

كنا في كل مكان. أولئك الذين اندفعوا مذعورين حصلوا على أفضل الأماكن: كأمريكا وكندا، والآخرون الذين ترددوا، تاهوا، وتحولوا إلى ما تبقى مفتوحا أمامهم من تأشيرات سياحية لمدة شهر أو شهرين، ثم يعودون إلى منازلهم استعدادا للبدء مرة أخرى. في ظل الفوضى العامة، استخدم الكثيرون الشائعات

كبوصلتهم الوحيدة - شائعات حول أين يمكنك أن تذهب دون وثائق وأيها لا يمكنك فعل ذلك فيها، وأي الأماكن أفضل في العيش وأيها الأسوأ، وأين يُرحب بهم وتلك التي على نقيض ذلك. وجد البعض أنفسهم في بلدان لم يكن ليروها في غير تلك الظروف. وبسرعة ارتفعت قيمة جوازات السفر الصادرة عن أول دولتين انفصلتا، سلوفينيا، وكرواتيا. فكان يمكن لجواز سفر كرواتي أن يوصلك إلى بريطانيا العظمى لفترة معينة - إلى أن فهم البريطانيون الأمر وأغلقوا الباب. والقلة من السذج وقعوا ضحايا لشائعات قديمة - مثل الترحاب بالبيض بقلوب مفتوحة في جنوب أفريقيا - فذهبوا إلى هناك. أما الصرب، فقد كانت اليونان مهمة يسيرة، فذهبوا كسائحين وبائعات هوى، وانتهازيي حرب، وغاسلي الأموال القذرة واللصوص. البعض امتلك ثلاثة جوازات سفر - كرواتي، وبوسني و«يوغسلافي» على أمل الفوز بالجائزة الكبرى على الأقل ولو لمرة: فقد قرر البعض الانتظار، متابعين الحرب وكأنها عاصفة على وشك أن تتلاشى. كان الناس الذين لديهم أطفال قلقين على أطفالهم أكثر من قلقهم على أنفسهم: إذ كانت سلامة الأطفال هي المهمة.

كانت أوروبا تعج بمواطني يوغسلافيا السابقة، إذ تم إحصاء موجة مهجري الحرب بمئات الآلاف. كان قد سُجل مئات الآلاف من الأسماء، أسماء أناس في وضع اللجوء الرسمي. فاستقبلت السويد ٧٠ ألفا، وألمانيا ٣٠٠ ألف، وهولندا ٥٠ ألفا. وكان هناك جيش من غير المسجلين رسميا. لقد كنا في كل مكان. لقد فقدت كل القصص صفتها الشخصية تماما، أو كونها مُحطِمة

تماما. لأن الموت نفسه فقد قدرته على التحطيم. فقد كان هناك الكثير من الموتى.

سرعان ما تعلمت التقاط مواطني بلدي من بين الجموع، الرجال، وخصوصا الرجال كبار السن، الذين تحملوا الكثير. كانت محطات القطار الرئيسية وأسواق السلع المستعملة أماكن التجمع المفضلة لديهم. كانوا يتجولون في تشكيلات من ثلاثة أو أربعة أشخاص، مثل الدلافين، مرتدين سترات خفيفة لصد الريح، والأفضلية للجلد، وأيديهم مدفونة في جيوبهم. قد يقفون معا لفترة - يبدلون أقدامهم من قدم إلى أخرى، وينفثون دخان سجائرهم متخلصين من خوفهم - ثم يتفرقون.

في حيِّنا في برلين حيث كنت أسكن أنا وجوران، اعتدت أن أتوقف أمام واجهة عرض أحد «نوادي» اللاجئين. من خلال الزجاج كنت أستطيع أن أرى «أهلنا» يلعبون الورق بصمت، ويحملقون في جهاز التلفاز، ويتكلمون من حين إلى آخر وهم يرتشفون البيرة من الزجاجة مباشرة. الخارطة المرسومة يدويا على الحائط كانت مرصعة بالبطاقات البريدية. كانت ذات جغرافيا خاصة بها. فالأماكن التي جاءوا منها - مثل برتشكو، أوبيلينا - كانت تقع في مركز العالم: فتلك هي الأوطان الوحيدة التي تركها الرجال. لقد بدوا، من خلال حلقات الدخان المتصاعد التي تحيط بهم، كأنهم «سابقون» مثل جنسيتهم السابقة؛ لقد بدوا كجثث خرجت من القبور من أجل زجاجة من البيرة، أو دورة من لعبة الورق، لكن انتهى بهم المطاف في المكان الخطأ.

في الشارع غالبا ما كنت أستمع خلسة لأسلوب كلامهم.

كان كلامهم يعج بالأرقام. لا يستطيعون التوقف عن ذكر الأرقام. المـــارك، ٥٠٠ مـــارك، ٣٠٠ مارك، ١٠٠٠ مـــارك... أما هنا في أمســـتردام، فـــكان حديثهم يدور حول الكثير مـــن الجيي، وهي كلمتهم الدارجـــة للجيلدرات (العملة الهولنديـــة): كذا وكذا من الجيي... ويطيلون حروف العلة وكأنهم يغمغمون، وفي الحقيقة كان كلامهم تمتمة أكثر منه حديثا، حديث لا ينتهي عن حسابات أرصدة واقعية أو متخيلة.

كان لـــدى الجميـــع مصطلحـــات ازدراء ينعتـــون بها ســـكان الدول التي حلـــوا بها: فنعتوا الألمان بـ «الشـــفابو»، والهولنديين بـ «الداتشـــير»، والسويديين بـ «الشـــفيد». وهذا جعلهم يشعرون بأهميتهـــم. كانوا يُتبلون حديثهم «بكما أقول» و«صدقني»، وذلك لتأكيـــد دورهم فـــي القضايا المتداولة، بغـــض النظر عن أهمية الموضـــوع أو تفاهة دورهم فيـــه. فالإصـــرار على الرأي كـــان كل ما ينشـــدونه. فيقول أحدهم: «أستطيع الذهاب من أوستدروب إلى ليدزبلين في إحدى عشرة دقيقة». فيرد آخر: «كيف تستطيع ذلك في إحدى عشرة دقيقة. هذا يحتاج إلى خمس عشرة دقيقة على الأقل. هل قمت بحســـاب الوقت؟» فيرد: «نعم يا صديقي. خمس عشـــرة دقيقة بالضبط، من لحظـــة ركوبك الترام». كانت تلك الأحاديث، حيلة الرجال. كل كلمة مقصودة لتأجيل اللقاء مع الهوان وللتخلص من الخوف.

إن الطريقـــة التي يتحركون بها، والأماكـــن التي جاءوا منها، كشـــفت عن فقدانهم لفضائهم الشـــخصي: المقعد الطويل أمام المنزل، حيث كـــان يمكنـــهم مشـــاهدة العـــالم يمر من أمـــامهم،

أو واجهة المدينة المطلة على البحر، حيث كان يمكنهم رؤية السفن التي ترسو، والاخرى التي تنحدر عن المعبر، وساحة المدينة، حيث كان يمكنهم التمشـــية مع أصدقائهم؛ والمقهى، حيث كان يمكنهم أن يجلسوا إلى طاولتهم ويتناولوا شرابهم . لقد كانوا يبحثون في المدن الأوروبية عبثا عن الفضاء النظير الذي تركوه.

كانــوا يبحثون أيضا عن النظير الإنســاني. كان جوران كثيرا ما يقع فريســة الحنين إلى يوغسلافيا، وعندما كان يتغلب عليه الحنــين، كان معتادا أن يجر أول رفيق من البلد نفســه يصادفه إلى البيت لتناول الشــراب. وســرعان ما سمعت ما يكفيني من القصص حول مراكــز اللاجئين في ألمانيا وتجربتهم هناك. كان «أهلنا» يلتصقون مثل الغراء بأي شــخص روســي، أو أوكراني، أو بولنــدي، أو بلغاري يقابلونه، شــاعرين برابط معهم . أخبرنا شخص بوســني حكاية امرأة بولندية كانت تأتي إلى برلين على حافلة رحلات اليــوم الواحد لتزويد «أهلنــا» بالجبن، والنقانق البولندية بأســعار رخيصة، ومطارحة علــى التبن من حين إلى آخر. كانت النقود التي كســبوها، يذهبون بها لشراء الحاجيات التي تكفيهم لمدة أســبوع من برلين، مثلا، ثم يســتقلون الحافلة عائدين إلى منازلهم. كان بمقدورهم أن يقتفوا أثر بعضهم بعضا في الشــارع: إذ علمتهم بليتهم المشتركة تلك الحيلة. لقد أخبرنا الشــخص البوسني نفســه عن بيت لل... في برلين (مستخدما الكلمة الألمانية «باف») حيــث كان يصرف كل المخصصات التي يتلقاهــا كلاجئ. كانت الفتــاة التي يذهب من أجلها، واســمها «ماشــا»، «تأخذ منــه كل ثروتــه ولا تعــطيه شــيئا بالمقابــل»،

ولكنــه كان راضيا بذلك. كان يقول: «لأنها روســية، واحدة منا. فأنــا لا أصرف دراهمي على فتاة ألمانية. تلك الفتيات الألمانيات يفتقرن إلى الروح. هن لسن مثل فتياتنا». وكان يقصد «بفتياتنا» الفتاة الروسية، «ماشا».

كان الرجــال أكثر شــكوى من غيرهم؛ فشــكواهم لا تنقطع قــط. يشــكون من الطقس يشــكون من الحرب، ومــن قدرهم، والجور الذي وقع عليهم. يشــكون مــن ظروف في المخيمات إذا كانوا يعيشــون في أحدها؛ وتذمروا من الظــروف أن لم يكونوا مقيمين فيها. يشكون من الرعاية الاجتماعية؛ فتذمروا من الذل لاضطرارهــم إلى قبولهــا؛ وتذمروا من عــدم الحصول عليها. يشــكون طوال الوقت من كل شيء وبنفس القوة. كان الأمر وكأن الحياة نفســها أصبحت عقابا لهم: فكل شــيء كان يغيظهم، كل شــيء كان يغضبهم، كل شيء كان يجرحهم؛ فلم يكن هناك شيء كافٍ لهم، وكل شيء تقريبا أكثر مما ينبغي.

كانت النســاء أقل ظهــورا بكثير من الرجــال. لقد بقين في الخلفية، لكنهن حافظن على اســتمرارية الحياة: فرتقن الثقوب لمنــع الحياة مــن التدفق خارجا؛ واضطلعن بهــا على أنها مهمة يوميــة. أما الرجال فبدوا كأن ليس لهم مهمة؛ فبالنســبة إليهم كونك لاجئا كانت مماثلة لكونك عاجزا.

هنا في أمستردام كنت أذهب أحيانا إلى مقهى بوسني اسمه «بيــلا»، وهــو مكان يرتاده مجموعة بائســة مــن لاعبي الورق، ومشــاهدي التلفاز. في كل مرة كنت أدخــل المقهى، كنت أقابل بنظــرات طويلــة لا تعبر عن أي شــيء – ولا حتى الدهشــة أو

الســخط – من منظر فتاة تغزو مكانا للرجال. كنت أتخذ مقعدا عند البار، وأطلب «قهوتنا» (التركية)، وأجلس هناك بعض الوقت وكأني أعاقب نفســي، فأخفــض كتفيّ قليــلا بطريقة غريزية لانسجم في جلستي. كنت أشعر بالصفعة الخفية على وجوههم تجتاح وجهي. لم يكن لدي أدنى فكرة عن ســبب وجودي هناك. قد يكون ذلك نابعا من رغبة غامضة باقتفاء أثر «قطيعي»، الذي لم أكن متأكدة قط أنه يعود لي – أو أنه كان لي أبدا.

لقد وافق تلامذتــي أيضا أن يكونوا «أهلنا» أحيانا، رغم أننا لــم نعرف ماذا كانت تعني الكلمــة، ورفضوا ذلك أحيانا أخرى، وكأن تلك الكلمة يستتبعها خطر حقيقي، محسوس. وعندما كنا نرفضها، كنا نرفض الانتمــاء إلى «أهلنا هنا» أو «أهلنا هناك». كنا في بعض الأوقات نقبل هويتنا الجمعية الغامضة، وفي أوقات أخرى نرفضها بازدراء. لقد سمعت الناس مرارا وتكرارا يقولون: «إنها ليســت حربي!»، وهي لم تكن حربنــا. لكنها أيضا حربنا. ولأنها حربنا، لم يكن يجب أن نكون هنا كذلك.

٤

لغتنا، هي كنز أرواحنا الوحيد،
أقحمناها في حقيبة السفر
بجانب ألبوم صور العائلة،
ثم ذهبنا للتمايل مع طواحين الهواء
نضرب الهواء الهولندي البارد.

فريدا دراكوفتش

كان أول شيء طلبته من تلامذتي هو كتابة الإجابات عن بعض الأسئلة. سألتهم عما كانوا يتوقعون تعلمه من المقرر الدراسي، موضحة أن يوغسلافيا لم يعد لها وجود، وما إذا كان ينبغي معاملة الآداب اليوغسلافية كوحدة واحدة، أم وحدات منفصلة، وأي الكتب والأعمال تعجبهم، وهلم جرا. ثم طلبت منهم أن يكتبوا سيرا ذاتية مختصرة عن أنفسهم. باللغة الإنجليزية.

«لماذا بالإنجليزية؟».

قلت: «لتسهيل الأمر عليكم».

وقد كنت أعني ذلك، إذ كنت متخوفة (ولو أني كنت مخطئة) من أن استخدام «لغتنا» سيؤدي بهم إلى تبني الأسلوب الاعترافي، وهذا ما لم أكن أريده. ليس بعد.

تمتم أحدهم: «أيا كان».

«حسنا، افعلوا ما يحلو لكم».

«هل تريديننا أن نعطي أسماءنا الكاملة؟».

«الاسم الأول كاف».

«ماذا تريديننا أن نضع فيها؟».

«أي شيء يخطر على بالكم».

تذمر طالب آخر: «لقد فعلنا ذلك في المدرسة الابتدائية».

قمت بقراءتها في المنزل. تأثرت بسذاجة إجاباتهم. («الأدب لوحة زيتية للعقل، أغنية للروح»). كانت قائمة الكُتاب والأعمال التي سجلوها والتي تثير إعجابهم يمكن التنبؤ بها على نحو مخيب للآمال. ذكروا هيرمان هيسه، وبالطبع، قدموا العديد من رواياته: سيدهارتا، ماجيستر لودي، ستيفن وولف. ثم ذكروا ميشا سلموفتش(الطلبة، الذين قرأوا الأدب من أجل رسالته الفعالة في الحياة، كانوا يعتقدون، بحق أو بغير حق، أن سلموفتش هو النظير اليوغسلافي لهيسه) بروايته الكلاسيكية الموت والدرويش. أنا واثقة من قدرتهم جميعا على سرد مقطعين من الكتاب، أحدهما يشجعهم على الفرار من هويتهم الإقليمية («الإنسان ليس مجبولا من الخشب؛ فمأساته الكبرى كونه مقيدا»)، والآخر يغرس فيهم العدمية المحببة للإقليمية («فالموت غير معقول مثله مثل الحياة»). وكان الموضوع الشائع الآخر هو كتاب فتيان محطة حديقة الحيوانات، موضع إعجاب المراهقين ويمثل جيلهم. كان وجود بوكوفسكي أيضا ضروريا لعديد من الأجيال بوضعه الثائر، واللامنتمي. لقد نعتوه بـ «الممتاز» و«الرهيب»، و«الحاكم» فهو قد مثل «كل ما يعنيه الأدب»؛ «الأدب بحفلاته الراقصة».

استدعت إجاباتهم صورة منسية منذ عهد بعيد للبلدات المحلية اليوغسلافية: مكتبة البلدة الوحيدة، التي تبيع

القرطاسية أكثر مما تبيع الكتب؛ ودار السينما الوحيدة «حيث كانوا يشاهدون» مرة، إن لم يكن مرتين «كل فيلم جديد؛ والمقاهي الممتلئة بالدخان، حيث يتجمعون بانتظام؛ واللكورزو، معهد البحر المتوسط بالساحة العامة حيث يتجولون كالجراء باحثين بعضهم عن بعض. لقد تشكلت ذائقتهم وفقا لهذه البلدات الباهتة مثل بيلوفار، وفيريس، وبيلا بلانكا، إضافة إلى حفنة من الكتاب مثل كارلوس كاستنيدا، الذي ظهر في طريقهم عندما تناولوا الحشيش لأول مرة، وبعض البوذية من الدرجة الثالثة، وقليل من عصر الموضة، وشيء من النظرية النباتية، وبعض من بوكوفسكي، والكثير من موسيقى الروك، وقليل من القراءة (ما يكفي لذر الرماد في العيون)، وأطنان من النصوص الهزلية (كانت تقرأ سرا من تحت مقعد الدراسة)، وكثير من الأفلام السينمائية، وقليل من الإنجليزية التي وصلتهم أكثر ما وصلتهم عن طريق الأفلام وليس عن طريق معلمي اللغة الإنجليزية. لقد كانت تلك الذائقة خليطا من اللذة والألم، ذائقة مضطرمة برغبة في الهروب، واقتناص أول فرصة للتوجه إلى زغرب أو بلجراد، أو سراييفو» أو إلى أبعد من ذلك.

في النهاية، ما أثبته تمريني البسيط أنه لا يمكنهم الاهتمام بالأدب. إنه يضجرهم. حتى من تلقوا تعليما أدبيا - فميليها كانت تحمل شهادة في الأدب اليوغسلافي من جامعة سراييفو - وقد غيرت الحرب ما هو أكثر بكثير من أولوياتهم، لقد غيرت ذائقتهم. كتبت ميليها تقول:

بدأت ذائقتي تتغير حالما اندلعت الحرب. والآن نادرا ما أستطيع التعرف على نفسي. الأشياء التي كنت أحتقرها قبل الحرب، وأسخر منها على نحو ممرض عذب، أصبحت الآن أذرف الدموع عليها. لا أستطيع أن أبعد نفسي عن الأفلام القديمة التي تنتهي بانتصار العدالة. قد تكون تلك الأفلام عن رعاة البقر، أو روبين هود، أو سندريلا، أو وولتر يدافع عن سراييفو. قد أكون أيضا نسيت كل شيء تعلمته في الجامعة. أترك أي كتاب لا يشد أوتار قلبي. ولم يعد لدي صبر للاستعراض الفني وخيلاء التقنيات الأدبية أوالتهكمية «وهي أكثر الأشياء التي كنت جهزت لها مخزنا ضخما. أما الآن فأنا مولعة بالبساطة، والحبكة التي تتكشف عن رمزية أخلاقية. وأكثر ما يعجبني، والنوع المفضل لدي هو الحكاية الخرافية. أحب العدالة الرومانسية والبسالة، والشفقة، والصدق. أحب أبطال الأدب الذين يتمتعون بالشجاعة حين يجبن الناس العاديون، والذين يتمتعون بالقوة عندما يكون الناس العاديون ضعفاء، والذين يتمتعون بالنبل والطيبة عندما يكون الناس العاديون وضعاء وحقراء. أعترف بأن الحرب قد جعلت ذائقتي طفولية: فأنا أذرف الدمع عندما أقرأ كتب الأطفال القديمة خاصتي» المغامرات الغريبة للصبي المبتدئ هلووبتش، وصبية شارع بال، وقطار في الثلج. وإذا قال أحد إنني تحولت إلى نصير متطرف لحكايات المأثر البوسنية، كقصة «برانكو تشوبك»، مثلا، فإنني كنت أرى أنه فقد عقله.

رد معظمهم بالإيجاب عما إذا كانوا يرون أن تُعامل الآداب الكرواتية والصربية والبوسنية كوحدة واحدة.

(«طبعا ينبغي ذلك. فنحن نتكلم اللغة نفسها، أليس كذلك؟
وكتب ماريو: لم لا نمضي أبعد من هذا، وندرج الآداب السلوفينية، والمقدونية، والألبانية. فكلما كانت أكثر زاد المرح»).

أما موضوع السير الذاتية المختصرة فقد كتب جميعهم جملتين أو ثلاثة بإنجليزية متكلفة. («ولدت سنة ١٩٦٩ في سراييفو، البوسنة، حيث عشت طوال حياتي ...» ولدت سنة ١٩٧٤ في زغرب لأم كاثوليكية وأب يهودي ... «ولدت سنة ١٩٧٢ في زفورنك لأب صربي وأم مسلمة ...» ولدت في لسكوفلك سنة ١٩٧٢ ... - وكنت كلما أمعنت بالقراءة اتضح لي أن الكتابة بلغة أجنبية تمدنا بعذر للتحفظ الموضوعي والإيجاز. فأنا نفسي لم أكن أستطيع أن آتي بأكثر من قولي إنني ولدت سنة ١٩٦٢ في زغرب، في يوغسلافيا السابقة، لذا حازت كلمات إيجور: «اللعنة! ليس لدي أي سيرة ذاتية»، رضاي التام، وجعلتني أنفجر ضاحكة.

بدت سيرتي الذاتية خاوية مثل شقتي تماما، ولم أعرف ما إذا كان شخص ما قد أخرج الأثاث في غفلة مني، أم أن الشقة كانت دائما هكذا. لقد كانت مواجهة الماضي القريب عذابا تاما، ومحاولة التحقق من المستقبل المجهول مقلقة. (أي مستقبل على أي حال؟ المستقبل هناك؟ أم المستقبل هنا؟ أم مستقبل ينتظرك في مكان آخر؟) لهذا السبب وجدنا أن السيرة الذاتية المختصرة نوع من الكتابة عسير جدا. حتى أن بعض الأسئلة الأساسية كانت تجعلني أتردد. أين ولدت؟ في يوغسلافيا؟ في يوغسلافيا السابقة؟ في كرواتيا؟ اللعنة! هل لدي أي سيرة ذاتية؟

كما أربكتني قليلا أعياد ميلادهم: فتطورهم العقلي تخلف كثيرا عن عمرهم الزمني. ربما كان المنفى نوعا من النكوص. ففي هذه المرحلة من العمر يُفترض أنهم قد استقروا في وظائفهم وأنجبوا أطفالا، لكنهم ها هنا يتوارون خلف مقاعد الدراسة. إن حالة المنفى قد أخرجت كل المخاوف الطفولية الدفينة إلى السطح. ففجأة لم تعد نظرة ولمسة يد الأم الحنون موجودة. كان الأمر أشبه بكابوس. ربما كنا في الشارع، في السوق، أو على الشاطئ، وسواء كانت غلطتنا أم غلطتها، فقد افترقت أيادينا وذهبت الأم أدراج الرياح. فواجهنا عالما بدا شاسعا وعدوانيا بشكل مرعب. تتقدم تجاهنا أحذية عملاقة ونحن نشق طريقنا في غابة من الأرجل البشرية، فيزداد رعبنا...

كثيرا ما راودني انطباع أنني أرى أثرا لذلك الخوف في الظلال التي لفت وجوه طلبتي. قالت آنا ذات مرة: «في المهجر تكبر قبل الأوان، وتبقى صغيرا إلى الأبد» في نفس الوقت، وفي تلك المسألة، في رأيي، تكمن حقيقة عميقة.

في الرد على السؤال عن توقعاتهم حول ما سيخرجون به من المقرر الدراسي، كتب يوروش: كلمة «يستعيد»، وتلك الكلمة، بالطريقة التي استعملها بها، بدت وكأنها تعني ليس فقط «الاستفاقة من صدمة»، و«استعادة الوعي»، و«العودة إلى الحياة»، لكن أيضا «العودة إلى الذات»، وكأنها افترضت مسبقا مكانا، وشخصا يتخبط في هذا المكان، يبحث عن طريق يقوده إلى الوطن. في البداية شعرت بتوتر ما لبث أن أعقبه رعب من تلك الإجابة. فهل كنت جاهزة للتعامل مع ذلك النوع من الاحتياج؟

٥

تضاريس الأرض الهولندية منبسطة؛
تتوارى بعيدا بعد قول وفعل كل شيء
إلى داخل البحر، الذي يجسد بعد قول
وفعل كل شيء، هولندا أيضا ... ففي هولندا
لا يمكن للمرء أن يتسلق الجبال أو يموت من الظمأ،
فضلا عن أن يترك أثرا واحدا
عندما يترك المنزل فوق دراجة هوائية
أو ماخرا عباب البحر. ذكرياتنا
ليست سوى هولندا أخرى، لا يمكن لسد
أن يقف في وجهها. وهذا يعني أنني
أعيش هنا في هولندا منذ زمن أطول
من تلك الأمواج المحلية المتلاحقة
لغير مستقر لها. مثلها مثل هذه السطور.

جوزيف برودسكي

في بعض الأحيان، عندما كنت أواجه صورتي في مرآة الحمام، كنت أشعر برغبة عابرة لمعرفة أين أنا بالضبط. لم أطرح أسئلة مثل هذه قط عندما كنت أعيش أنا و«جوران» معا؛ بل لم أطرح أسئلة على الإطلاق: إذ يبدو أنه لم يكن هناك وقت لطرحها. وفجأة أصبح لدي متسع من الوقت، وذلك جعلني في غاية القلق. بدا الأمر وكأن هناك الكثير جدا من الوقت،

والقليل مني. غالبا وبإطراد تغلب عليّ شعور بغيض، فقدان للحس لم أعهده من قبل. لم أتوقف عن تفحص نفسي كمن يتفحص فمه بلسانه بعد علاج الأسنان، على أمل استعادة إحساسي، ولكن الإغراء الذاتي بالخدر وفقدان الحس كان أقوى ورفض الإذعان. لم يكن لدي أي فكرة من أين جاءت تلك القوة أو متى بدأت.

بُعيد انتقالي إلى هنا، بدأت الشقة تثير أعصابي. فقد ترك الحمام الضيق، الذي كان بلا نوافذ، بدشه، وبلاطه الأبيض، وأرضيته الأسمنتية، شعورا كابوسيا لدي؛ فهو يشبه مقطعا من فيلم قديم بالأبيض والأسود. استمررت في محاولة تحسينه: فاشتريت بعض حليات رخيصة، وصبانة للصابون، ومنشفة غالية الثمن بشرائط زينية عند الحواف مشغولة يدويا؛ وجددت الإضاءة. كشفت إضاءة الأنوار الجديدة عن تراكم الأوساخ في الفراغات بين البلاط، وفي إحدى الليالي أمضيت عدة ساعات في إزالة الأوساخ بفرشاة أسنان قديمة في محاولة عنيدة لتغيير شكل المرحاض الخارجي بقوة بهيمية. كان جدار الصالة الصغيرة مصبوغا باللون الأخضر الرمادي عند نصفه الأول من ناحية الأرضية، ومفصولا عن نصفه الآخر بخط أخضر بشع. وكانت الأرضية مغطاة بمشمع أسود، مما أعطى الشقة رائحة مستشفى أو سجن. لقد فعلت كل ما أستطيع فعله «اشتريت مزهرية، ومصباحا، ولوحة بالأبيض والأسود لأفق مدينة نيويورك» لكن وجود كل هذه الأشياء كشف عن قلق الغياب. غياب ماذا؟ لم يكن لدي إجابة. تساءلت إن كان مكان آخر سيجعلني أشعر بشكل أفضل. لم أكن متأكدة أيضا. في الليل ألتف بالظلمة وبدثار صوفي، أجلس في مقعدي

ذي الذراعين مقابل النافذة وأحملق إلى الخارج من خلال القضبان، أحملق فيمن هم أحياء من أجل سماع ضجيج أو أصوات، أو قطة أووقـــع أقدام أناس يندفعون عابريـــن. بالتأكيد لم أكن أنا المكان. لكن آنذاك لم أكن أنا نفسي أيضا.

ذعري من شـــقة البدروم تلك راح ينمو بعفوية استوائية، مثل وردة العشق، وزهرة الباسيبلوم...، والنباتات المتسلقة التي تزين جـــدران المنازل وبوابـــات الحدائق في أماكن متعـــددة في هذه المدينة. استمررت أضبط نفســـي وأنا أخطف حقيبتي اليدوية، وألقـــي بمعطفي على كتفيّ، وأهـــرول خارجة من المكان، دون أن أعرف وجهتي.

المدينة، التي كانت تشـــبه حلزونا، أو محارة، أو شبكة عنكبوت، أو قطعة من شريط زيني، أو رواية بحبكة دائرية فريدة لا نهاية لها، لم تتوقف عن إرباكي قط. كنت دائما أضل طريقي وأواجه مشاكل كبيرة في تذكر أســـماء الشوارع، ناهيك عن أين تبدأ تلك الشوارع نفسها وأين تنتهي. كان الأمر كمن يغرق في كوب ماء. ينتابني ذلك الشـــعور بأنني «لو كنت آليس في بـــلاد العجائب، كنت بالتأكيد لن أجد موطن قدمي وسأســـقط في حفرة» ســـينتهي بي المطاف في عالم مواز ثالث أو رابع، فأمســـتردام ذاتها كانت هي عالمي الموازي. لقد خبرت أمستردام كحلم خلّف صدى في واقعي. لقد حاولت حل لغز هذه المدينة بالضبط مثلما حاولت أن أفسر أحلامي.

كان الشـــيء الأكثر ســـحرا فيها هو الرمل. كنت أقف بجانب أحد المنازل التي يجري هدمها، وأراقب العوارض المتعفنة تسقط أرضا، والمـــاء ينبجث خارجا لأعلى من أعمـــاق غير مرئية عبر

حفــرة قبيحة «في الرمــال. كنت أراقب العمــال وهم يصلحون حصـــي الأرصفة في أمســـترادام بتحـريكها بقــوة ليخرجــوها، ثم يعيدون وضعها» في الرمال. لقد زود الرمل المدينة بأســـاس مجــازي، وواقعي أيضـــا، وكان تقريبا يثير في نفســـي ردة فعل جسدية: فكنت أشعر به باستمرار في فمي، وشعري، وأنفي.

لم أســـتطع التغلب على مجموعة العلامات والإشارات «التي كانـــت بمنزلـــة بصمات» التي بهـــا أوضح ســـكان المدينة بجلاء أنها تخصهم. كنت أعتقد أن تلك الإشـــارات طفولية، لذا كانت مؤثرة. مثلما فعل هانزل وجريتل حين كانا يلقيان بكســـر الخبز وراءهما حتى ترشـــدهما إلى البيت عنـــد العودة. كل واحدة من تلك الإشـــارات «كتماثيـــل القطط التي تتســـلق واجهات المنازل القديمة، والأعلام التي تتدلى من النوافذ، والملصقات الإعلانية، بـــل والصـــور العائلية، خاصة صـــور الأطفال حديثـــي الولادة، والنقـــوش والشـــعارات، والتماثيل الصغيـــرة، والدمى، بما فيها دمى الدببـــة الصغيرة، والأقنعـــة الأفريقية، ودمـــى الماريونيت الإندونيسية، ونماذج الســـفن، والمجسمات المصغرة طبق الأصل للبيوت الهولندية»، كلها كانت لها رسالة واحدة فقط: «أنا أعيش هنا! انظري! أنا أعيش هنا». انتابني شـــعور بأن كل تلك «الصور الساكنة» و«دمى الماريونيت» و«المنمنمات» بل والزخارف البسيطة لأنية الزهور الرخيصة المسماة «أيكا» والتي تسكن حطام سفينة «زينو» الملهمة بـ ٢ جيلدر - كلها شـــاهد لا شـــعوري على خوف الســـكان من الزوال. كانت بيوت الدمى مطمورة في بيوت دمى، المباهاة الطفولية المدينية، والبصمات المتعمدة في الرمال - عند

مستوى معين كانت كلها ترجع الصدى مع قلقي، الذي لم أستطع أن أضع يدي على اسمه أو مصدره.

كنت أسـكن قريبة جدا من محطة القطار، ووجدت نفسـي أذهب إلى الصالة الرئيسـية، حيث كنت أقف أحملق في جدول المواعيد، وكأن وصـول القطارات ومغادرتها سـيوفر حلا للغز الكامن خلف قلقي. وفي إحدى المرات، وبشـكل اندفاعة عفوية، اسـتقللت القطار إلى مدينة «لاهاي»، حيـث مضى عبر المدينة وعاد بعد بضع سـاعات أخيرا إلى أمسـتردام. منذ ذلك الحين كونت عادة ركوب القطارات إلى أماكن لا تعني ليِّ شيئا على نحو خاص. لقد ذهبت إلى الشـمال، إلـى مدن جرونجين وليوردين، وفي الجنوب إلى روتردام ونيجين وإيندهوفن، وفي الشـرق، إلى إنتشـيد وإلى المدن القريبة مثل هارليم ولايدن وأوترتشت؛ وإلى مـدن أخرى قريبة مـن هارليم وليدن، وأوتريتـش؛ وقد أذهب إلى مدن لأنني استحسـنت أسـماءها ببسـاطة: مثل أبلدورن وأمرسـتفورت، وبريدا، وتلبيرغ، وهورن، هنجيلـو وآمليلو، وإلى ليليسـتاد التي ذكرني اسـمها بتهويدة أطفال. بدت هولندا بلدا صغيـرا بشـكل لافت للنظـر . غالبا ما كنت أنـزل من القطار وأسـير جيئـة وذهابا على رصيـف المحطة ثم أسـتقل القطار التالي عائدة إلى أمستردام. كانت الرحلة وحدي تريح أعصابي. فقـد كنت أحملق من خلال النافذة للخارج، وذهني فارغ، وكانت الأراضـي الهولندية المنخفضة تخفف من قلقي. كنت أسـتمتع بهذا الاستواء المطلق، الهادئ متواصلا في أثناء الحركة. ورحت أعجـب باللافتات التي تمر كالبرق في إيقـاع قوافي العد عند

الأطفال: ســوني، وبراكسس، وفودافون، ونيكون وإنكو، وجي في سي، وراندســتاد وفيليبس وشــيل ودوبي، ونيندرز وبن... وكما يبــدو أننا نحب النــاس لعيوبهم أكثر من فضائلهــم، لذا فإنني اكتســبت تدريجيــا تعاطفا مع المشــهد الطبيعــي للغياب، خط الأفق المســتقيم، بلونه الأخضر الفاتح، والمشاهد الليلية الباردة بأقمارها المكتملة، وأســراب الإوز البيضــاء الضخمة تلألأ في العتمة، أوالأطياف المتجمدة لقطعان الأبقار اللاهية في الطريق وكأنها أشباح ودودة.

لقــد أتقنــت لغة الوحــدة في القطــارات والمحطــات. أنا، الجوالة التائهة، وســرعان ما اكتشفت أنني لم أكن وحدي. أثناء وقوفي على رصيف المحطة قد ألتفت إلى أحد المســافرين ممن يســتطيعون رؤية اللوحة الإلكترونية ورؤيتي أيضا، وأسأله: «من فضلك، القطار التالي ذاهب إلى روتردام، أليس كذلك؟».

«آسف، لا أستطيع الجزم بذلك».

«إلى أين أنت ذاهب؟»

«أنا؟ روتردام».

وقد أراقب الناس في القطارات، وأصغي إلى أحاديثهم بالرغم من أنني لم أفهم لغتهم، وأن أشتم روائحهم. كنت أتخيل وجوههم على شاشــة حاســوب وأستعرضها، مســجلة تفصيلة تلو أخرى، وكانت الصور تظهر لفترات طويلــة أو قصيرة من الزمن، وغالبا ما كان يتملكني شعور بأن شخصا آخر غيري قد فتح لهم الباب.

هنــاك صورة لفتــاة يافعة تجلس مقابلي فــي القطار. وهي تضع ســماعة صغيرة في أذنها مربوطة بسلك ينتهي في حقيبة

يد نصف مفتوحة وعليها اسم ماركة «إسبرت» التجارية. كان القطار مكتظا، لكن الفتاة كانت غافلة عمن يحيطون بها: فقد كانت تتحدث بصوت مرتفع، محملقة في نقطة أمامها مباشرة بلا أي تعبير. ظلت مستمرة في الكلام، وصوتها حاد، كصوت آلة، واعتدلت في جلستها والحقيبة في حضنها، ربما لخوفها من أن تسقط تلك الحقيبة وتتعرض للتلف. وكانت يدا الحقيبة معتدلتين أيضا، وقاربتا الوصول إلى فمها، وكأن الكلمات تخرج من فمها وتنسل إلى داخل الحقيبة. وعندما انتهت المكالمة، نزعت السلك من أذنها، وأخرجت الهاتف المحمول من الحقيبة، وأغلقته، ودسته في رمال كلماتها التي تدفقت للتو من ثغرها قبل أن تزمم الحقيبة.

وثمة صورة لشاب أسمر نحيل البنية يتأمل كتابا لتعليم اللغة الهولندية للأجانب، ويقوم بمضغ ممحاة قلم رصاص وكأنها علكة مسكرة. يضع الكتاب في حضنه لبرهة، ثم يلتفت نحو النافذة، ويتمتم بعض الكلمات لنفسه محاولا تثبيتها في ذهنه، ومن ثم يعود إلى الكتاب.

وهناك صورة لزوجين صينيين يمضغان العلكة بحركة متزامنة، وقد بدا وجهاهما شاحبين بشكلهما الفئراني. الزوجة ترتدي بلوزة مفتوحة، تعوزها بعض النظافة، تكشف عن صدرها. أما الزوج الذي يستمر في مضغ العلكة، فيضع ذراعه حولها.

تستمر الزوجة في مضغ العلكة، وتغمز بعينين ليستا لقاصر.

وثمة صورة لسيدة مغربية متعبة تحمل صبيا في حضنها. حجم الصبي لا يزيد على كيلوين، له شعر أسود كثيف مفروق إلى الجانب شأنه شأن شعر الراشدين. وجهه عليه مسحة الغياب المرعبة الموجودة على وجوه كل الأطفال، تلك المسحة التي نراها على الوجوه في الأيقونات واللوحات الزيتية القديمة.

في أحد أسفاري توقف القطار بشكل مفاجئ. وهذا ما حدث أيضا مع القطار القادم من الجهة المقابلة كان يجلس في المقعد الذي يقابل مقعدي في القطار الآخر رجل يمسك نوتة موسيقية في يد، ويؤدي اللحن الموسيقي باليد الأخرى. كان مستغرقا في الموسيقى التي تتفاعل بداخله تماما، ويوقع إيقاعات قصيرة، رقيقة، مكبوتة. كنت مسحورة بذلك. كان وجهه مضيئا بسمو داخلي. لم يكن العالم الخارجي موجودا بالنسبة إليه: فقد كان محاطا بالموسيقى الصامتة كأنها كبسولة لا يمكن اختراقها؛ فلا شيء يمكن أن يمسه. ولكن سرعان ما تحرك القطاران، قطاره وقطاري، وتوارى وجه الرجل. شعرت بوخز وكأنني كنت أرى نفسي في الزجاج، وكأنني كنت أرى نفسي لكن دون أن أسمعها. شعرت وكأن طيفي قد رحل في الاتجاه المعاكس.

في غمرة تجوالي في المدينة كانت تنتابني أحيانا رغبة جامحة، مفاجئة، خارجة عن السيطرة، تعود إلى شيء يتصف بالبراءة. فكلما انحشرت في عربة ترام بجانب رجل ذي عضلات مكشوفة مفتولة، أشعر برغبة ملحة في تقبيل تلك البشرة الذهبية لشخص غريب عني. كما كنت أشعر كلما انحشر بجانبي في المقصورة رجل يضع قرطا في أذنه، أشعر برغبة في

نزع ذلك القرط بأسناني. لقد أرعبتني قوة تلك النوبات غير المتوقعة، لكنها مع ذلك منحتني شعورا بالانعتاق. الانعتاق من ماذا؟ لا أستطيع الجزم.

تشكلت خارطة مدينتي الداخلية وفقا لانسجام خاص بها. كانت الصور تأتي وتذهب، لتلبث بعض الوقت أو تتلاشى كالرمال. كان ذلك يشبه البحث عن درب في العتمة أو المنام. لقد رسمت خارطتي الداخلية على أكثر ورق استشفاف رقة، ولكن حالما فصلتها عن الخارطة الحقيقية، رأيت ولدهشتي أنه فارغ. لم يظهر على الورق شيء البتة. ولا أي شيء. ربما كنت سأتأثر عاطفيا مع أي بادرة خط بمعنويات عالية، لكن سرعان ما كان يتوقف ويتلاشى. أحيانا كانت خارطتي الداخلية تبدو كرسم أخرق للأطفال. إن مدينة تشبه حلزونا، وقوقعة، وشبكة عنكبوت، ومتاهة، وقطعة من شريط زينة، ورواية تعج بروافد غامضة، قد تتحول، في خارطتي الداخلية، إلى سلسلة من الفراغات، والفجوات، والنتف، والنهايات المسدودة. كانت خارطتي الداخلية حصيلة محاولة شخص فقد ذاكرته لتعيين موقع إحداثياته، محاولة متسكع لترك آثار قدميه على الرمال. لقد كانت خارطتي دليل الحالم. لم يكن عليها فعليا أي شيء متطابق مع الواقع.

لكنني عرفت شيئا واحدا على وجه اليقين. فأينما ذهبت كان طلابي هم من يمدونني بالاتجاه. لقد كانوا مركزي الداخلي، وساحة مدينتي، وشارعي الرئيسي، ووريدي الوداجي. وأنا أعني ما أقول حرفيا.

٦

وهكـذا نـرى أنه قد تمت المحافظة علـى الحياة هنا
ولكن
بثمن أغلى من قيمة الحياة نفسها، لأن
قوة الدفاع عنها والإبقاء عليها استُعِيرت
مـن الأجيـال اللاحقة، مما أوقـع تلك الأجيال في
الدِين والعبودية. والشيء
الوحيـد الذي بقي يصارع كان مجرد غريزة الدفاع
عن الحياة،
في حين أن الحياة ذاتها فقدت الكثير ولم يبق
مـن مكنونهـا النفيـس أكثـر من اسـمها. مـا بقي
واستمر في الحياة أصبح
معاقا ومشوها وما
يجيء إلى العالم ويبقى حيا أصبح مُسمما في
أصله، سقيما. وبقيت أفكار الناس وكلماتهم
غير مكتملة، مقُطعة مثلما قُطعوا هم
من الجذور.

أيفو آندريتش

قلت لطلابي بألا يقلقوا على أي شـــيء: فسيحصل جميعهم علـــى درجات عاليـــة. قلت لهم إنني مدركـــة أن معظمهم التحق بالدراسات الصربية – الكرواتية لأسباب عملية، لذا لم تكن لدي

نية بتصعيب الأمر عليهم.

«أنا هنا أستاذة زائرة لمدة فصلين دراسيين فقط. ليس من المنطق من طرفي أن ألعب دور الأستاذ، وهذا يعفيكم أيضا من تمثيل الأدوار».

سأل أحدهم: «إذن، ماذا علينا أن نفعل؟».

أجبته: «لا شيء».

سألوا وهم يخفون ضحكاتهم: «لا شيء؟».

أجبتهم: «أوه! سنشغل أنفسنا بطريقة ما».

شعرت بعيونهم تحملق فيِّ. بدوا وقد أثير اهتمامهم بوضوح.

قالت إحدى الفتيات: «علي أي حال، أنا لا أستطيع حضور المحاضرات. لدي

طفل رضيع».

أجبتها: «لا مشكلة في ذلك».

ردت الفتاة: «شكرا»، وأخذت أغراضها وغادرت الغرفة.

ضحك الآخرون ونظروا باتجاهي، وهم في حيرة عما سيحدث. لكن ميليها تولت الأمر.

«أول شيء فعلوه عندما جئنا إلى هنا هو وضعنا في مخيمات للاجئين - تعرفين ما يفعله الهولنديون في مثل هذه الظروف - وخصصوا لنا أطباء نفسيين. شاءت الأقدار أن يكون طبيبنا النفسي من «أهلنا»، لاجئة مثلنا. أتعلمين ماذا قالت لنا؟ - هلا قدمتم لي جميعكم خدمة، أتفعلون؟ جدوا مسحة صغيرة من الجنون في أنفسكم. اخترعوا خبرة مؤلمة أو اثنتين إذا اقتضت الحاجة. لا أريد أن أفقد عملي هنا - فضحكنا جميعا. وتواصل العمل.

من الطبيعي أنني كنت مدركة لسخافة الموقف الذي وضعت فيه: إذ كان عليّ أن أدرّس موضوعا لم يعد له وجود من الناحية الرسـمية. فما كان يسـمى بتخصص الأدب اليوغسلافي في الجامعة في الماضي - والذي ضم الآداب السلوفينية، والكرواتية والبوسنية، والمقدونية، وأدب الجبل الأسود - اختفى مع اختفاء بلده الأم. هذا علاوة على، أن الطلبة الذين عُينت لأدرس لهم لم يكن لديهم أي اهتمام بالأدب: فقد انصب اهتمامهم على الحصول على وثائق الإقامة الهولندية. لقد وُظفت لتدريس أدب بلد (أو آداب عدة بلدان) هرب منها طلابي أو طردوا. لقد كان المنزل مدمرا، وكانت مهمتي أن أجد طريقا واضحا عبر الحطام.

قررت، أن تكون أداتي الرئيسية هي اللغة: «لغتنا» الصربو/ كرواتية. لكن اللغة التي كان يجري الحديث بها في كرواتيا، وصربيا، والبوسنة، والجبل الأسود صارت الآن، مثلها مثل البلد التي كانت تُنطق فيها، أصبحت منقسمة إلى ثلاث لغات رسمية: الكرواتية، والصربية، والبوسنية. صحيح أن اللغتين الكرواتية والصربية كانتا تتمتعان ببعض الاستقلال الرسمي حتى في عهد الدولة اليوغسلافية، لكن هناك أمرا جديدا: وهو نشأة حواجز تفتيش لتأكيد الفروق بين هاتين اللغتين. لم أعر اهتماما كثيرا لهذه اللغات «الجديدة» ولم يعنني البتة تقسيمها بناء على بضع عشرات من الكلمات التي تميزها عن بعضها. ما كان يعنيني بشكل أكبر هو وجود جمود معين في تلك اللغة، جمود جعل طلابي لا يرغبون، ولا يستطيعون استخدامها: فلغتهم القومية

التي أحاط بها الشـــك، قد سيطرت عليها إنجليزية ركيكة، وقد شرعوا أخيرا باستخدام ركيك للغة الهولندية.

أخبرتهم أنني أؤمن بشدة بأن الكرواتية، والصربية، والبوسنية هـــي تنويعات على لغة واحـــدة. و«أن اللغة هي لهجة يقف جيش خلفهـــا. وهذه اللهجات الثلاث مدعمة بقوات شـــبه عســـكرية. وأنتم لن تســـمحوا لمجرمين أنصاف متعلمين بإعطائكم مشـــورة في المسائل اللغوية، أليس كذلك؟» لكنني أيضا كنت مدركة أنني أنتمـــي إلى جيل كانت كتبه الدراســـية فـــي الأدب في المرحلتين الابتدائية والثانوية مرقشـــة ببعض نماذج من الأدب السلوفيني، والمقدوني، والصربي، والكرواتـــي، مكتوبة وفق أصول الأبجدية الرومانية أو الســـلافية القديمة، وأن حقيقـــة وجود تلك الكتب الدراسية ستنسى عما قريب.

لكـــن الأمور لم تكن إلـــى هذا الحد من البســـاطة. فطلبتي يعرفون جيدا أنني لم أكن أتحدث مجازيا عندما ذكرت الجيش: فهـــم كانوا يعرفون أن قوات عســـكرية وقفت خلف «لغاتنا»، وأن «لغاتنا» اســـتخدمت في الســـب، والإذلال، والقتل، والاغتصاب والتهجيـــر. كانت لغات قد دخلت الحرب طبقـــا للاعتقاد بأنها متضاربـــة، بل ربما لأنها على وجه الدقة، كان من المتعذر فصلها بعضها عن بعض.

لقد زخرت الصحف بالأعمدة اللغوية. صار القصاب، والخباز، وكل شـــخص عالمـــا لغويا في لحظة، وأتت الحـــرب بـ «قواميس الاختلافـــات» فالصرب، الذين كان قد تحول الجزء الأكبر منهم إلـــى الأبجدية الرومانية، بدأوا يعودون إلى الأحرف الســـلافية

القديمة، أما الكروات، المتلهفون لجعل اللغة الكرواتية كرواتية بقدر الإمكان، فاستخدموا بضعة تراكيب عسيرة مستعارة من اللغة الروسية، بل وبعض المفردات المعجمية الأكثر صعوبة، كانت متداولة أثناء الحرب العالمية الثانية. لقد كان طلاقا بائنا مليئا بالضجيج والضراوة. في النهاية، كانت اللغة سلاحا: فهي التي وصّمت، وخانت، وفرقت، وهي التي وحدت. يأكل الكروات الـ «كروه»، ويأكل الصرب «هلب»، ويأكل البوسنيون «هليب»: فهي كلمة مختلفة في اللغات الثلاث وتعني الخبز، أما كلمة «سمرت» أي «الموت» فكانت واحدة عند الجميع.

وهذا لا يعني أن اللغة قبل ذلك الطلاق «والتي كانت تسمى باللغة الصربو كرواتية»، أو الكرو - صربية، أو الكرواتية والصربية مثلت تركيبة لغوية أفضل، أو أكثر قبولا، ثم دمرتها الحرب. لا، فاللغة كانت تؤدي وظيفة سياسية؛ وكان الجيش يقف خلفها أيضا؛ وتم التلاعب بها، وتلويثها بكثافة بالخطاب الأيديولوجي اليوغسلافي. لكن التاريخ الذي يقف وراء صهر التنويعات الثلاث في تركيبة واحدة استغرق عملية أطول، وذات معنى أكثر من الطلاق الذي حدث بين عشية وضحاها، تماما مثل تاريخ بناء الجسور والطرق الذي يستلزم عملية أطول وأكثر معنى من عملية هدمها فجأة.

أخبرنا بوبان بأحد أحلامه المتكررة. كان يبحث عن شارع في زغرب، لكنه تخوف من السؤال عنه، لأن الناس سيعرفون أنه من بلجراد.

سألته: «ماذا لو عرفوا ذلك؟».

«سيعرفون أنني صربي. وربما قد يبصقون في وجهي أو يطردونني».

«وماذا أيضا؟».

«لم أتمكن من إيجاد الشارع الذي أبحث عنه».

«عمن كنت تبحث؟»

«عن صديقة لي. كان اسمها مايا».

ضحك أحدهم ضحكة مكتومة.

«أين كانت تسكن، حبيبة القلب؟».

«انعطف إلى اليمين من شارع «موشا بياد». إنه أحد تلك الشوارع هناك».

قلت: «إن لشارع موشا بياد اسما جديدا الآن».

«ما اسمه الآن؟»

«مدفشتتشاك».

قال بجدية، وكأنه سيستخدم المعلومة هذه الليلة: «أوه! شكرا».

سألته: «هل من الممكن أن يكون شارع مايا هو شارع نوفاكوفا؟».

صاح قائلا وقد شع وجهه بالراحة: «نعم، إنه هو! نوفاكوفا!».

علق سليم: «يا رجل، شئ جيد أنك لم تحلم بالبوسنة. لو قبض عليك رجالنا، لكان جسمك نضح بالرصاص».

ساد الصمت في الغرفة. لقد زرع سليم لغما في القاعة.

«سليم، من الآن فصاعدا احتفظ بتعليقاتك لنفسك. لن أسمح بأن تتحول قاعة الدرس إلى ساحة قتال».

لم يستطع سليم أن يُوقف صربية بوبان، التي كانت صريحة: فكلما تحدث بوبان في قاعة الدرس، كان سليم يشيح بنظره، ويسحب أنفاسا بصوت عال ويسعل في يده. وعندما كان سليم يتكلم في قاعة الدرس، كان يكثف لغته البوسنية، وهو أمر كنت متأكدة منه، أكثر مما كان يفعل في الخارج.

كانت نيفينا مختلفة تماما. كان كلامها يتسم بنوع من الفصام اللغوي: فكانت تتلعثم وتستخدم كافة الأنواع الإقليمية واللهجات المحلية بطريقة غير مقيدة، وغير متجانسة؛ فقد تبدأ جملة مستخدمة اللهجة الصربية الجنوبية، ثم تنتقل إلى محاكاة الخطاب الزغربي، ثم تشرع في التشدق البوسني، وأخيرا بنزوة فجائية تستعمل النظام النغمي، وبذا كانت تبدو مثل طفل متوحد. أخبرتني فيما بعد أن والدها الصربي ووالدتها الكرواتية كانا على خلاف دائم، وأخيرا انفصلا قبيل اندلاع الحرب. كنا جميعا لدينا أعباؤنا العرقية. لقد انتقلت نيفينا للعيش مع جدتها في البوسنة، ومن هناك جاءت إلى أمستردام كلاجئة.

قالت لي، وكأن اللغة الهولندية حقيبة نوم: «أشعر بارتياح أكثر عندما أتحدث الهولندية».

كان يوروش يغمغم وكنا في كثير من الأحيان بالكاد نستطيع فهمه. تميز كلامه أيضا باستخدام عدد مفرط من صيغ التصغير. مثل الخدم في الروايات الروسية في القرن التاسع عشر، بدا أنه يستخدمها لاسترضاء الناس من حوله. كان الأمر وكأنه متخوف من أن يقوم محدثه بلكمه على أنفه، وأن تلك الصيغ اللطيفة ستحميه من ذلك. كان بقية الطلبة يهزأون من

استخدام يوروش لهذه الصيغ كسخريتهم من ميل الهولنديين إلى استخدامها. أصبح التحدث في الفصل الدراسي محنة بالنسبة إلى يوروش، ما دفعني إلى تركه وشأنه في معظم الأحيان.

كان إيجور طليق اللسان بالهولندية. كانت الهولندية تعني له الحرية؛ فلغته الأم قد أصبحت عبئا.

«عندما أتكلم «لغتنا»، أشعر وكأني ممثل في مسرحية قروية، إن كنت تعرفين ما أعنيه». وقد قال جملة - إن كنت تعرفين ما أعنيه بالإنجليزية الأمريكية، لقد كان دائما يُتبل «لغتنا» بالأمركة اللغوية: فذلك جعلها أكثر قبولا عنده.

جميع «لغاتنا» تحاول تأسيس نموذجها الأدبي الخاص بها، لكن اللغة أو اللهجة الوحيدة التي تبدو طبيعية هي تلك المهجنة أو غير الشرعية. عندما أستمع إلى «الدلماسيين» يتكلمون الكرواتية أقول لنفسي «آه، هذا رائع». لكن عندما أصغي إلى الموظفين يتكلمون الكرواتية، أرى التصنع، والامتيازات، والسلب. ثمة أمر غير طبيعي فيها جميعا «اللغات الكرواتية والصربية والبوسنية ... انظري، أنا موسيقي روك، ولدي أذن تميز ما تسمع جيدا. إنني أعي ما أقوله».

كانت نسخة «لغتنا» التي يتحدث عنها إيجور، هي الكرواتية الفصحى، التي صارت أضيق أفقا بعد رحيله من هناك. لم يمر يوم دون ذكر ما للغة في وسائل الإعلام. كان الضغط من أجل التغيير هائلا. تأقلم البعض مع اللغة الجديدة بمرونة مدهشة؛ بينما أجفل آخرون في رعب. والبعض رأى أن تلك هي الطريقة الوحيدة لتأكيد ولائهم؛ وآخرون رأوا في ذلك أسوأ كابوس

يمرون به. الجمود، والتفاهات المملة، واختزال الأحداث. صارت التفاهات لغة مشفرة: سلبت المتحدث شخصيته، ووضعت حوله درعا. على أي حال، كانت التفاهات لغة حول شيء لا يمكن التعبير عنه باللغة. لقد بدا أن هناك خيارين فقط: إما الصمت صدقا أو التحدث كذبا.

وجد الشباب ملاذا تلقائيا في اللهجات التي كانوا يحتقرونها في الماضي ويصفونها بـ «الفلاحية»، أو وجدوا ملجأ لهم في أسلوب حديثهم الخاص، على سبيل المثال، كحديث أقرانهم في اللعب أو المدرسة. تلك كانت ملاجئ مؤقتة للحماية من اللغة الرسمية التي أفرزتها الحرب، وانتشرت في كل مكان، ولوّثت كل شيء. كانت تلك الملاجئ أشبه باللغة السرية التي كنا نستخدمها عندما كنا أطفالا ليستعصي على الكبار فهم ما نقوله.

كانت اللغة جرحنا المشترك، وكان يمكن أن تأخذ أكثر الأشكال انحرافا. مازلت مسكونة بحادثة لامرأة بوسنية قيل إنها حفظت عن ظهر قلب قصة اغتصابها، وكانت تروي القصة كلما جاء ذكرها. وأصبح الاغتصاب كأحد تجليات الأعمال الحربية خبرا عالميا، وأضحت تلك المرأة الضحية الوحيدة التي استطاعت أن تقدم رواية مفصلة عن اغتصابها. وسرعان ما تهافت عليها الصحافيون الأجانب والمنظمات النسوية، التي دعتها إحداها للمجيء إلى أمريكا. وهناك سافرت من مدينة إلى أخرى مرددة قصة إذلالها، لدرجة أنها استطاعت أخيرا أن تحفظ عن ظهر قلب نسخة بالإنجليزية لتلك القصة. استمرت في سرد قصتها دون انقطاع «تلك القصة تختلف الآن عن مضمونها الأصلي بشكل

كبير» في مشـــهد يشـــبه ما يقوم به النائحون الذين يستأجرهم الفلاحون للنواح على موتاهم في الجنائز. ســـرد الحكاية المؤلمة كان طريقة تلك المرأة لتخفيف ألمها.

كثيرا ما سألت نفسي إن كانت لغتي الكرواتية قد بدأت تبدو جامدة ومملة. كنت أشـــعر في بعض الأحيـــان بأنني مثل طالبة تتعلم الكرواتية كلغة أجنبية. قد أجد نفســـي أقول شيئا بطريقة جامدة جدا، وباردة جدا، كأن فمي كان ممتلئا بالثلج.

قـــال بوبان ذات يوم: «هل تتذكرون محاربي الســـاموراي في الأفلام اليابانية التي اعتدنا أن نشـــاهدها؟ محاربو الساموراي لا يتكلمون؛ بل فقط يقطبون وجوههم ويديرون أعينهم. دائما ما كنت أخشى أن ينفجروا بسبب الكلمات التي لم يستطيعوا النطق بهـــا. في الحقيقة نحن مثلهم، نحن ســـاموراي. نحن نتحول إلى اللون الأحمر، وتجحظ عيوننا، وتنتفخ العروق في أجسادنا دانية من الانفجار، ولا ننطق بكلمة. لذا يُشهر السيف».

صفق الطلبة له بحرارة.

قـــال إيجور: «مدهـــش حقا، مدهش حقا! لـــم أعرف أن كل هـــذا موجود في داخلك! أســـلم بأنك تتفوق على ميلوســـوفتش فصاحة!».

صاحت ميليها: «أنت محق! وأنا ساموراي من سراييفو».

كنت دائما أعول على ميليها. نحن لا نكتفي أبدا من قصصها عن ســـراييفو «قصص الخـــوف، والظلمـــة، والإذلال، والجنون، والكراهيـــة، والأحياء والأموات... كانت ميليها ســـيدة الســـرد التفصيلي، حتى عند وصفها للظـــلام الدامس في الملاجئ بعد

صفـــارة الإنذار، وفي كل القصـــص التي روتها. منها قصة المرأة التي جُنت عندما قتلت قنبلة يدوية طفلها، وراحت تضرب خديها لساعات في الواجهة الجص لمنزلها حتى تحول وجهها إلى جُرح دام؛ وعـــن قصة حياتها قبل الحرب، وعن مخيم اللاجئين الذي دخلَته لأول مرة، والرجل الهولندي الطيب المسن الذي كان يدفع لها مقابل التمتع برفقتها، وقصة أمها التي كانت تتعلم الهولندية برعايتهـــا لطفل إحدى الجارات البالغ من العمر ثلاث ســـنوات، على أمل أن يســـاعد كلامها كالطفل في تســـهيل طريقها للولوج إلى عالم يخلو من الألم، ويمحو الماضي القريب الذي كانت تتوق إلى نسيانه.

كنا نتحرق شـــوقا لكل كلمة تقولهـــا. لا أحد غيرها كان على اســـتعداد للبوح بطريقتها. البعض لـــم يزل خائفا جدا، وآخرون خجلون جدا؛ والبعض وضعه حرج لشـــعوره بالذنب لأنه لم يمر بتجربـــة الحرب، بينما آخرون أعاقهم مجرد التفكير في الرعب الناتج عن تلك الحرب.

في النهاية، كانت صيحة اســـتعادة الوطن من خلال «الجوهر الوطني» للغة، صار كذبة كبيرة، وحقيقة مؤكدة في الوقت نفسه؛ أخيرا، كان طلابي لديهم تناغم أيســـر في الحديث بلغة ليســـت لغتهم «بالإنجليزية والهولندية» رغم أن ســـيطرتهم على اللغتين تركـــت الكثيـــر دون تفســـير. إن اللغة الأم «لغة العشـــيرة»، لغة الشـــاعر الكرواتي التي في شعر الوجد، «لغة» ذات حفيف، ترن، وترجع الصدى، وتقعقع، وترعد، وتزأر، وتدوي فجأة ظهرت لهم في ضـــوء جديد تماما. من هنا، كان الجوهر – أشـــبه ما يكون

بأنيميا لغوية، تقلص لا إرادي في الوجه، تلعثم، عذاب، تجديف، أو مجرد ترويج لعبارات لغوية.

صاحت ميليها ذات يوم: «أيهـــا الأصحاب! لتذهب اللغة إلى الجحيم! لنتحدث مع بعضنا، ليس إلا!».

وفجأة بدأت الحياة تدب فيهم من جديد.

٧

كنت أشــعر بالغربة في القســم. حاولت مرات عدة أن أرتب موعدا مع سيز درايســما، رئيس القسم، و«مضيفي»، الذي كان يرد دائما: «نعم، بالتأكيد. المشــكلة فقط أنني مشــغول جدا في الوقت الحالي. إن كانت هناك مســائل عمليــة تحتاج إلى حل، فستقوم دنيا بمساعدتك. أنا متأكد من ذلك».

كانــت دنيا ســكرتيرة القســم هولندية. كانــت متزوجة من روسي. اسمها الحقيقي آنيكي. كانت تبدو كفقمة ضخمة كسول، محاطــة بالنباتات المثقلة بالغبار، منعمة في حوضها المائي الذي يدعى مكتــب، ومن حين لآخر، كانت تمـن علــي الزوار بنظــرة جــوفاء. لا يمكن لشــيء أن يغيظهــا: فكانت ترد بتبرم علي أي سؤال أطرحه «بنعم» أو «لا»، أو بالتظاهر بعدم سماع السؤال.

قلت لدرايســما عدة مرات، عن طريق إرســال إشعار تذكرة: «نحتاج إلى أن نتحدث بشأن المقرر الدراسي الذي سأدرسه».

وكان يرد دائما، بنبرة مدرب كرة قدم: «الســلافيون مدرسون بالفطرة».

لم أستطع أن أحدد ما إذا كان هذا التعليق على سبيل الهزل، أم أنه إطراء حقيقي.

«إنيــس تبلغك تحياتها. حالما تنتهي مــن ترتيبات العودة إلى المدرسة، سندعوك إلى العشاء، موافقة؟».

كان درايسما يصدق على ما كنت أسمعه من إنيس في كل مرة كنت اتصل بها. («لا بد أن تأتي لزيارتنا. لكن ليس قبل أن يصفو

الجو. أنت لا تعرفين إلى أي حد الأطفال مزعجون. لا أستطيع حتى الذهاب إلى مصفف الشعر. والآن، فهمتِ الأمر. سأقول لك شيئا، يمكنك في تلك الأثناء القيام بزيارة جميع المتاحف، وبعد ذلك سنتقابل»).

كان الطابق الخامس، حيث يوجد القسم، يتكون من ممر طويل معتم فيه خمسة عشر بابا موصدا. من وقت لآخر، كنت أرى زميلا يندس إلى داخل غرفته من دون أن يكترث بوجودي. كانت أنيكي أيضا تغلق باب مكتب القسم، وغالبا ما كانت تضع لافتة: سأعود قريبا. وأخيرا توقفت عن محاولة رؤية درايسما. وكان الكائن الحي الوحيد الذي أراه بانتظام هو المحاضِرة الروسية المكتنزة. اعتادت أن تجلس إلى مكتبها خلف الباب الموارب وهي تحرك شفتيها، كأنها تأكل شطيرة غير مرئية، أو تقرأ شيئا لنفسها.

كانت تحييني بخجل إذا ما التقت عينانا: «مرحبا».

مرة واحدة فقط طرق زميل بابي.

سأل:«هل يمكنني الدخول؟».

قلت: «بالتأكيد».

«إذن، أنت زميلتنا الجديدة».

«يمكنك قول ذلك».

مدّ الرجل يده مصافحا.

«يسعدني التعرف بك. اسمي «ويم»، «ويم هويكس». أُدرِّس التشيكية، اللغة التشيكية وآدابها. أنا في آخر مكتب على اليسار».

استلطفته مباشرة.

«أتساءل: لماذا لم يعرفك - سيز- على أي منا».

«أوه! ربما لأنني هنا فقط لفصلين دراسيين».

«وما الضير في ذلك؟! هذا ما كان ينبغي أن يحدث».

«أفترض أن هذا هو العرف الأكاديمي هنا».

«نحن الهولنديين هكذا، نتأني. تمر عدة سنوات قبل أن ندعو شخصا إلى منازلنا. الخصوصية عذر رائع لكثير من الأمور، بما فـــي ذلك هذه الحالة من عدم الحصافة المتعذر اغتفارها. الأمر ليس أننا غير راغبين: بل هو مجرد رغبة في عدم التطفل».

«حقا؟».

رد قائـــلا: «أهـــلا بك في أكثـــر دول العالم نفاقـــا على هذه الأرض! الآن أخبريني كيف تسير أمورك هنا».

«على ما يرام».

«و ماذا تُدرِّسين؟».

«حاليا أتعرف على طلبتي فقط».

قال: «إن روسلاف كرليتزا كاتب عظيم».

«والكتّاب التشيك لم يكونوا أقل مرتبة».

«ماذا عن الطقس؟ دائما ما يشكو الأجانب من الطقس هنا».

«ليس بمناخ البحر الكاريبي، ولكن...».

«ألا تشعرين بالملل؟».

«لماذا... تسأل؟».

«لأنها تأتي في مقدمة الدول المملة على هذه الأرض!».

«أليس في ذلك بعض التناقض؟».

«ماذا تعنين؟».

«كيف لبلد أن يكون منافقا، ومملا في آنٍ؟».

«هولندا فقط تتميز بهذه الصفة».

«وأنا التي كنت أظن أن الأوروبيين الشرقيين أسياد الانتقاص من الذات».

«كلا، هذه واحدة من صفاتنا الأخرى. فقط لا تدعينا نخدعك. نحن لا نقصد ذلك. نحن في الحقيقة نقدر أنفسنا تقديرا عاليا جدا. إنها الغطرسة الاستعمارية. لقد تركنا المستعمرات، لكننا احتفظنا بالغطرسة. سوف ترين ذلك ...».

نظر إلى ساعته واعتدل واقفا، ثم قال: «حسنا. تعالي لرؤيتي في أي وقت تشائين. يمكننا الذهاب لتناول القهوة في مكان ما. مكتبي الأخير على اليسار، وهو الأصغر في هذا الطابق. مكتبك يفوقه حجما بكثير، فأنت من يوغسلافيا السابقة، وهذا يجعلك في مرتبة أعلى منا نحن الهولنديين».

«من أي جانب؟».

«أنتم لديكم مسألة القومية، والحرب، وحقبة ما بعد الشيوعية. ونحن غارقون في كل ذلك في لاهاي».

«لسوء الحظ!».

«لقد كانت بلدا في غاية الجمال! دوبروفنك هي أجمل مدينة رأيتها في حياتي. لا أفهم أبدا كيف حدث ذلك؟».

«أنت لا تعتقد أنني أعرف السبب».

«بالطبع لا ... لكن عندما تغرز سكينا في بطن أحدهما، فإنك تثير ضجة يعرف بها العالم أجمع. نحن نفعل ذلك في الخفاء. لا نريد للناس أن يعرفوا، بل إن ضحايانا ممتنون لذلك... على

كل حال سنتكلم في مناسبة أخرى. لقد سعدت بلقائك».

همَّ بالخروج، ثم استدار عند الباب.

«لا يمكن أبدا للأجانب أن يلفظوا اسم تلك الجزيرة المحاذية للشاطئ - الدلماسي -...».

«كرك».

«حسنا. هل الاسم يعني - عنق -؟».

«عنق؟ لا. تلك كلمة مختلفة. لماذا تسأل؟».

«لأن ذلك ما تعنيه في اللغة التشيكية. يحب التشيك أن يعذبوا الأجانب باستخدام تلك الكلمة في عباراتهم».

«كيف ذلك؟».

ضحك قائلا، وهو يمثل تلك الحركة على نفسه: «أدخل إصبعك في...». ثم استدار من جديد، ومضى يخطو عبر الممر.

كان الطابق الخامس خاويا تماما باستمرار حتى أنني تخليت عن شعور الشخص المُهرّب.. وتخليت أيضا عن طرح الأسئلة على السكرتيرة، والطرق على باب «درايسما». لكنني، مع ذلك، زرت «ويم» في مكتبه ثلاث مرات زيارة خاطفة. كان مكتبه أصغر بكثير من مكتبي. وكان في كل مرة أزوره يخبرني بأنه مشغول جدا، وفي كل مرة كان يدس في يدي مقالا كتبه خارج من الطابعة ساخنا - على سبيل الترضية، على ما أظن. تعلق المقال الأول بكتاب كارل تشابيك «رسائل من هولندا»، والثاني «كراهية النساء» في روايات كونديرا، والثالث «المتعة اللغوية» في الأعمال النثرية لبهومل هاربل.

لم نذهب قط لتناول القهوة معا. بقي تواصلي -الحي -الوحيد في القسم محصورا بتلك المحاضِرة الروسية الممتلئة، التي تحمل في يدها شطيرة غير مرئية. فكلما مررت من أمام مكتبها، كانت تبتلع تلك اللقمة الخفية، وتتلفظ بتحيتها الخجولة.

إذا أخذنا كل الأمور بعين الاعتبار، فقد ترك القسم انطباعا كئيبا عليّ، ذلك الانطباع كان يتصاعد، فقط، بسبب الشكوك النمطية التي تساور السلاف المحليين عن السلاف في أوروبا الغربية. كان السلاف الأوروبيون الغربيون قد تعودوا على الدخول في هذا التخصص لأسباب عاطفية: إما لأنهم وقعوا في حب أحد النماذج غير المألوفة في دول أوروبا الشرقية. وإما لأنهم يدعمون اختيارهم لهذا التخصص بمقتضى واقعة سياسية ثقافية، مهنية، عاطفية. هناك سبب آخر: أن هذا التخصص جعلهم سادة على قُصَّر، خارجين عن المسار، إقطاعية الأدب واللغة التي لم يغامر فيها أحد من قبل، مما جعل احتمالية تقييم كفاءتهم بشكل ملائم إحصائيا ضئيلة. مع ذلك، يفترض أن أكون آخر من يحق له أن يحكم عليهم، إذ كنت مدينة بوظيفتي لمعرفتي بإنيس، التي كانت متزوجة من درايسما، الذي شاءت الأقدار أن يكون رئيسا للقسم.

٨

آنا: الحقيبة البلاستيكية ذات الخطوط الحمر والبِيض والزرق

كانت مجرد حقيبة بلاستيكية لأغراض متنوعة. أما ما جعلها استثنائية فهو أنها احتوت على خطوط حمر، وبيض، وزرق. كانت أرخص قطعة متاع يدوي في الدنيا، وتشكل صفعة عمالية لمنتجات فويتون الشهيرة. كان لها سحّاب يفتحها ويغلقها، لكنه دائما ما كان ينكسر بعد بضعة أيام. عندما كنت طفلة، اعتدت أن أفكر مليا في كيفية وضع الكرز وأشياء أخرى داخل حبات الشوكولاتة من دون أن يكون فيها ثقب أو شق. والآن أفكر مليا في سؤال طفولي آخر: مَنْ صمَّم الحقيبة البلاستيكية ذات الخطوط الحمر، والبيض، والزرق، وقدمها إلى العالم في ملايين النسخ؟

بدت الحقيبة بخطوطها الحمر، والبيض، والزرق محاكاة ساخرة للعلم اليوغسلافي (لنكن صادقين! أحمر - أبيض - أزرق!)، من دون النجمة الحمراء. كانت أول مرة رأيت فيها واحدة من تلك الحقائب، أظن، كانت في إحدى الأسواق الشعبية. كان البولنديون يأتون بكريماتهم الرخيصة ماركة نيفيا، ومناشف الكتان لتجفيف الأواني وخيم الرحلات، والمراتب التي تُعبأ بالهواء، وما شابه ذلك. أنا متأكدة من أنني لو سألت البولنديين، لقالوا إنهم حصلوا عليها من التشيك، ولرد التشيك بلا، نحن لا نصنعها، لقد حصلنا عليها من المجريين؛ ونفى المجريون

ذلك قائلين: إنهم حصلوا عليها مـن الرومانيين، الذين بدورهم سينسبونها إلى الغجر.

على أي حال، لقد وجدت الحقائب البلاسـتيكية بخطوطها الحمر، والبيض والزرق، طريقها عبر وسط أوروبا الشرقية لتصل إلى روسـيا، وربما أبعد من ذلك إلى الهنـد، والصين وأمريكا، والعالم أجمع. لقد كانت حقيبة الفقراء، وصغار اللصوص، وتجار السـوق السـوداء، والبائعين على العربات الصغيرة في عطلات نهاية الأسـبوع في الأسـواق الشـعبية، واللاجئين والمشـردين. آه تذكرت، كانت بناطيل الجينز و«التيشـرتات»، والقهوة تسافر في تلك الحقائب من تريسـتا إلى كرواتيا، والبوسـنة وصربيا، ورومانيـا، وبلغاريـا... وأيضـا الجاكتات الجلديـة، والحقائب اليدوية، والقفازات تأتي من اسطنبول، وما تبقى من أشياء كانت تأتي من السـوق الصينية في بودابسـت، مغادرة إلى مقدونيا، وألبانيا، والبوسـنة، وصربيـا وغيرها من المناطـق. كانت تلك الحقائـب بخطوطها الحمر، والبيض، والـزرق تتنقل من مكان إلى آخر كالبدو الرحل، واللاجئين، والمشردين، لكنها كانت أيضا من الناجين، فكانت تسـافر في القطارات من دون تذاكر، وتعبر الحدود من دون جوازات سفر.

عندمـا صادفت واحـدة من تلك الحقائب فـي أحد المتاجر التركية هنا في أمستردام، اشتريتها على الفور بجيلدرين. وفيما بعد، طويتها إلى نصفين ووضعتها لوقت الحاجة إليها مستقبلا، كمـا كانت تفعل أمي بالحقائب البلاسـتيكية البيض العادية: - لأنـك لا تعرفـين متى سـتكونين بحـاجـة إليـها. كنت مدركة

أنني بشرائي إحدى تلك الحقائب قد أديت طقس عبور ذاتي: بانضمامي إلى أكبر عشيرة علي الأرض، مجموعة شكلت لها تلك الحقيبة البلاستيكية بخطوطها الحمر، والبيض، والزرق ألوانا، ورمزا، ودرعا من أذرع مطوية في آن. الشيء الوحيد الذي لم أجد له إجابة: من الذي نزع النجمة الحمراء؟.

كانت لعبتنا منبثقة من حقيبة آنا الرمزية.

قالت ميليها: «أول ما ينبغي عمله هو ما اعتاد - أهلنا - على فعله. ينبغي ربطها بإحكام حتى لا يسقط منها شيء». كنت لتظن أنها تصف طقسا ممتعا.

قال داركو: «أعترف بأنني كنت أشعر بالخجل من أهلنا كلما رأيتهم يأخذون متاعهم المتواضع من على سير الحقائب في المطارات».

قال إيجور: «كان ذلك يزعجني أيضا. كنت أقول لنفسي: انظر إلى هؤلاء الريفيين السذج الذين عليَّ أن أسافر معهم - لكن أعتقد الآن أن ذلك رائعا».

سألته: «كيف ذلك؟».

«هل تعرفين من يمتلك أغلى متاع في العالم؟».

«مادونا؟».

«كلا. إنهم الروس. والبغايا ذوات المرتبة العالية، ورؤوس المافيات. وذلك ما أعادني إلى المظهر الغجري: الحقيبة البلاستيكية التي رُبِطت كحذاء أحد المتشردين، كسن من ذهب... آنا، كم كنتِ محقة فيما يتعلق بالنجمة المفقودة. نحن جميعا طبقة عاملة! الشيء الوحيد هو أن بابا ماركس يقبع في قبره».

صاحــت ميليها: «عندك حق! وهو يتقلــب في قبره في هذه اللحظة بالذات».

لقد اقترحت على خجل أن يكون مشــروعا دراسيا - أو لعبة، فــي الحقيقة: كانت دليلا على الحياة اليومية في يوغســلافيا. جاءت أول مســاهمة من آنا. قدمــت موضوعها حول -الحقيبة الغجريــة - في المحاضرة التالية. وبعد ذلك اقترحت أن نحتفظ بــكل محتويات تلك الحقيبة الغجريــة الافتراضية في متحف - حنينا إلى يوغسلافيا.

«أي متحف؟».

«أوه! سيــكون متحــفا افتراضيا أيضــا. كل شيء تتــذكرونه وتعــتبــرونــه مهــما. البلـــد ذهــب أدراج الريــاح. لِـم لا ننقــذ ما لا تريدون نسيانه؟».

قال بوبان: «أتذكر المسيرات التي كانوا يقيمونها بمناسبة عيد ميلاد الرئيس «تيتو». كنا نشاهدها على التلفاز كل عام».

قالت ميليها: «كلنا نتذكر ذلك يا صديقي. تحدث عن شــيء أكثر خصوصية».

قــال ماريو: «أول دراجة هوائية ملكتها. كانت واحدة من تلك الدراجــات المنخفضة التي كنا نســميها - بالمهر- هل يعد ذلك شيئا خصوصيا؟».

«بالتأكيد!» .

قالــت ميليها بمزاح: «أنت مثلــك مثل كل الرجال، لا تفكرون سوي في رجولتكم. ماذا عن الطعام؟ والفطائر، والبقلاوة؟».

«الفطائر، والبقلاوة، والمكرونة».

ابتهجوا جميعا بمجرد تذكر أغنية «بالشفتش».

قالــت نيفينــا : «إذا كانت المكرونة تؤدي الغرض، فكل شـــيء مقبول».

قلت: «أي شيء يشعرك بالسعادة».

سأل سليم خافضا عينيه: «أو بالحزن؟».

أجبته: «أو بالحزن. لم لا؟».

«ماذا عن معتقل أومارسكا؟».

خيم السكون على المكان فجأة. وأنا تجمدت في مكاني.

«هل تريد التحدث عن ذلك يا سليم؟».

«مـــاذا يوجد به للحديث عنه؟ إنه المتحف الافتراضي الوحيد الذي أملكه. لقد نحر الصرب والدي هناك».

لقد ألقى ســليم بلغم آخر مــن ألغامه. لا يمكنني القول إنني لم أتوقع ذلك: فأنا كنت أحاول شق طريقي في حقل من الألغام منــذ البداية. جميعنا لدينا ذكريات عن الحرب، وخســائر مثل خســائر ســليم لا حد لها. لقد مر سليم وميليها بتجربة الحرب بكل ويلاتها من قــرب. أحجم يورروش ونيفينا عن الحديث حول الحرب على الرغم من أنهما من البوسنة أيضا. لقد غادر بوبان، وماريو، وإيجور البلاد لتجنب التعبئة، وبدا بذلك أنهم لم يصابوا بعدوى الجنون القومي - القومية الصربية بالنســبة إلى بوبان، والتنوع في كرواتيا بالنســبة إلى ماريو، وإيجور. أما جوهانكي، فقد تابعت الأحداث من هولندا. آنا، التي وصلت إلى أمستردام مــع زوجها الهولندي قبــل الحرب، تابعت الأحــداث من خلال وســائل الإعلام الكرواتية، والصربيــة، والهولندية، لكنها قامت

بزيـــارات دورية ليس فقط إلى بلجـــراد، ولكن أيضا إلى زغرب، حيـــث كان لها أقارب مقربون. كانت تجربتي مع الحرب لا تذكر مقارنة بتجربتهم.

أدركت أنه لا بد من إيجاد أرضية مشـــتركة، لأنهم لم يختلفوا فقط في تجاربهم عن الحرب، بل وأيضا في اهتماماتهم. فبينما كانت ميليها تحمل شـــهادة في الأدب اليوغسلافي من سراييفو، كان يـــوروش قـــد حصل على تعليـــم حتى المرحلـــة الثانوية في البوسنة، وقد دخل الجامعة للتو. كان ماريو يدرس علم الاجتماع في جامعة زغرب. وكانت آنا قد قُبلت بقسم اللغة الإنجليزية في جامعة بلجراد، لكنها انســـحبت مباشرة. كانت نيفينا قد درست علـــم الاقتصاد لمدة عامـــين، أما آنتي فكان قـــد تخرج في كلية تدريب المعلمين في أوســـيك. كان بوبان قد نجح في عامه الثاني في كلية الحقوق. وكان داركو يحمل شهادة في إدارة الفنادق من أوباتيا. كان ســـليم قد التحق للتو بقســـم الرياضيات في جامعة ســـراييفو عندما اندلعت الحرب. أما بالنسبة إلى إيجور، فكان يتنقـــل من تخصص إلى آخر: فقـــد أخبرني مرة بأنه درس علم النفـــس لفترة معينة، لكنه أخبرنـــي لاحقا أنه أمضى عامين في أكاديمية زغرب للفنون المســـرحية والســـينما في البرنامج الذي يعنى بالإخراج المســـرحي. لم أضغط عليـه قط لمعـرفة ماضيه، إذ لم يعد ذلك يحمل أي أهمية.

أما فيما يتعلق بالأرضية المشـــتركة، فقد كنت أشعر بتمزقهم الداخلي، وغضبهم ورفضهم المكبوت. لقد انتُهكنا جميعا بطريقة أو بأخرى. فقائمة الأشـــياء التي حرمنا منـها طـويلة ومرعـبة؛

إذ حُرمنا من الوطن الذي ولدنا فيه، ومن حقنا في الحياة العادية؛ وحرمنا من لغتنا، وعانينا من الإذلال، والخوف والعجز؛ لقد تعلمنا معنى أن نصبح مجرد أرقام أو فصيلة دم، أو شرزمة. البعض - مثل سليم - فقد الأصدقاء المقربين والأقارب. كان فقدهم أصعب أمر يمكن تحمله. والآن كنا نحن من نحاول بشتى الطرق أن نتماثل للشفاء.

في خضم هذا الجنون كنت أبحث عن مساحة تخصنا جميعا على السواء، وتؤلمنا أقل ما يمكن من ألم. في اعتقادي، أن تلك المساحة، قد تكون ماضينا المشترك. لأن هناك شيئا آخر حرمنا منه، وهو حقنا في التذكر. اختفاء الوطن يولِّد الشعور بوجوب محو الحياة التي عشناها. فلم يكتف السياسيون الذين جاءوا للحكم بالتمتع بالسلطة فقط؛ بل أرادوا أن يكون مواطنو دولهم مثل الموتى الذين أُعيدوا إلى الحياة لكن مسلوبي الإرادة والقدرة على الكلام، أناسا بلا ذاكرة. لقد شهَّروا بماضيهم اليوغسلافي، وشجعوا الناس على التخلي عن حياتهم السابقة ونسيانها. كنا من المفترض أن ننسى كل شيء، بما في ذلك الأدب، والأفلام، والموسيقى، والنكات، والتلفاز، والصحف، والسلع الاستهلاكية، واللغات، والناس. الكثير من ذلك انتهى في النفاية على شكل مخزون من الأفلام والصور، والكتب، والكتيبات، والوثائق، والنصب التذكارية... أصبح الحنين إلى يوغسلافيا، وتذكر الحياة في ذلك الوطن السابق، أصبح له اسمٌ آخر هو التخريب.

إن انهيار الوطن، والحرب، وكبت الذاكرة، ومتلازمة الطرف المقطوع، والفصام العام، وبعد ذلك المنفى، إن هذه الأشياء

كلهـــا - وأنا متأكـــدة من ذلك - كانت الأســـباب التي تقف وراء مشـــاكل طلبتي العاطفية واللغوية. كنا جميعا في حالة تشوش. لـــم يكن أحد منا يعرف من نحن، فضـــلا عن مَنْ وماذا نريد أن نكون؟ في الوطن كان طلابي يســـتاءون من الديناصورات، الذين يحنون إلى يوغسلافيا، وهم لم يشعروا إلا بالقليل من الألفة مع الدولة الجديدة سابقة التعليب المتراجعة عن المستقبل. وهنا، في هولندا، وُصموا بتجار اللجوء السياســـي، واللاجئين، والأجانب، وأحفاد ما بعد الشيوعية وسقط البلقنة، والمتوحشين. كان الوطن الذي جئنا منه هو ألمنا المشترك.

أدركت أنني أحاول المشـــي على حبل مشدود: فإثارة الذاكرة تعـــد لحدا كبيرا وتلاعبا بالماضي مثلها مثل إلغائها. الســـلطات الموجودة في بلدنا الســـابق كانت قـــد ضغطت على زر الحذف، وأنا كنت زر الاســـتعادة؛ فقد كانوا يمحون الماضي اليوغسلافي، موجهين اللوم إلى يوغســـلافيا على جميـــع المحن، بما في ذلك الحـــرب، بينمـــا كنت أنا أقـــوم بإحياء ذلك الماضي على شـــكل التفاصيـــل اليوميـــة التي شـــكلت حياتنا، مُوظِفة - إذا شـــئت القول - طريقة الخدمة التطوعية للبحث عن الأشـــياء المفقودة. وبالرغـــم من أنهم كانـــوا يتلاعبون بملايين من البشـــر، وأنا لم يكن لدي إلا القلة، فكلانا كان يشـــوه الواقع. كنت أتساءل: ما إن كنت باســـتدعائي الصور الحميمة لماضينا المشترك فإنني أعزل الصـــور الدموية للحرب، أم أنني كنـــت بتذكيرهم بطعم الحلوى اليوغســـلافية لن أمحو صورة الصبي فـــي بلجراد، الذي طعنه أشـــخاص من معاصريه حتى الموت، لمجرد أنـــه ألباني؛ أم أنني

بحثّهم على التفكير في الأبطال اليوغسلاف في قصص الكرتون المصورة مثل «مسكو» و«سلافكو» سوف أؤجل مواجهتهم لحلقات السادية التي لا تحصى التي اقترفها المحاربون اليوغسلاف، المخمورون والمهوسون بالسلطة الآنية، ضد منافسيهم؛ أو إذا استدعيت اللازمة الشهيرة – هذا ما يحصل، يا سيدتي الجميلة، عندما تعرفين القبلة البوسنية –، سوف أجمد التأثير الذي تركته حالات قتل لا تحصى في البوسنة، كمقتل والد سليم، مثلا؟ كنت أدفعهم إلى ولوج خلفية تضم قوائم مبهجة لترهات الحياة اليومية التي لم يعد لها وجود أصلا.

من جهة أخري، كان كل شيء متشابكا، بحيث لم يكن ممكنا أن تتناول شيئا واحدا دون الأخر. الموت متلازم مع حلوى «الكيكيز». الناس قتلوا، وكانوا يقتلون، ونهبوا وكانوا يُنهبون، واغتصبوا وكانوا يُغتصبون تحت شعارات مُبسطة حقيرة. كان الجنود يُضربون بالرصاص وهم ينهبون التلفزيونات الملونة، الغنائم الحديثة، وهم يجرونها إلى خنادقهم. لقد مضى الموت يدا بيد مع حطام الحياة اليومية. فتفصيل مثل حلوى «الكيكيز» قد يعيد إلى الذهن تنويعات لا حصر لها، فلنقل، مثلا، صورة فتاة تم قنصها والدم يقطر من شفتيها اللتين لم يبرحهما طعم الحلوى بعد. لقد كان الشر عاديا كصناعة يومية للإنسان ولم يعد حالة خاصة.

لم أعرف كيف يمكننا أن نتعامل مع ماضينا إن لم نتصالح معه أولا؟ لذلك اخترت شيئا يشكل قاسما مشتركا يشعرنا جميعا بالقرب منه، ألا وهو المسار اليومي للحياة التي عشناها في يوغسلافيا.

بــدأت حقيبتنا بخطوطهــا الحمر، والبيــض، والزرق تمتلئ تدريجيا. كان هناك شــيء من كل شــيء: شيء من العالم الغابر للمدارس الابتدائية والثانوية اليوغسلافية، وشيء من صور ثقافة «البوب» اليوغسلافية، وكل العادات المتصلة بالسلع اليوغسلافية - مــن طعام وشــراب وملابس ونحوهــا - والتصميمات الفنية اليوغسلافية، والشعارات الأيديولوجية، والمشاهير، والرياضيين، والأحداث، والأساطير والخرافات الاشــتراكية اليوغوسلافية، والمسلســلات التلفزيونية، وقصص الكرتون المصورة، والصحف، والأفلام.

أخــرج بوبان كنزا دفينا من الأفلام اليوغســلافية مســجلة على شــرائط فيديو، وبذا أصبح لدينا ما نشاهده لوقت طويل. كانــت تلك الأفلام أكثــر الأدلة القابلة للــدوام على وجود حياة يوغســلافية. وبقراءة تلك الحياة بأثر رجعي، اكتشــفنا تفصيلة بعد أخرى، أن استشــعار المستقبل المسبق، والدلالات المنذرة قد أصبحا واقعا فعليا.

سرعان ما وضعت جانبا ما ساورني من قلق، فميراثنا وروحنا، وإعادة إحياء ماضينا الأفضل، قد قرّبتنا من بعضنا كثيرا، لدرجة أننا بدأنا نجد صعوبة متزايدة في الافتراق. لذا، استرجعنا عادة أخرى من الماضــي، هي النزول إلى أحد المقاهي بعد الدراســة لإكمال دردشــتنا، وكنا نفترق فقط عندما يحين موعد آخر ترام، أو حافلة، أو قطار. بالنســبة إلى شــخص غريب، لا بد من أننا بدونا كقبيلة تتكلم بكلمات ســحرية مناجية آلهتها. لا بد أننا كنا في غشية من النشوة. حسنا، لقد كنا كذلك بطريقة ما.

أما الطالب الذي واجهت صعوبة كبيرة في التعامل معه فكان إيجور. لقد أدهشـــتني ذاكرتــه: فقد كانت لديـــه ذاكرة مفعمة لأشياء لا يمكن أن يكون قد مر بها شخصيا.

«لم تكن قد ولدت بعد!».

«لكني أملك جينات يوغسلافية، يا رفيقة، وهم يتذكرون».

تلقـــى ركلة على لفظـــه عبـــارة «جينات يوغســـلافية» التي اخترعهـــا بالطريقة الهولندية، وذلك بتغييـــره بعض الأصوات. ضحكنا جميعا. استحسن طلبتي بشكل واضح أن تكون «جيناتنا اليوغســـلافية» الدفينة والخارجة عن إرادتنا مســـؤولة أكثر منا عن تذكر ماضينا.

غالبا ما كنت أرتطم بأحدهم في المدينة. كنا نسعد بلقاء مثل هذا، كأننا لم نلتق من عصور. كنا نتبادل العبارات الحلوة، ونربت على أكتاف بعضنا قبل أن نأوي إلى أحد المقاهي من أجل فنجان قهوة ودردشة حميمية لا ينتهيان.

كان الطالب إيجور أكثر من ألتقي به مصادفة أثناء رحلاتي. يظهر فجأة بطوله الفارع، حاملا حقيبة الظهر، وسمّاعات الأذن التي لا تفارقه تتدلى حول عنقه.

اعتدت أن أسأله: «ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

فكان يرد: «ما الذي أتى بكِ أنتِ؟»

«ماذا تقترح؟».

«لنتبختر معا».

هكذا كانـــوا يتحدثـــون. كانت لغتهـــم العاميـــة. كانت كلمة «نتبختر» بالنســـبة إليهم تعني «نتجول».لقد اســـتخدموا العديد

من الكلمات والعبارات الهولندية في حديثهم، وكان مزج سليم للهولندية بالبوسنية أمرا هستيريا.

برغم أن طلبتي أعربوا بوضوح عن استمتاعهم بمشروعنا المشترك، فإنني لم أستطع التخلص تماما من صورة حقل الألغام.

في أحد الأيام، وبينما كنت أتجول مع إيجور في الشوارع، حاولت أن أكتشف رأيه حول هذا الموضوع.

«أخبرني يا إيجور. ما رأيك بالفصل الدراسي؟».

«هل تعلمين بما قاله تيتو «لزوجته المستقبلية في لقائهما لأول مرة؟».

«لا، أخبرني».

«أصغي إلى أفكاري، يا جوفانكا».

- يداكِ مُذنبة أقل من يداي.

جبهتي تحترق هذه الليلة.

وترتجف رموشي.

سأرى حلما جميلا الليلة.

سيسلّمني الجمال إلى الموت!

هكذا امتزج بيت لشاعرة كرواتية بمقطع لشاعر كرواتي في مخيّلة «إيجور».

قلت ضاحكة: «ما هذا الرعب؟».

وبدل أن يجيب قال سائلا: «أخبريني، هل لاحظت أن الملائكة لا يضحكون أبدا؟».

«لا أستطيع أن أجزم هنا، إذ لم أفكر بذلك مليا من قبل».

«ألم تحدّقي في عين ملاك قط؟».

«لا، لا أظن ذلك ... لا أتذكر شيئا من هذا القبيل...».

«لنر إذن. علينا إجراء مكالمة مهمة».

قضينا ما تبقى من فتـــرة العصر في متحف «رايكس» ونحن ننظر إلى وجوه الملائكة التي رسمها أساتذة الفن القدماء.

«ألم أكن محقا؟ الملائكة لا يبتسمون، أليس كذلك؟».

«مثل الذين يتولون الشنق».

انفجـــر كلانا في الضحـــك، بالرغم مـــن أن الموقف لم يكن مضحكا بالمرة. كان الضحك طريقة لمعالجة القلق الدفين.

خطـــر ببالي أننا أنـــاس يمرون بفترة نقاهـــة، والناس الذين يتماثلون للشـــفاء من مرض، أو صدمة من نوع ما، أو حادث، أو فيضان، أو تحطم ســـفينة، هؤلاء الناس لا يضحكون أيضا. لقد كنا في طور النقاهة. مع ذلك، لم أنطق بشيء.

٩

محاطين بجدران لا تقــدم ولا تؤخر لمختبرنا الخيالي، رحنا نبعــث الحياة في حياة لم يعــد لها وجود. تناوبنـــا على تدليك القلــب، وتأدية التنفس الاصطناعـــي. وبالرغم من عدم الإتقان وقلــة الخبرة، فقد نجحنا فـــي إعادة النبض إلـــى تلك الحقبة الغابرة.

عـــاد معظمهم إلـــى مرحلة الطفولة، إذ إنها المســـاحة الأكثر أمانـــا، والأقل تهديدا. لم يكن مهما مـــا إذا كانت التفاصيل من عندهـــم، أم كانت مما جمعوه مـــن آبائهم وأمهاتهم، أو كانت من نســـج خيالهم، كما كان يفعـــل إيجور غالبا. كانـــت كل تفصيلة تتضمن جزءا من الحقيقة.

أما مجمل الصورة، فكانت عصية على التفسير: إذ كنا نتكلم لغة منقرضة لا يفهمها إلا نحن. كيف كان يمكننا أن نفسر الأمور لأي شـــخص آخر، تلك الكلمات والمفاهيم، والصور، وبدقة أكبر المشاعر التي تستدعيها فينا الكلمات، والمفاهيم، والصور؟ كانت ســـيمياء: وقد أكدت لهم أنه ســـيكون هنـــاك الذهب عند آخر النفـــق، وأنا مدركة تماما أن اللمعان الســـاطع لجزئية معينة في لحظة ما، قد يتلاشـــى ويختفي فـــي اللحظة التالية. مثل القلب الذي أنعشناه معا.

أحيانا كنت أتســـاءل: ما إذا كان ما أقوم به لا يتعارض تماما مـــع ما كنت أعتقد أنني أقوم به. على أي حال، فإن وصمة العار التي وصم بها الأيديولوجيـــون ورثة البلد الجديد ذاكرةَ الماضي

الجمعية، قد أثمرت عكــس النتائج المرجوة: إذ إنها جعلت ذلك الماضي الجمعي أكثــر جاذبية. ربما بإثارتي ذكريات الماضي قد أســتطيع أن أحطم تلك الهالة المقدسة. أو ربما محاولتي لإعادة تركيب الماضي قد تنتهي برســم محــاكاة باهتة ليس إلا، وبذلك نكشــف فقر «المتــاع» الذي اعتبرناه قويا جــدا. ومع ذلك، كلما قلّبت هذه الأمور في رأســي والقضايا الأخرى المتعلقة بها، فإن المتعة التي كانت تنتج عن لعبة الذاكرة كانت تطرح تلك الهواجس جانبا، مثلما كنت قد طرحت جانبا ذات يوم اكتشافا رمى بحمل الجبال على كاهلي، وهو أنني قد نســيت أكثر بكثير مما نسوا، ولذلك لم أكن الأكثــر تأهيلا للحديث عن الذاكرة. لكن كان قد فات الأوان: فقد أدرت العجلة، ولم يعد يمكنني إيقافهم.

نيفينا .. الأول من كل شهر

كان أبــي يعمــل في مصنع، وكانت أمي ربــة بيت. كانت أهم عطلة عائلية لنا هي الأول من كل شــهر. كان أبي يحضر الراتب الشهري إلى المنزل في «جيب الراتب» (ذلك ما كان يطلق عليه)، ويقدمــه لأمي. كانت أمي تعتني بالنقــود: المبلغ كذا وكذا للغاز، كذا وكذا للكهرباء، وكذا لأجرة البيت، وآخر لسداد ثمن الأشياء التي اشتريناها بالدين. بعد ذلك، نرتدي أفضل الملابس عندنا، وكأننا ذاهبون للعشاء في أحد المطاعم، ونخرج للتسوق.

كان أبي يســتخدم الكلمة التركية للتسوق «باكالوك/البقالة»، وأمي تســتخدم الكلمة الألمانية بصيغتها الكرواتية «فاســنوج».

كانــت أمي تقود حملة التســوق، لأنهــا دون غيرها كانت تعرف ما نحتاج إليه (كم من الســكر، وكم مــن الدقيق، وكم من الزيت والقهوة، وكم من المكرونة وشرائط المكرونة ستدوم لتكفينا حتى اليوم الأول من الشهر التالي)، وكنا جميعا نتقافز مرحا وراءها. كانت أمي تشتري دائما القهوة غير المحمصة، والتي كنا نحمصها بأنفسنا في قدر معدنية اســطوانية ذات أبواب صغيرة ولها يد على الجانب. كنا نسكب حبات القهوة الرمادية عبر الأبواب، ثم نغلــق تلك الأبواب ونضع القدر على موقد الغاز. ثم نقوم بتدوير اليد التي تقوم بدورها بتدوير القدر، والقهوة بداخله تدور مرات كثيرة ببطء وتتحمص على النــار. كانت رائحة القهوة المحمصة الطازجــة تفوح في الشــقة بكاملها. كم أحببت تلــك الرائحة. لقــد كنا نحتاج إلى كميــة كبيرة من البن، لأن الجارات كن يجئن لزيارة أمي وشــرب القهوة كل يوم. لم نكن نشتري أشياء أخرى كثيرة. كانت أمي تصنع المربى، والأشــياء المحفوظة. كانت تخلل الخيار، وتحــول الفلفل الأحمر إلى بابريــكا، وإيفار، ومثل هذه الأشــياء. كانت جيدة أيضا فــي عمل الخمرة المحلاة من الكرز، والشــيكولاتة بالمكسرات، لذا لم نكن نشتري ذلك أيضا. حفظنا كل شــيء في حجرة المؤن، وكانــت أمي تلصق ورقة على الجرار تحمــل اســم المنتج وتاريخــه. كان أكثر الأوقات إثــارة لنا نحن الأطفــال هو وقت تقديم الحلوى. كانت أمي تشــتري بضع علب من البسكويت، و«شــوكولاتة الطبخ» (ذلك ما كان يطلق عليها)، لأنها أرخص الأنواع. كان هناك نوع من البســكويت على شــكل خُف عليه خطوط من الشــوكولاتة، يدعى «بسكويت ربة البيت»،

الذي كان الأفضل للغمس في الحليب. وكانت أمي دائما تشتري لكل منا قطعة دائرية من البسكويت المغموسة بالشوكولاتة، إذ كنا نعتقد نحن الأطفال دائما أن الحلوى التي تباع في السوق أفضل مذاقا من تلك التي تصنع في المنزل.

كانت أمي تشتري أيضا كعك الأصابع، والبسكويت المالح، ليس لنا، بل لضيوفها. وكلما زارنا أحد كانت تقدم كعك الأصابع، والبسكويت المالح في كوبين مختلفين. كان الضيوف يجلسون على الأريكة. كانت أمي تقول، وهي تضع الفناجين على طاولة القهوة الطويلة المنخفضة: «تفضلوا بعض البسكويت المالح»، فكان الضيوف يأخذون الأصابع ويمضغونها بصوت مسموع. كانوا يبدون مثل الأرانب. بعد ذلك، كانت أمي تخرج طبقين أو ثلاثة من الأطباق المسطحة، التي كان أبي يسميها الأطباق اليابانية، مملوءة بحلقات من شرائح المخلل، والنقانق والفلفل، والجبن. كانت تغرس في كل شريحة عود تنظيف الأسنان يبرز منها، وفي الوسط كانت تضع كومة من صلصة «آفار». كان الضيوف دائما ما يعبرون عن إعجابهم بتلك الأطباق، لكنهم كانوا يثيرون أعصاب أبي.

فقد يقول بغضب: «يوما ما سيختنق أحدهم بأحد عيدان تنظيف الأسنان التي تضعينها».

وكانت ترد عليه: «أنت لا تفهم كنه ذلك».

أعتقد أن كلمة «كنه» كانت الأكثر شعبية في ذلك الوقت. كانت أمي تعرف كنه الأثاث، والإنارة، وتصفيف الشعر، والستائر، والحذاء، وإطارات النظارات. كان الزمن الذي كان يجب أن يكون فيه كل شيء طيعا. وكان البلاستيك هو «الكنه» الأعظم.

بعد تناول الحلوى كان أبي يشغّل جهاز التلفاز. كانت الشاشة مغطاة بمرشح بلاستيكي مثل قوس قزح لتجعله يبدو ملونا، على الرغم من أنه في الحقيقة كان بالأبيض والأسود. كنا نضحك كثيرا عندما يأتي المسلسل الكوميدي «المواطن موليكدل».

الآن، وبعد أن كتبت هذا، لست على يقين تماما بأن الأمور كانت هكذا. فالأمر برمته ضبابي جدا ويشبه الحلم، وكأني أروي قصة شخص آخر وليست قصتي.

بوبان.. الرسوم الكارتونية المفضلة عندي

لم يكن هناك الكثير من الكتب في منزلنا، لكن كان هناك واحد منها قد راق لي تماما عندما كنت صغيرا. لقد كان حافظة رسوم أكثر من كونه كتابا. كان له غطاء جلدي أسود، وحواف صفحاته مذهبة. ظهر في منتصف الغطاء الأمامي شعار معدني يشبه قطعة نقد معدنية كبيرة، نُقشت عليها صورة لرجل بلحية. في صغري، كنت أحاول أن أخدش ذلك الشعار ونزعه، لكنني لم أنفذ ذلك أبدا. كان في داخل الكتاب أوراق بحجم ورقة الطابعة، مصفرّة من القدم: وثائق، ورسومات زيتية، وخرائط، وصور. كانت النصوص قليلة مقارنة بالرسومات الكثيرة. بدت كأنها سلسلة من رسومات كارتونية مرتبة بشكل سيئ.

كان جدى يقول لي: «إنه كتاب عن الثورة».

وكنت أردد بعده: «التوله».

«إنه كتاب عن ثورة أكتوبر العظيمة».

بعد أن تعلمت القراءة كنت أنطق عنوان الكتاب مرات ومرات: حياة وأعمــال فلاديمير إليتش لينين ١٨٧٠-١٩٢٤، كان أكثر ما أحببتــه في الكتاب صور رجال الثورة. أظهرتهم الصور بنظرات غامضــة، تأملية، وهم جالســون غالبا حول إحــدى الطاولات يتجادلون. وعلى الرغم من أن الكتاب كان عن لينين، فإن ستالين كان يظهر دائما في الصدارة. عادة كان لينين يقف خلف ستالين الــذي كان يجلس إلــى الطاولة. راقني أن كل شــيء في الصور كان شبه معتم. كان الضوء يأتي دائما من مصباح، أو من إحدى النوافــذ. لكن أكثر ما أحببت كان الكتب. كان توجد في الخلفية دائمــا خزائن مملوءة بالكتب. ظهر في إحدى اللوحات ســتالين وهــو يزور لينين في غرفته، وقد وقــف لينين للترحيب به تاركا كتابا مفتوحا على كرسيه. وفي لوحة أخرى ظهر لينين وستالين في دردشــة مع مفوضيّ جمهوريات آسيا الوسطى. أتذكر ذلك كأنه حــدث البارحة. كان مفوضو جمهوريات آســيا الوســطي يرتدون تلك القلانص الآســيوية، وقد ظهرت في الخلفية خزانة كبيرة للكتب، ويمكنكم أن تروا في الصورة انبهار المفوضين بعدد الكتب الموجودة بالخزانة. كذلك أتذكر صورة معنونة: ف.إ. لينين وزوجته ن.ك. كروبسكايا في منفاهما في سيبيريا، وقد أظهرت لينين وهو يقف بجانب مجموعة من الصناديق منهمكا في قراءة كتاب، بينما كانت زوجته واقفة بجانب رف للكتب.

فيما بعد، قرأت كلام الإهداء. كان مكتوبا بخط دائري جميل. كان الإهداء يقول: تمنياتي القلبية إلى أعز الأصدقاء نيبويشــا كرستيتش. وكان التوقيع: الرائد فليكو فوكاشنوفتش.

كان اسم جدي نيبويشا كرستيتش.

كان جـــدي عضوا في الحزب. كان من أوائل من انضموا إلى رجال المقاومة. وكان أبي يدعوه أودباس، أي أحد أفراد الشرطة الســـرية، إلا أنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن بدأ الشيوعيون يفقدون مواقعهم. كان أبي ســـيئا. ولكن معظم الناس كانوا سيئين. كانوا يفعلون الشـــيء ونقيضه. ما الذي يجعلك تعتقد أن الشـــيوعيين يختلفون كثيرا عن المُعلّم الهندي ساي بابا؟ لقد حاول الشيوعيون القيام بالمعجزات أيضا حتى انكشـــف المستور، هذا هو الأمـــر. ولا أعتقد أنهم قرأوا كل تلك الكتب.

لو طلب مني شـــخص أن أرســـم لوحة تمثل عائلتي، أتعرفون ماذا سأضع إلى جوار أبي؟ سوف أضع السيارة «زاستافا ١٠١»، لأنه كان يهتم بتلك الســـيارة العتيقة أكثر مما كان يهتم بي. وإلى جوار أمي ســـأضع تلك الحقيبة البلاســـتيكية التي كانت تحمل فيها البقالة عند عودتها من الســـوق. وإلى جانبي ســـأضع كرة قدم. وجوارجدي ســـأضع المسدس القديم الذي كان يضعه على الطاولـــة إلى جانب ســـريره، ولم يدعني قط أقتـــرب منه. كان والداي ريفيّين بسيطين. وكان الشيوعيون طيبين!

آنتي.. دعوة إلى حفلة

أتذكر حفلات الشاي الراقصة التي كنا نقوم بها في المدرسة، ونحن في الثانية عشـــرة أو الثالثة عشرة من العمر. اختفت هذه الحفلات بعد أن أُدخلت نوادي رقص الديســـكو. لم يقدم الشاي

قط في تلك الحفلات أو أي شـــيء آخر، ومازلت أتســـاءل: لماذا سميت بحفلات الشاي. كانت الغرف تضم صفوفا من الكراسي بمحاذاة الجدران. كان الأولاد يجلســـون فـــي جهة، والبنات في جهة أخرى. كان هناك مســـؤول عن كل حفلـــة، ربما للتأكد من أننا لم نتجاوز حدّنا في شرب الشاي الذي لم يقدم أصلا. وكان هناك شـــخص آخر مسؤول عن الموسيقى. تلك كانت الأيام التي لم يزل الناس يســـتخدمون فيها مشغل الأسطوانات، ومسجلات الأشـــرطة، التي اختفت هي أيضا الآن. كان كل واحد منا يذهب إلى بنت ويقف أمامها كعاشـــق أو ما إلى ذلك، من دون أن ينبس ببنت شفة. كان ذلك يعني طلبها للرقص. وبين الحين والآخر، كان المسؤول يعلن بصوت عال: «الفتيات يخترن الآن!»، وعندها تقف البنات ويجئن إلينا. وهكذا تعرف من التي تحبك من الفتيات.

تلك هي سنواتنا «الهرمونية»، إذ كنا نتطلع بشوق إلى الرقص البطيء، أو ما كنا نســـميه «العصّارات». كانوا يشغلون موسيقى أغنية «أنت فقط»، بطيئة، فتضم الفتاة ضما شـــديدا لدرجة أن كلا منـــا يجد صعوبة في التنفس. وقد تتخدر من الإثارة تقريبا، لكنـــك تتظاهر بعدم التأثر. مـــازال مجرد التفكير في ذلك يبهر أنفاسي. كان الأمر كأنني أغوص في الماء ثم أخرج وخدي ملتصق بخدهـــا. وقد نكون قريبين جدا، لدرجة أن عيناي تفقد التركيز وتحوّل. أحس بملمس بشرتها الصافية، البيضاء كالحليب؛ حتى أنـــه يمكننـــي أن أرى العروق الزرقاء في جفونها. أستنشـــق في أنفاسها قطرات النعناع الأخضر. مازال مجرد التفكير في ذلك يُدوّخني. كان اسم تلك الفتاة سانيا بترنتش.

ميليها .. الطبق البوسني الساخن

وسائل الحفاظ على الذاكرة

مارسيلا بروستلتش

المقادير: نصف كيلو لحم خنزير مخلي من العظم، نصف كيلو لحم بقر مخلي. نصف كيلو حبات بطاطس صغيرة غير مقطعة. ٢ بصلة مقطعتين إلى نصفين. ١٠ فصوص من الثوم. ٤٠٠ جرام طماطم. ٤ حبات من الفلفل الأخضر أو الأحمر. ٣٠٠ جرام لفت. ٢٠٠ جرام من الملفوف. ٢ حبة جزر. ٢ حزمة بقدونس. ١ حزمة كرافس. ١ حبة كرنب. ١٠ قرون فاصوليا. ٢ معلقة صغيرة من الفلفل الأحمر. من ١٥ إلى ٢٠ حبة فلفل أسود. حوالي ٣٠٠ جرام من الماء، أو المرق، أو النبيذ الأبيض.

قطعي الخضار قطعا كبيرة. ضعي اللحم والبصل والخضار في إناء، ويفضل أن يكون خزفيا. أضيفي السائل. ضعي شريطا من العجين على حافة الإناء الداخلية لمنع البخار من التسرب، ثم ضعي الغطاء. ضعي الإناء على النار حتى يغلي، ثم اتركيه على نار هادئة لمدة ٤ أو ٥ ساعات.

جوهانكي.. أكواز آيس كريم الفانيليا

أنتمي إلى عائلة كبيرة. لقد أحب والداي يوغسلافيا. وكذلك نحن الأطفال. والآن أدرك أن ثمة سببا آخر جعلنا نقضي إجازتنا الصيفية في يوغسلافيا، وهو أن تكاليف الحياة كانت

رخيصة جدا فيها. كنا نخيم في عدة أماكن على طول شاطئ البحر الأدرياتيكي في واحدة من تلك الخيام الواسعة، واعتدنا أن نكون من بين أوائل السياح الأجانب. كان عندي سبعة من الإخوة والأخوات. كان أبي يعمل، وبقيت أمي في البيت معنا، لذا كان علينا أن نقتصد كل جيلدر، وألا نبعثر نقودنا في العطلات، فحتى الهولنديون كانوا فقراء في ذلك الوقت. بعد اندلاع الحرب، بدأ الهولنديون يذهبون إلى دول أخرى (نيوزيلندا، وكندا، والبرازيل)، وكانوا يكدحون مثلهم مثل اليوغسلاف من أجل كسب رزقهم. لذلك، كان البحر الأدرياتيكي الجنة بالنسبة إلينا. في كل يوم كنا نحن الثمانية نصطف - من الأصغر إلى الأكبر - والوالدين في المؤخرة، ونذهب لتناول الآيس كريم، وفي كل يوم كان «نظيف» يُحيينا بكلماته المعهودة: «أنتم أيها الهولنديون بيض البشرة كالفانيليا».

انتشر هذا الوصف في البلدة، وسرعان ما أصبح الكل ينعتنا به: «انظر، ها قد جاء الفانيليون»! (وكان اسمنا الحقيقي تير بروجن هوجنهولتز، والذي لم يكن أي أحد يستطيع نطقه)، وقد اتخذنا لأنفسنا أسماء أولى نحن أيضا. سمّيناها أسماء الصيف. فكنت أنا جوكا، وأخي جيرارد أصبح اسمه جريج، وفرانس أصبح فراني وفولتر أصبح وولتر، على اسم وولتر الشخصية التي ظهرت في الفيلم الذي شاهده الجميع، ذلك الفيلم الذي يدور حول الدفاع عن سراييفو، وبدأ الجميع ينادونه به، بألمانيتهم المهجنة: «ها هو وولتر». مازلت حتى الآن أناديه بتلك العبارة.

كان ذلك الآيس كريم ذكرياتي المبكرة عن يوغسلافيا.

لم يصطحبنا والدايّ لتناول الآيس كريم أبدا في هولندا، إذ كانت مكلفة جدا. وكان السكان المحليون ينادون بائع الآيس كريم نظيف (بشيبتار). وبما أنني لم أكن أعرف جماعاتكم العرقية المختلفة حينذاك، فلم أكن أعرف أنها تعني «ألباني». أنتم جميعا بدوتم بالنسبة إلينا متشابهين. ونحن بدونا لكم بلون الفانيليا، وأنتم بدوتم لنا بلون البندق.

سليم .. الحنين إلى الجنوب

كان فرض علينا جميعا دراسة تاريخ الأدب المقدوني، والسلوفيني، والكرواتي والصربي، والبوسني، وأدب الجبل الأسود، كما تعرفون جميعا. لم أحصل قط إلا على مقبول. كان من بين ما درسناه تلك القصيدة المقدونية بعنوان: «الحنين إلى الجنوب». كنت أعرف العنوان فقط، لأنني لم أقرأها قط، لكن دائما ما بدا لي العنوان غريبا. لقد كانت أشبه بإعلان أكثر منها قصيدة. ثم في أحد الأيام وجدت نسخة لها بالفاكس في قاعة المطالعة بالقسم هنا. وكما تعرفون، كان قد كتبها «قسطنطين ملادينوف» قبل أكثر من مائة وخمسين عاما. على أي حال، أنتم تعرفون كيف يطيل أصدقاؤنا الهولنديون الحديث عن خططهم للصيف، وإجازاتهم الصيفية وتحضيراتهم لها، أو عن عودتهم للتو منها، أو التساؤل عن وجهة الذهاب هذا العام، حسنا، هذا ما ينطبق على تلك القصيدة. قد تظن أن من كتبها هولندي وليس مقدونيًا. كان عليَّ أن أترجمها لصديقتي «ميكي». لذلك

رحـــت ألقيها بالمقدونية - وتيتو شـــاهد على مـــا أقول - وكان عقلي يسترجع القصيدة من دون أي خلل. لا أريد أن أسبب لكم الضجر، ولكن دعوني أذكركم ببدايتها، إن لم تكن بحوزتكم الآن.

الظلمة في كل مكان، الظلمة تلفني.
يطوق الضباب الكثيف الأرض...

حسنا، تستمر هذه النشرة الجوية لبعض الوقت، ثم يصل إلى هدفه، والذي صدمني.

لا أستطيع الاستمرار بالعيش في هذا المكان؛
لا أستطيع العيش بين الثلج والبرد والجليد.
هب لي يا إلهي أجنحة لكي أحلق بها؛
حتى أعود إلى الوطن دون إبطاء؛
لكي أتمكن من تكحيل عينيّ مرة أخرى
بشمس «ستراجا» وشاطئ «أوهريد» الجميل.

وعندما وصلت إلى النهاية، إلى الأبيات التي تقول:

هناك سأعزف لحن الوداع الأخير،
وعندما تغرب الشمس، سوف أموت.

ياإلهـــي، لقد انفجرت في البكاء. هـأنـــا هنا، أتكلم المقدونية

بطلاقة كابن لتلــك الأرض، وأصرخ من رأســي. اعتقدت أنني تجــاوزت النهاية العميقة. على أي حال، قمت بترجمة القصيدة لصديقتــي «ميكي» والدموع مازالت تســيل على خدّيّ. أتعلمون ماذا قالت؟ «موي!» عندما سمعت تلك الكلمة الهولندية، صفعتها صفعة قوية، فانفجرت في بكاء شــديد. طبعــا، كان أفضل أن أرفس نفســي. لا أعرف ماذا دهاني. شــيء ما في تلك الكلمة جعلني أتصدّع. لا أســتطيع تفســير ذلك، علــى الرغم أن تلك الكلمة تعني «جميل» ربما كان الحشيش هو الذي رجرج دموعي بالنسبة لهذه القصيدة.

داركو.. أمي تشابك الأيدي مع تيتو

هذه ليست ذكرى تخصني؛ لقد حدثت لأمي. كانت أمي تنتمي إلى الــرواد مثلها مثل بقية الأطفال في مدرســتها. ومرة، لأنها كانــت الأولى في صفها، وقع عليهــا الاختيار لحضور الاحتفال بعيد ميلاد تيتو. كان عرفا أن يرســلوا أفضــل الرواد إلى ذلك الاحتفال. أخبرتنا والدتنا بأنه عندما دخل المصور لأخذ الصورة التقليدية «لتيتو مع الرواد»، أسرعت إلى تيتو وأمسكت بيده. لقد رأيــت تلك الصورة. كانت تميل عليه وهي تضغط يده في يدها، وكان يمسك بســيجار كوبي بيده الأخرى. عندما انتهت مراسم التصوير، حــاول تيتو أن يفلت يده من يدها، لكن أمي تشــبثت بهــا. كانت ملتصقة به كالغراء. حــاول الإفلات مرة أخرى، لكن أصابعها تحولت إلى «كماشــة» حية. بدأ الناس يشــعرون بعدم

الارتيـــاح. كان لا بد من أن يأتي أحـــد حراس الأمن لفكها عنه. عند ذلك، أطلقت صرخة مدوية.

قالـــت لـــي: «لا أعرف ما دهانـــي. أو من أيـــن جاءتني تلك القوة؟».

في إحدى المرات رأيت تيتو بلحمه ودمه. كان ذلك في معرض زغـــرب التجاري. كنت أنا وأمي من بين الحشـــود التي اصطفت على طول الطريق عندما مر وحاشيته. كان قد بدا أصغر حجما مما كان في الصـــور، ومقاطع الأفلام. لقد بدا عليه التقدم في العمر والوهن، كان أشـــبه ما يكون بمومياء. وعندما لامس شعاع الشمس أعلى رأســـه، وبدت جلية لي، ظهر أعلى رأسه مبرقشا بنقاط خالية من الشـــعر، وقد غُطيت بخصلات شعر مصبوغة حال لونها إلى البرتقالي.

«هيا»، قالت أمي، وهي تشدني بقوة من يدي، وأخذتني لتناول الآيـــس كريم. وقد بالغت أمي فـــي طلب الآيس كريم، حتى أنني لم أســـتطع أن آكل ربع الكمية التي طلبتهـــا. لا أعرف ما الذي دهاها؟!

ماريو.. قطارات بلا جداول للمواعيد

بالنظر إلى الوراء كان لديّ انطباع بأن كل شيء في يوغسلافيا الســـابقة كان له علاقة ما بالقطـــارات، فإذا ما رتّبت القطارات المهمة وغيـــر المهمة في حياتنا في سلســـلة لحصلت على تاريخ مواز للدولة. ولا يقل صحة عن التاريخ الرسمي.

١- إذا ما اســتثنينا الشعار الذي يدعو إلى «الأخوة والوحدة» في يوغســلافيا الســابقة، فلن يتبقى منها سوى سكك الحديد ومحطات القطارات التي تربطها بالنمســا والمجر. كنت أشــعر بغصة في حلقي في كل مرة أرى فيها واجهات المحطات الصفراء ونبات الجيرنيوم المزهر الأحمر في أحواضها. كان مجرد رؤيتها يعني الوطن.

٢- أول قطــار ظهــر فــي حياتــي كان في كتــاب الأطفال «قطار في الثلــج» لصاحبه ماتي لوفراك. وأول حدث في تاريخ يوغسلافيا، وفي تاريخ الســينما اليوغسلافية، كان كتاب فليكو بولايتش «قطــار بلا جدول مواعيد». هــذا الكتاب يروي قصة رحيــل مجموعة من الناس مــن جبال روكــي الدينارية بالألب، إلى «ســلة الخبز» اليوغســلافية، إلى إقليم بارانيا (أم أنه كان باتشــكا؟) الغني، الخصب في الشمال. وفي خضم تلك الرحلة، أولئــك الناس تحابــوا، وتخاصموا، وتجادلوا فكريا، وشــهدت الرحلــة مولد بعض الأطفال، ومــوت بعض الرجال. تلك القصة كانت سببا في سلسلة أفلام القطارات في السينما اليوغسلافية، حتى وصلت إلى مشهد الحب القاسي في الحمام القذر في فيلم «أمير كوستاريكا»، عندما كان أبي مسافرا في عمل. بالمصادفة، كانت الســينما اليوغســلافية بفيلم كوســتاريكا ذاك قد لفظت أنفاسها الأخيرة.

٣- كانت السكك الحديدية أيقونة الخمسينيات، وهي مرحلة حركة الشــباب العمالية الصادمة محليــا وعالميا. أوكلت للجيل الصاعد بناء خطين مهمين: خط «برتشــكو - بانفويتشي» (وكان

الشــعار «برتشــكو» بانفويتشــــي هدفنا، نهاية الصيف ستشهد صرحنا)، و خط «شـــاماك – سرابيفو». لفترة من الزمن شكلت كتائب الشـــباب حدثا ســـاخنا في الأفلام الموجهة للاســـتهلاك المحلـــي. إن فيلم «الفتاة الرائعة» الـــذي أدت فيه ملينا درافتش دور البطولة، ليس إلا واحدا من بين العديد منها.

٤- بعـــد بناء تلك الســكك لم نتمكن مـــن الحصول على العـــدد الكافي مـــن القطـــارات، لقد اســـتخدمنا القطارات للذهـــاب في الرحلات المدرســـية، وللذهاب إلى الشـــواطئ وللالتحاق بالوحدات العســـكرية. طبعـــت على كل القطارات JDZ بالأحرف اللاتينية والســـلافية القديمة. عرف العديد من الناس اللغات الأجنبية من خلال القطارات. نقشت عبارة «لا تمل بجســـمك خارج النافذة» على صفائح نحاسية تحت النوافذ برفقة ترجمات إلى الفرنســـية، والألمانية، والروسية. لقد أصبحت عبارة مشـــهورة في الكتب والأفلام، واكتســـبت صيتا لافتا في لازمة الأغنية الشـــهيرة «الزر الأبيض»، وهي (اســـتقلي القطار يا ســـيلما، ولكن لا تميلي بجســـمك خارج النافذة...)، الصقت فوق كل مقعد في القطار لوحة لبلدة، أو منتجع سياحي يوغسلافي. كان خطي المفضل خط ماكارسكا مـــرورا ببيوكوفو التي كنت أعشـــقها. كانت الشـــطائر التي نأكلها في القطار هي الألذ على الإطلاق، وكذلك كان الدجاج المشوي في القطار الأفضل على الإطلاق. كان الاختراع الأهم في ذلك الوقت هو «الترمُس»، وكان المشـــهد الذي لا ينســـى والذي نقش في ذاكرة ملايين اليوغســـلاف، هو منظر ظهور

شاطئ الأدرياتيكي في الأفق بعد غياب طويل. كان جميع من استقل القطار إلى البحر يشارك في اللعبة نفسها : فعلى كل من يرى البحر أولا أن يصيح بأعلى صوته «الماء!»، وسيحصل على خمسة دنانير، أو أيا كان الرهان المتفق عليه...

٥- اتسمت الستينيات والسبعينيات «بقطارات العمال الأجانب» التي كانت وسيلة المواصلات المفضلة عند العمال اليوغسلاف، واليونانيين، والأتراك، وهم في طريقهم من الدول العربية وإليها إلى أن بدأ الأمر يحتاج إلى امتلاك سيارات. كان الحنين الجامح في رحلة العودة بالقطار إلى الوطن يظهر جليا في مقطع قصيدة غنائية مجهولة المؤلف:

(...) انتظريني أيتها الحبيبة.
فأنا في اشتياق منذ مغادرتي فرانكفورت الجميلة.

٦- كان القطار الذي يذهب إلى تريستا أيقونة النزعة الاستهلاكية اليوغسلافية في الثمانينيات، إذ كان يُحمَّل ببضائع السوق السوداء من الجينز، والبن، والأرز، وزيت الزيتون، و«التشيرتات»، والسراويل، والملابس الداخلية، وكل ما يخطر على البال. تزامن أوج الانغماس في التسوق في تريستا مع وفاة تيتو. مات تيتو في سن الثامنة والثمانين. لقد استذكر الناس الحدث بطرق عدة، منها القيام بحملة نشاطات زراعية: فزرع البعض «ثماني وثمانين وردة للرفيق تيتو»، وزرع البعض «ثماني وثمانين شجرة بتولا للرفيق

تيتو»... وهكــذا. ومن هنا جاءت النكتة الغجرية التي تقول: ســأل ضابط الجمارك غجريا في القطار القادم من تريستا: «مــا لديك في تلك الأكيــاس»، فرد الغجــري بعفوية لافتة: «ثمانية وثمانون بنطلون جينز للرفيق تيتو».

٧- كان آخر قطار يوغســلافي هو «القطار الأسود»، الذي حمل جثمان تيتو من خط «ليوبليانا - زغرب- بلجراد»، ليوارى الثرى في حديقة الزهور في بلجراد. اصطف مئات الآلاف من اليوغســلاف على جانبي السكة لإلقاء نظرة الوداع على «الابن الأعظم للشــعوب والقوميات اليوغســلافية»، وقد خلد العهد اليوغسلافي «الإخوة والوحدة» في أبيات شعرية قوية مثل:

في نفق السكة، في الظلام،
تسطع نجمتنا الخماسية الحمراء.

٨- يعود انهيار يوغســلافيا، والحرب التي اندلعت إلى ذلك اليوم التاريخي الذي قام فيه صــرب كرايينا في كرواتيا، بقطع خط «زغرب - ســبليت» باســتخدام الكتــل الصخرية، وبذلك وضعوا حدا لتلك الخدمة لسنوات عدة.

٩- أُعيد فتح خط «زغرب - سبليت» قبل عامين، واستغرقت رحلــة القطار الذي ســمي «قطار الحرية» يومــا كاملا، وقد تم بثّها على التلفزيون الكرواتي. ويعود ســبب استغراق تلك الرحلة كل هــذا الوقت إلى أن رئيــس الوزراء الكرواتــي كان ينزل من القطار عند كل صفّارة للتوقف لإلقاء خطاب في الجمهور. أثناء ذلك، كان الصرب الذين طردناهم من كرايينا يشــقون طريقهم

إلى صربيا مشـــيا على الأقدام، أو بالحافلات، أو بالســـيارات، أو بالجرارات، أو بالعربات التي تجرها أحصنة، أو بأي وســـيلة أخرى ماعدا القطار.

١٠- أخيـــرا وليس آخرا، ارتبط بالقطارات كذلك أحد أقوى مواطن الجدل بشأن اختلاف اللغة الصربية عن اللغة الكرواتية، وبناء على ذلك كانت الحرب ضرورة تاريخية. فالكلمة التي تعني «قطـــار» مختلفة في اللغتين: فالكروات يســـمونه «فلاك»، بينما يسميه الصرب «فوز».

إيجور.. الرعب والبستنة

(تعليقات صديقي ميكا على الشعر اليوغسلافي، بعد اطّلاعه على مجموعة مختارات جديدة من الشـــعر اليوغسلافي زغرب، ١٩٦٦ التي أعرتها له).

ضمّت المجموعة الجميع: الصـــرب، والكروات، والمقدونيين، والسلوفينيين. لم يحظ شعراء البوسنة، والجبل الأسود بفصول مســـتقلة، رغم وجودهم في المجموعة. أكثر ما لفت انتباهي هو قراءة الشـــعر الســـلوفيني باللغة الســـلوفانية، والشعر المقدوني باللغة المقدونية، من دون ترجمة لهما.

قلت لنفسي، لا بأس، لنر ماذا كان أجدادنا في الوطن يقرأون قبـــل أن يكون لنا وجـــود. هلم نحضر الآلة الحاســـبة كما نفعل في الأســـواق. يسأل دولاك: كم ســـعر البيض اليوم يا عزيزي؟ ثم يجري الحســـبة. من بين ١٧٣ شـــاعرا في المجموعة، ثمة ٥٦

صربيا، و٦٢ كرواتيا، و٤٠ سلوفينيا، و١٦ مقدونيا. لا بأس، هذا جيد. دعني الآن أحصِ النســوة بينهم. ثمة واحدة بين الصرب، وثلاث بين الكروات، واثنتان بين السلوفينيين. في المجمل هناك ١٦٧ شــاعرا، وست شــاعرات. كان من بين الشــاعرات واحدة دفعتها الرهبة إلى استخدام اســم ذكري مستعار. ومن الأشياء التي لاحظتها أن هؤلاء الشعراء يعيرون اهتماما كبيرا لأسمائهم، ويفضلونهــا من ثلاثة مقاطع بدل مقطعين، ويقومون، مثلهم مثل الأبطال الحزبيين، بتسمية المدارس بأسمائهم، فنجد اسما مثل يورى فرانيتشــيفتش- بلوتشــار، أو ميلينكو بركوفتش- كــرني، ولا تســتطيع أن تحدد من يملك ناصية القلم، ومن يملك ناصية الســيف. وهذا ينســحب على النوع الحالي من الساســة ممن يتوقون إلى النازية، فهم يصرون على ثلاثة مقاطع في أسمائهم، ويسترســلون في ذلك، فطول الاســم له أهمية خاصة عندهم. وهــذا يجعلني أتســاءل إن كانوا يحاولــون التعويض عن عاهة بيولوجية، حيث يشــكل سنتيمترا أو ســنتيمترين فرقا ذا دلالة؟ أوه، ثمة شــيء آخر. يقوم شــعراؤنا بإهداء قصائدهم لبعضهم بعضــا. أتعرف ما أقصد؟ كرجل يغازل آخر. هل ثمة حاجة إلى المزيد؟

علــى أي حال، لنســتمر فــي الحديث. والمدهــش. المدهش حقيقية! أن حوالي ٥٠٪ مــن قصائدهم تدور حول الأم، أو الأم الوطــن. أي نوع هذا الذي يحول الأم وطنا والعكس؟ ثم يتباكون على كليهما. دعني أقل لك إنه مجرد هراء. والأدهى من ذلك كله أن حوالي ١٠٪ منها تــدور حول قصص الرعب، أعني بالضبط

القبور، والأضرحة، وما شـابه ذلك. يا إلهي، إنه شـيء يخيفني حقا. أعني أن شـعراءنا غيلان، ينبشـون الأرض دوما بحثا عن عـدو أو آخر. أحدهم يحدد أرضه (هذه هي الأرض التي بذرت فيها أمواتي)، ومن ثم يرفع معوله (أنا استدعيك أنتِ، يا ظلالي) ويجول فـي خاطري، أنـت خاطف الجثث اللعـين. أنت تدخل الرعب حتى في قلب سـتيفن كنـغ، ملك قصص الرعب. وبينما أحاول التغلب على ذلك الخوف، أجد نفسي وجها لوجه مع هذه السطور:

يا مرآة الرعب! أظهري مشاهد دون مقاصل أو مشانق!
الدماء! الدماء! يصرخ دمي في أرض الكروات المستباحة.

اللعنة!

لكن لننتقل الآن إلى العشرة في المائة التي تنتمي إلى ما يمكن أن أسميه «جنون العظمة»، أو قصائد أنا، أنا، أنا، التي يتحدثون فيهـا مع النجوم، ومع الكون، مثل «إن كنت رجلا، فامش مطاولا السـماء» ذلك الهراء. قصائد تجعل مـن كل رجل، رجلا خارقا بمنتهى السخافة.

لا بأس، لنستمر في الحديث. الفئة التالية تشكل ٢٠٪، وتتغنى بجمال الطبيعة بما فيها فصول السـنة، وهطول المطر، وما إلى غيـر ذلك من هراء. تظنهم مجموعة من المتنبئين الجوّيين أمثال كامنكو كاتيتش. هؤلاء المنحرفـون يهتمون بالحياة النباتية أكثر من الحياة الحيوانية. صحيـح أنني وجدت قصيدة تتحدث عن

عِجل، لكنني لم أدرك ذلك حتى وصلت إلى نهايتها. اعتقدت في البداية أنها عن فتاة جذّابة، إذ كانت اللغة جميلة، وجنسية، ولكن في منتصف القصيدة ثمة بيت يتحدث عن الروث... لكن لنعد إلى الحياة النباتية. كانت هناك أنواع كثيرة من القصائد عما هب ودب من الأشجار، بما فيها أشجار الحور، والصفصاف، والسنديان. بعد كل ذلك الرعب فوجئت بأن لشعرائنا ما يقولونه عن الورود، بما فيها زنبق الوادي، والبنفسج ثلاثي الألوان، والورد، ونبات بخور مريم المزهر. لم أكن أتخيل أن الرعب والبستنة يتناغمان. مع ذلك ذكر أحدهم شيئا عن عن زهور بخور مريم الدموية. كم يشكل ما تحدثت عنه؟ ٩٠٪؟ لا بأس، فقد فحصتهم من كثب باحثا عن الجنس في شعرهم. وقد أصبت بالدهشة لأنهم لا يهتمون بالجنس على الإطلاق. وهذا يظهر جليا لك من دون الحاجة إلى آلة حاسبة. صدقني أن الوقت الوحيد الذي يكتبون فيه عن المرأة هو عند موتها، ودفنها. يبدو الأمر كأنهم ينتظرون موت المرأة بفارغ الصبر حتى يكتبوا قصيدة عنها، وشعارهم هو أنه كلما كبر المصاب ازدادت القصيدة حُسنا. أنتم تعرفون القصيدة التي تقول:

رأيتك ليلة البارحة في منامي، حزينة، ميتة.
في وسط القاعة المحتومة أنشودة رعوية للورد.
في تابوت عالي المقام بين آلام الشموع.

طبعا، أنتم تعرفون هذه القصيدة، فقد كان لزاما علينا تعلمها

في المدرسة. وكتب الشاعر نفسه يقول:

لا أعرف من أنتِ: أأنتِ امرأة أم أنثى الضبع؟

اللعنة! هل هذا الرجل يغيظني؟ أعني ما الحكمة إن كنت لا تميز المرأة عندما ترى واحدة؟ وهناك أيضا الشاعر الذي لم يستطع أن يجد مكانا لدفن امرأته (أين أستطيع دفنك، أوه، يا حبيبتي، أنتِ الآن رحلتِ؟)، والرجل الآخر «كلما ازددت قراءة، ازددت انزعاجا»، الذي غاب طويلا وعند عودته وجد حبيبته قد ماتت:

وعندما عدت،
وجدتك قد قضيت.

لماذا عاد ذلك الأحمق؟ وهناك أيضا شاعر آخر درسناه في المدرسة، أتذكرونه؟

ومع ذلك قد يأتي الحب، ويصيبنا،
ولكن هل أتمناه، أم أتمنى ذهابه؟

دائما ما جعل ذلك الدم يغلي في عروقي. مشكلتك يا صديقي ليست فيما إذا كنت تريد أم لا، بل فيما إذا كنت تمتلك القدرة. لذا، عليك أن تحزم بضاعتك، وتمشي، فأنا لن أشتري بضاعتك.

هؤلاء الشعراء مجموعة من المرضى النفسيين. وهذا لا يقتصر على الموجودين في المختارات الشعرية التي بين أيدينا،

إذ لم نجد صوتا عاقلا بين شـعرائنا خلال المائتي سنة الماضية، أو حتى منذ بدأوا يقرضون الشعر. وهذا ينسحب على الجميع، الصــرب والكروات، والسـلوفينيين، والمقدونيــين لا فرق. كلهم ضرطات قديمة. وأنت لســت في حاجة إلى آلة حاســبة لإثبات ذلك.

يوروش.. أتمنى لو أنني عندليب

خلال عامنا الثاني في المدرسة الابتدائية، طلبت منا معلمتنا أن نكتب موضوع إنشــاء عن «تيتو». أخبرتنا أنه قد بُترت إحدى ساقي تيتو، وأنه يتعافى من تلك العملية الجراحية، وسـيكون سـعيدا إن كتبنا شيئا لطيفا عنه. كتبت أنني تمنيت لو أنني عندليب لأتمكن من الطيران إلى المستشفى الذي يرقد فيه الرفيق تيتو كل صباح لأوقظه بغنائــي وهو في ســريره. امتدحتني المعلمة كثيــرا وقرأت ما كتبت أمام الفصل. ســخر زملائي في الفصل منــي ونادوني بالعندليب. كانوا يصيحون بالهراء ضاحكــين: «ها قد جاء العندليب»، وعندما ســمع أفراد عائلتي بموضوع الإنشاء، ســخروا مني أيضا، وأخص بالذكر والدي. بعد ذلك بوقت ليس بالطويل، مات تيتو، وبكى والدي عليــه، وجلس أفراد العائلة جميعهم أمام التلفاز لمدة ثلاثة أيام أثناء الجنازة وهم ينتحبون. وأكثر ما شــدّ انتباههم هو العدد الكبير من الشخصيات الأجنبية المرموقة التي حضرت الجنازة. قالت والدتي: «كل هؤلاء المشــاهير!» وجدوا متنفســا للتســلية لهم في نقد نطق المذيعين لأسماء رؤساء الدول، والشخصيات المشهورة. ولكن عندما

قلت إن اســـم مارجريت تاتشر هو تاتشر وليس «تراتشر»، رد والدي قائلا : «هذا يكفي منك، يا عندليب. اذهب وأحضر لي زجاجة بيرة من الثلاجة. واحذر أن تفلت من منقارك!». وانفجر الجميع ضحكا على ما قاله أبي.

كانت يوغســلافيا مكانا بغيضـــا. كان الجميـــع يكذبون. طبعا، ومازالوا يكذبون، ولكن كل كذبة انقسمت إلى خمس، كذبة لكل بلد.

١٠

[...] أعتقد أنه من الأفضل أن أبين مباشرة
أن المناطق الشمالية من هولندا جعلتني دائما
أشعر
بقلق محدد، حيث أستهل الكلمة بالحرف الكبير
كما تتطلب اللغة الألمانية، كأن ذلك الحرف الكبير
وفق مذهب الفلسفة الطبيعية المبكرة كان من
العناصر الأساسية، مثل النار والماء
التي تكوِّن الحياة على الأرض. الحرف الكبير يمنح
المرء
شعورا بأنه وضع في صندوق أسود
حيث لا مهرب سهلا منه.

سيز نوتيبوم

تعد أمستردام من أجمل مدن العالم. برغم أن هذه مقولة مبتذلة من كثرة الاستعمال، غير أنني لن أتردد في قبولها من دون حرج من ابتذالها، ليس لما تهمله سهوا أو عمدا: إحساس، يكاد يكون إحساسا ماديا بالغياب بشأن تلك المدينة، إحساس طاردني من وقت لآخر، ولم أستطع تحديد مصدره.

خلال تجوالي في المدينة، كنت أمر بحزام من مناطق الشم: رائحة البول التي تتلاشى أمام رائحة العفن الذي يمسّ خياشيمي في أثناء نزولي على الدرج، ورائحة العفن التي تفسح في المجال

أمـــام رائحة الزيت النـــتن التي تفوح من مخلفـــات الطعام على الشاطئ وتسكن في شعري، ورائحة الزيت التي تتنازل عن رائحة العـــرق الآدمي الذي يعلق بي وأنا أشـــق طريقي عبر الحشـــود، ورائحـــة العرق التي تختفي أمام رائحة مخدر الحشـــيش القوية البغيضـــة. لم تكن لطبيعة المكان التي طالمـــا أحاطتني أي قدرة على الإثارة، إذ تركت الانطباع نفســـه الذي تركه الرجل المســـن غريب الأطوار الذي كان يؤدي خدعا بهلوانية على حبل مشدود، وهو عار تماما في ميدان أمستردام العام. ذلك المخلوق البشري العـــاري وغير المألوف الذي يتلوى ويتقلب على الحبل، كان مثالا غريبا لتناقضات المدينة.

تفصيلة بعـــد أخرى أفقدتني حذري . دائمـــا ما كنت أواجه بازدواجية ما: إذ بدا لي أن كل شـــيء يمضي يدا بيد؛ وكل زيادة يقابلهـــا نقص. لقد اتخـــذ غياب الجمال الأشـــكال النموذجية فـــي التماثيل المدينية القبيحة، الذبابـــة الحديدية الممددة والتي تقبع على الأســـفلت في حي «هارليم»، والجرارات المعدنية التي تزحف خلال الميدان الرئيس، والتماثيل الصغيرة بحجم الكرات المطاطية التي تبرز من داخل العشـــب المبتل من متنزه لآخر. كان الجمـــال أيضا حاضرا، وقد اتخذ أيضا أشـــكالا نموذجية: في المتاحف، والمنازل الأرستقراطية، والقنوات، والصور المنعكسة.

بالإضافة إلى القول المبتذل الأول، غالبا ما كنت أســـمع قولا آخر، أعني «أمســـتردام مدينة ذات بُعد إنســـاني». بالنسبة إليَّ، كان بها بُعد طفولي. واجهات المتاجر في المنطقة الحمراء تعرض الدمي الحية لإغراء الكبار، ومتاجر الأدوات الإباحية بزخرفتها

كانت تشبه متاجر اللعب، والمقاهي التي تشبه روضات الأطفال بالفطر البلاستيكي «المزروع» عند المدخل، وجاذبية حديقة ألعاب السد. والأمر ليس أن هذه المسحة الطفولية مخربة أو باعثة على السخرية، إذ لا يبدو أن هناك دافعا أيا كان من ورائها؛ إذ إنها حولت أمستردام تماما إلى نوع من «ديزني لاند» كئيبة. غالبا ما كنت أشعر بالخزي والعار وأنا أتجول في المدينة. ومتسائلة إن كان بعض الناس غيري يرونها هكذا؟!

إن كانت نوافذ أمستردام الشهيرة غير المغطاة بالستائر تكشف ما في الداخل، فإن الداخل يكشف غياب الخصوصية. بذلك يتم تأكيد متناقض لحق الخصوصية المقدس من خلال غيابه. وتمثل الشرفات الأمامية التي لا تتسع لأكثر من كرسي أو اثنين مكانا آخر لعرض مفهوم الغياب: فعندما يكون الجو حارا، يجلس المواطنون على تلك الشرفات في عروض حية يراقبون خلالها عروضا حية أخرى، حركة المرور، والماضي المتبختر. إن أمستردام خشبة مسرح دائم، لكن إذا كانت تتشارك في هذه السمة مع غيرها من المدن على الأرض، فإنها تختلف عنها في تلقائية الجهد الذي يبذله السكان في أدائهم على خشبة المسرح، من خلال تحويل نوافذهم إلى واجهات للعرض، والتنزه مشيا على الأقدام، أو راكبين دراجاتهم الهوائية. لقد فُتنت في البداية «ديزني لاند» الكبار هذه، ولكن سرعان ما وجدتها منفرة. ربما أنني أسقطت كوابيسي على هذه المدينة، وقرأت من خلالها معاني لم يكن لها وجود. ومع ذلك، تبقى الحقيقة أن أمستردام هي المدينة التي اخترتها للعرض على شاشتي.

إن كانت أمستردام خشبة مسرح، فقد كان لي دور مزدوج: فكنت المُشاهد والمؤدي، المراقِب، والمراقَب في الوقت نفسه. الماء، والسماء، وألواح زجاج النوافذ، طبقات منفصلة تعكس الواحد منها الآخر، فعند توقفي أمام نافذة فإنها تجبرني تماما على اختلاس النظر، فكنت ألمح صورتي تذوب في الداخل، والصورة على شاشة التلفاز، وصاحب المنزل يحملق في الشاشة من على كرسيه، والصور المنعكسة للمارة الآخرين. وإذا ما مررت بنافذة في المنطقة الحمراء، كانت صورتي المنعكسة تمر عبر وجه بائعة للهوى كظل. كانت كل الأشياء تعكس بعضها، وكل الأشياء اندمجت في بعضها، فصور المنازل المنعكسة في القنوات توحدت مع صور النوافذ المنعكسة في السماء. كنت أصاب بالدوار من مجرد التفكير في ذلك.

كان لبعض الأبواب الأمامية مرايا بارزة على قضبان معدنية هدفها تمكين النزلاء من رؤية من يقرع الجرس من دون أن يتمكن هو من رؤيتهم عند النافذة. وكثيرا ما كنت ألمح صورتي المنعكسة في تلك المرايا، ويتولد لدي شعور بأنني قد أنزلق من خلالها إلى عالم مواز، وأرتعب من فكرة أن أرى نفسي من الداخل متوارية خلف الستار، وأقرع جرس الباب.

مررت في أحد الأيام بمجموعة من السياح الأمريكيين الذي تحلقوا حول عازف مُسن متجول لأرغن متنقل، وعند سماعهم يتدفقون عليه وهم يهتفون «رائع» تذكرت ما يعادلها في الهولندية، كلمة «ليوك»، وأدركت أنها المفتاح لحل المشكلة. كانت «الليوكينية/ الروعة» مُطهرا، مبيدا للجراثيم يزيل كل

البقع، والكدمات، وتضع كل شـــيء على قدم المساواة، تجعل كل شـــيء مقبولا. كانت بالقـــرب من منزلي حانة للمثليين اســـمها «رأس الملكة»، معروض في واجهتها عشر دمى ذكرية، في عشرة مناظر. كان عرضـــا لـ «ليوك/الرائع». كلمـــا مررت به، تداعت إلى ذهني صور الدمية «باربـــي» الحقيقية من فتيات مولدافيا، وبلغاريا، وأوكرانيا، وبيلاروسيا، التجار، المتاجرين باللحم الآدمي لمن تم شراؤهم من أجل التصدير. كنت أفكر في اللحم الشرق-أوروبـــي المتجه فـــي رحلته الطويلة إلى الغـــرب. إذا عجزوا عن التقدم إلى منطقة صربية، أو بوسنية نائية، فسينتهي بهم الأمر إلى هنا. فكرت بهم، وفي المناظر الشـــرق - أوروبية للذين جاءوا إلى هذه الـ «ديزني لاند». كم كان كل هذا رائعا/ليوك! والشـــيء «ليوك/الرائع» يتخطى الخير والشـــر؛ المسألة ليست «الأخلاقي واللاخلاقي»؛ المسألة هي ببساطة: أقبله أو أرفضه، ليس إلا.

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام كنت شـــاهدة علي منظر طعنني كما لو كانت مدية اخترقت جسمي. كانت الشوارع لم تزل فارغة... مزقت صيحة الفجر البورسيليني تماما امرأة آتية في اتجاهي، تضرب بذراعيها، وتحكم قبضتيها في إشـــارة تهديد، وفمهـــا يقذف بكلمات ممزوجة بالأنين. لمحت قناعا مندمجا مع وجهها، قناع الألم. خلت عيناها من الدموع، محبوستين في نظرة محدقـــة كليلة، وكان فمها يميل إلى أســـفل. مـــرت من دون أن تشـــعر بوجودي، على الرغم من أنني كنت الكائن الحي الوحيد في الجوار. بدت كأنها تستذكر قائمة من الشتائم جمعتها طوال حياتهـــا. ومع أني لم أفهمها، غير أنهـــا اخترقتني في الصميم.

ما نال مني هو ذلك المزيج من صيحات الذعر القاتلة، والوجه الورقي المُعجّن الذي خلا من أي أثر للحياة.

ذات مرة في أثناء إحدى رحلاتي العصبية بالقطار، نزلت في لاهاي، وذهبت إلى زيارة مدينة «مادورودام»، حيث وجدت نفسي فعلا في قلب الاستعارة التي كنت أبحث عنها. إن «مادوردام» نموذج بالحجم الطبيعي لهولندا، إنها «ديزني لاند» هولندية. ضمت كل شيء، المدن، والمنازل، والقنوات، والجسور، وطواحين الهواء، وكل شيء حقيقي في الحياة: فالماء يجري، والأزهار تتفتح، والأعشاب تنمو، والقوارب تتكدس في الممرات المائية، والجسور ترتفع لتفسح لها في الطريق، والهواء يموج بالطائرات الهليكوبتر. كان هناك الناس أيضا: سائقو الحافلات والترامات الصغيرة، ورجال الشرطة، وحراس القطارات، والطيّارون، والمشاة، والأطباء، وأصحاب المتاجر والعاملون في المتاجر، والسياح، والأطفال، والكبار، والمسنون المتقاعدون، والمزارعون، ورجال الإطفاء. كان بها أيضا مطار بمدرجاته، وطائراته وأبراج مراقبته، وبواباته، والمسافرين. كان بها البرلمان الموجود في لاهاي، والكاتدرائية في أوتريتش. وكان بها سوق آلكمار للأجبان الشهيرة، ومتحف رايكس بأمستردام، وجسر روتردام، ومحطة قطارات جرونينجن، ومنارة جزيرة آميلاند... وفجأة ظهر أمام عقلي شيء: لقد رأيت نفسي جالسة على مقعد في متنزه «فونديل» كفراشة في ألبوم للصور، أو معبرة عن إعجابي بلوحة بحجم ظفر طفل في متحف رايكس. كنت أنتقل بعقلي من أمستردام إلى مادورودام، ومن مادورودام إلى أمستردام. وفجأة

أدركــت أنني أعيش في أكبر بيــت للدمى في العالم. رفضت أن أنظر عبر النافذة. ماذا سأرى؟ لا شيء سوى أوسع بؤبؤ عين في أوسع عين طفل.

بعــد ذلك قد أغيــر منظوري وتصبح أمســتردام «من أجمل مــدن الدنيا»، و«زهرة الصحراء». تخطــر ببالي رياح الصحراء وهي تســتوعب رمال الصحراء غير مبالية، وتطحنها بأسنانها، ثم تصقلها بألسنتها الملتهبة، وتخرج زهرة من الصخر. في الأيام الماطرة عندما تهبط السماء هبوطا كبيرا كأنها تلامس السطوح، تلف الزهرة الصخرية حلة داكنة بغيضة. لكن حين ترتفع السماء، فإن الزهرة تمتلئ بالضوء، وتشع ببريق، يتركني مبهورة الأنفاس.

في الجزء الأكبر كنت عدّلت نبضي على نبض المدينة، وتابعت حياتــي. كنت أذهــب إلى الســوق، وابتعت الســمك، والفاكهة، والخضار، وعينات مختلفة من الجبن الهولندي؛ وواصلت حضور أحدث الأفــلام؛ وراقبت النــاس في المقاهــي؛ وزرت المعارض والمتاحف. وأبدت الحياة طبيعيتها، واســترخيت من جديد. كنت أسكن في قلب مدينة أمستردام الذي، أو هكذا تراءى لي أحيانا، تدفــق نهرا من الحلوى أكثر مما تدفق من الدم. قد تكون غريزة البقاء هي الصمغ الــذي أبقى قلبي ملتئما، وجعلني أظن أن كل شيء كان «طبيعيا».

١١

نحن روادٌ،

جنود شجعان وحقيقيون.

ننبت على مر الأيام

مثل العشب من جديد.

واصلــت الاعتقاد بأنه كان لدينا الوقت لمعرفة الحقيقة، لكن الفصل الدراســي الأول انتهى قبل أن أدرك الأمر. وبما أن نهاية الفصــل تزامنــت مع عيد ميــلادي، اقترحــت أن نخرج جميعا ونحتفل بالمناســبتين معا. كانت لدي تذكــرة طائرة للذهاب إلى زغــرب، حيث يفترض أن أمضي أســبوعا قبــل العودة من أجل التحضير للفصل الدراسي الثاني.

اختار الطلبة حانة هولندية قديمة بالقرب من محطة القطار الرئيســية. كان أحدهم يعرف صاحبَ الحانةِ. كانت الحانة تكاد تكــون فارغة: فلم يوجد بها أكثــر من ثلاثة أو أربعة من الزبائن الدائمين جالسين عند المشرب، وهم سكارى.

قال داركو:«انظروا. سيكون المكان لنا فقط».

أحضرت ميليهــا علبة من الكعك البوســني الأصلي صنعته والدتها. قدم إيجور ونيفينا، وســليم (وجميعهم كانوا يعملون في الــوزارة)، قدموا لي مصنوعات جمعوها فــي أثناء العمل: قيدا لليدين مخفيا في حزمة من الأزهار الصفراء من إيجور، وطوقا من الجلد بمسامير معدنية من سليم، وسوطا أسود ملفوفا بورق

بنفسجي ومزينا بشريط أحمر من نيفينا.

قـــال إيجور وهـــو يقبل يدي: «عقبـــال المائة عـــام، يا رفيقة ماكارينكو! الآن لديك كل ما تحتاجين إليه».

سألت نفسي مستغربة، أين اكتشف إيجور ذلك الاسم، فعملا «ماكارينكـــو» عن الأحـــداث الجانحين في الاتحاد الســـوفييتي «الطريق إلى الحيـــاة»، و«قصيدة تعليمية»، قد نُسِـــيا منذ زمن طويل حتى في موطنهما الأصلي.

كانت جوهانكي قد ذهبت إلى متجر أطعمة معلبة بوسني في روتردام كي تشـــتري الأفاري المقدوني كثير التوابل، وشـــوكولاتة نبابوليتتكا المحشـــوة، وكيســـا من بن مينـــاس، وضعتها كلها في صنـــدوق ثم لفته وكتبت عليه: «صندوق الإســـعافات الأولية لمن يعانـــون الحنين إلى يوغســـلافيا»، قدم لي آنتـــي نبتة روزماري، وقدمـــت آنا نســـخة مـــن مبادئ القـــراءة الأولية ليوغســـلافيا ما بعد الحرب. تســـاءلت: إلي أي مسافات ذهبت لإحضار تلك النسخة... إلى أمستردام؟

حضر أيضا ماريو، وبوبان، وداركو، ويورش. وحتى آمرا، الأم الشـــابة، جاءت لفترة قصيرة، برغم أنها لم تحضر أي محاضرة في الفصل الدراســـي تقريبا. وقد حضـــر زول لمدة وجيزة، وهو الشـــخص الذي كان قد ادعى أنه يسكن مع أحد المثليين ليتجنب الطرد من هولندا، كذلك فعل لاكي، الذي كنت قد نسيته تماما.

أحضـــر آنتي آلة الأكورديون، بينما كانـــت أقداح البيرة ينفد منها الشـــراب وتعبأ من جديـــد ببهجة غامرة، شـــرع آنتي في التحدث عن إسهامه المعجز في الأغاني الوطنية، وأغاني المدينة

الشـــعبية، وأغاني الحب البوســـنية، وحفلات الرقص الصربية، والمقدونية، والقصائد الغنائية من مقاطعة ميديموريان، والطرب الدلماسي، ورقصات البولكا، وبعض الألحان المجرية، والغجرية. كان يعـــرف كل القديم المفضل: «إمينا»، و«بليانا تنظف الفرش»، و«يا لشـــعرك الشديد السواد، يا حبيبتي»، و«كنت زهرة»، و«كان لأبي مهريـــن»، و«فتاة بليتشـــا،» و«من فاردار إلـــى تريجلاف»، وحالما بدأت الموسيقى تحرك ذكرياتهم، سالت المقاطع والألحان الواحد تلو الآخر، وســـرعان ما بـــدأ الحضور التنافس على من يتذكـــر أكثر من الآخر. بدا الأمر كأنـــه برنامج مكثف في تاريخ الأغنية الشعبية اليوغسلافية. عرجنا على أعياد أوباتيا سنة تلو الأخرى: زدينكا فوتشـــكوفتش، وآيفو روبتش، ولولا نوفاكوفتش، ولادو ليســـكوفار، وزفونكو شبشـــيتش، وديـــوردي ماريانوفتش، وليوبكا ديميتروفســـكا... لقد استمتعنا كثيرا لمجرد نطقنا بتلك الأسماء بشكل جماعي.

«أتذكر عندما غنت لـــولا نوفاكوفتش: لم تأت قط لتقدم لي يدك، وردد اليوغسلاف بصوت عال من ورائها، طبعا لأن الجميع يعرف من الذي لم يأت».

«لا أعرف. من كان ذلك؟».

«لماذا؟ أيها الغبي! إنه كيون جويكوفتش».

تدخلت بينهما مقاطعة وســـألت: «ولكن كيف لك أن تعـــرف؟ لم يكن معظمكم قد ولد بعد».

أجابوا جميعا بصوت عال: «نحن لدينا جينات يوغـــســـلافية، يا رفيقة، أتذكرين ذلك؟ تلك الجينات تتولى الأمر».

كان آنتي يغذيهم بمزيد من الغناء، وكانوا يلتمسون منه المزيد: «أحسنت يا آنتي! آنتي، ماذا عن...».

وأخيرا وصلوا إلى أغاني «ديوردي بلاشيفتش» بين الحلوة والمرة، والتي كان يُظن أنها من الأغاني التي تنقص من الكآبة اليوغسلافية البائسة، ثم انتقلوا إلى أغاني «الروك» اليوغسلافية الشهيرة تاريخيا، مثل المؤشرات والأزر الأبيض، وآزرا. وفي أثناء إحدى فترات راحة آنتي، قمنا بجمع كلمات قسّم الرواد التي تقول: «أقسم بشرفي أن أحافظ على مكتسبات الوطن»، والنشيد الوطني اليوغسلافي: «أصغوا أيها اليوغسلاف! سيبقى صوت أجدادنا مدويا طالما بقيت قلوب أحفادهم تنبض بعنفوان»، الذي قمنا بإنشاده بلحن مقطعي جديد. جمعنا قائمة بكل الموسيقيين الذين كتبوا ألحانا نُعتت بالشعبية، وذاع صيتها في السبعينيات، والذين كتبوا اللون الموسيقي الشعبي الذي أعقبها. وقد ضحكنا بصخب حول أسخف المقاطع الهزلية:

اشترِ لي سيارة، يا أبي. وكذلك برتقالات.
أو اشترِ لي دبا صغيرا مباشرة من حديقة الحيوانات.
اشترِ لي أرنبا أو حلوى أو كرة.
لا، اشتر كل شيء . فأنا أريدها كلها.

بمجرد أن وصلنا إلى الأرنب، والغدير، حتى ولجنا طفولتنا الثانية. فذرفت نيفينا دمعة عند سماعها «والآن يبكي الأرنب المسكين وينتحب ...»، وتابعنا الحديث لنصل إلى التلفزيون

اليوغسلافي، فسردنا أولا وقائع برامج الأطفال: حرفا بحرف، وميندو وسلافيكا، ونيفين وقاطني الضباب، ثم أوائل المسلسلات الأمريكية «بيتون بليس»، و«داينستي»، و«دالاس»، وكذلك المسلسل البولندي كابتن كلوس، والمسلسل السوفيتي كابتن شتيتليتز، والمسلسل التشيكي مستشفى الضواحي. ومن هناك انتقلنا عائدين إلى عهد المغنية رادميلا كاركلايتش، التي كان من الممكن أن تكون أما أو جدة لنا، وعرجنا على أغنيتيها «زومبان زومبا، «سمكة القد المملحة»، ومررنا بكل النكات العرقية: النكات البوسنية (عن ميهو وميوجو، وفاتا وسوليو)، وتلك التي من مقاطعة فويفودينا الصربية (عن لالا)، والسلوفينية (عن جانيز)، ونكات الجبل الأسود، والدالاما، ومقدونيا. وقلدنا الطريقة التي يتحدث بها الألبان الكوسوفيون (لغتنا) (عندما أحب أقبّل، وعندما لا أحب أقتل)، وكل اللكنات المحلية. لم يكن بمقدور أحد إكمال جملة من دون تدخل شخص آخر. لقد كانت جلسة ثرثرة مطولة عن الحياة في يوغسلافيا. ظللت قلقة من أن تنفجر حقيبتنا البلاستيكية - ذات الخطوط الحمر، والبيض، والزرق - وتنفجر معها المؤسسة الجدية التي أسسناها لمتحفنا الافتراضي عن الحياة اليومية في يوغسلافيا.

و لم يتحاشوا الحديث عن الحرب أيضا.

(ثمة شيء خطأ جدا من أساسه في لغتنا، فهي بدل أن تقول: «الطفل نائم بارتياح» أو «الطفل نائم بعمق»، تقول: «الطفل نائم نوم القتيل».

«هذا هو الذي قاد إلى الحرب».

«ماذا تعني؟».

«إذا اعتقدت أن طفلك على وشك أن يذبح، فما عليك إلا سحب سلاحك وإطلاق النار مباشرة».

لم يعرف طلبتي أنني كنت سمعت الشيء نفسه من بعض المهاجرين اليوغسلاف، حتى أنهم ذكروا أن ذلك كان السبب الرئيس لتركهم وطنهم. (لماذا رحلت؟ لأن الأطفال في اللغات الأخرى ينامون النوم فقط، بينما أطفالنا ينامون نوم القتيل).

في تلك اللحظة شعرت بموجة من الشفقة تغمرني؛ في تلك اللحظة شعرت بالرثاء لهم، وأحببت كل شيء يخصهم، الطريقة التي ينظرون بها، والأشياء التي يقولونها، والطريقة التي يتحدثون بها عنها... كانوا هم أطفالي. وبينما كانت عيوني تتنقل بينهم، كنت التقط صورا فورية لأبرز ملامحهم: أصابع سليم الطويلة بشكل غير عادي، والناعمة، وطريقته العصبية في ضرب ذراعيه كالأجنحة، ووجه ميليها عندما تجتاحه ابتسامة كالزيت، والشق العميق بين حواجب آنا، الذي يكاد يكون وسمة، وجفون يوروش القلقة نصف المغلقة برموشه المبيضة، ورأس نيفينا الذي يلتوي التواء رابطة العنق قبل أن ترفع عينيها. كنت الوحيدة التي ليس لها صورة كاميرا فورية: فالمكان الذي حُجز لي على الطاولة كان فارغا، مجرد فجوة.

ارتفعت حرارة المجموعة كارتفاع رغوة البيرة. لا بد أننا جميعنا، فقدنا عقلنا مؤقتا. لم يكن لدينا فكرة أين كنا. في اجتماع للرواد؟ في مهرجان حزبي؟ في رحلة مدرسية ميدانية؟ وفجأة بسبب التناول المفرط للشراب، أو الإثارة المفرطة،

أو الإرهاق، أو شيء من الاسترخاء الجماعي - انفجرت ميليها في البكاء. حذا آخرون حذوها، أو شعروا بغصة في حناجرهم. تولد لدي إحساس بأننا شربنا الكأس حتى الثمالة، وبأنه بين لحظة وأخرى، قد تنقلب تلك اللحظة العاطفية للجماعة إلى شيء آخر.

وهذا ما حصل بالفعل.

يوروش، الذي كان من الواضح أنه شرب أكثر من الآخرين، وقف ونادى بأعلى صوته: «أرجو الهدوء من الجميع، أرجو الهدوء. سأقول شيئا».

بدا وجهه شاحبا، وترنح قليلا وهو يحاول التقاط نفس عميق.

في أرض فلاحين
في جبال البلقان
في يوم واحد
جاء موت شهيد
لمجموعة من الأطفال.
الكل أتى إلى هذه الحياة
في السنة نفسها.
الكل ذهب إلى المدرسة نفسها،
الكل حضر
الاحتفالات نفسها؛
الكل أخذ
اللقاحات نفسها،
والكل مات في اليوم نفسه.

اســتمعنا له من دون النطق بكلمــة واحدة. كان «آنتي» يعزف أغنية وطنية «جبل كونيوه».

وخمس وخمسون دقيقة
قبل تلك اللحظة المشؤومة
كانت مجموعة الأطفال
جالسة على مقاعدها
يجهدون في حل مسألة حساب صعبة
كم يستطيع المسافر أن يقطع
إذا مشى بسرعة...؟
وهلم جرا.

كان ذلك مشــهدا مؤلما من «حكاية دموية» للشاعرة «ديسانكا ماكســيموفتش» التي كانت تحفظهــا أجيال من تلاميذ المدارس عن ظهر قلب في يوغســلافيا الســابقة. كانت تلــك القصيدة مقررة في كل الكتب الدراســية والمختارات الأدبية، وكانت تنشد في «المناسبات الرسمية»، والاحتفالات والاجتماعات المدرسية. كانت تعالج حدثا وقع بالفعل، فالألمان أعدموا فعلا فصلا كاملا من التلاميذ في مدينة كراجويفاك ســنة ١٩٤١، ولكن القصيدة فقــدت قوتها نتيجة تكرارها المبتــذل، وتحولت مع مرور الوقت إلى محاكاة ســاخرة لا تعكس جوهرها. فسئم الناس سماعها. وبينما كان يوروش يجلجل في نشــيده، تذكرت صورة تلفزيونية لشــاعرة تبلغ من العمر تسعة وتســعين عاما، وهي ترتدي قبعة بحواف تكبر رأســها ثلاث مرات. كانت تجلس في الصف الأول

مصغيــة إلى خطاب «ســلوبودان ميلوســيفتش» داعيا للحرب، وكانت مشرقة، وتومئ برأسها مثل مشعوذ غريب أو كلب آلي.

حفنة من الأحلام نفسها.
والأسرار نفسها،
أسرار الحب وحب الوطن،
تقبع دفينة في جيوبهم،
وجميعهم كانوا يظنون أن لديهم
كل ما يحتاجون إليه من الوقت
ليجروا تحت القبة الزرقاء
و يضعوا حدا لمشاكل العالم...

بدأ طريق هذه القصيدة البريئة من حدث تاريخي: وهو إعدام مجموعة من الأطفال أثناء الحرب. وما إن جسدت القصيدة ذلك الحدث، حتى أدخلت في المقررات المدرسية. وبعد مرور خمسين ســنة على ذلك؛ تحول مغزى تلك القصيــدة المناوئ للحرب إلى عكســه: فالابتســامة التي منحتها تلك الشاعرة للزعيم القومي مثلــت دعما رمزيا للحرب التي كان يشــنها، وكل ما يتصل بتلك الحرب من معان. هنا في الحانة كانت أبيات تلك القصيدة تسيل من فم ذلك اللاجئ الشــاب مثل لعاب كريه. يســتحيل أن يكون الموقف أكثر ألما، وســوءا. لقد فقد «يــوروش» الغاية. على نحو مميت. ما إذا كنــا أصغينا إلى يوروش بدلا من اختلاس النظر، فلن يكون ســبب القصيدة، أو أداؤها هو ما صدمنا، بل الســبب

الحقيقي هو أن يورروش نفسه من صدمنا. لقد ثقب البالون الذي كان يجمعنا في الداخل، وتبخر حنيننا الجمعي واختفى. فانقلب سحر اللحظة إلى ذعر.

في صف أطفال تلو آخر
تشابكوا بالأيدي وغادروا الفصل،
ذاهبون من آخر حصة دراسية لهم
إلى كتيبة الإعدام مثل الخراف،
وكأن الموت لم يعنهم البتة.

وبعد إلقاء آخر بيت في القصيدة، انهار يورروش ساقطا في كرسيه. لم ينبس أحد ببنت شفة. كان الصوت الوحيد في المكان هو عزف آنتي الهادئ. أخرج يورروش ورقة نقدية من فئة خمسة وعشرين جيلدر، وبصق عليها ولطمها بجبين آنتي. سكنت آلة الأكورديون. أنزل يورروش يده وقبض بقوة على الكأس التي أمامه محطما إياها إلى قطع، ثم ضرب رأسه بالطاولة.

عندما رفع رأسه، رأيت نوافير من الدم تسيل على وجهه. سمعت صرخة مصدرها نيفينا، أو آنا، أوميليها. رأيت ماريو، وإيجور يرفعانه عن الطاولة ويسحبانه إلى الحمام. فقدت الإحساس وشعرت بانفصالي عن الواقع تماما. كان بمقدوري سماع الأصوات في المكان، ولكنها بدت آتية من بعيد.

-كان ذلك شبيها بفيلم بيتروفتش: «قابلت غجرا سعداء».

– ويورروش يؤدي دور بيكم فهميو.

- فهمي.
- منذ متى وأنت خبير بأسماء الشيبتار؟
- منذ متى وأنت تدعو الألبانيين بالشيبتار؟
- لماذا ينتهي «أهلنا» دائما إلى هذه المرحلة؟ لماذا نعمل دائما من الحبة قبة؟

بعد فتـرة عاد الجميع إلى وضعهم الطبيعي. بدا يوروش في وضع مقبول، فقد اعتنى إيجور، وماريو به جيدا، إذ مسحا الدم عن وجهه وضمدا الجروح بمساعدة من صاحب الحانة، ولفا يده بوشاح أحد الموجودين.

تلعثم يوروش قائلا وهو يغادر المكان: «آسف إن كنت...».

عندئذ عادت الأصوات إلى طبيعتها من جديد.

«أنتِ يا رفيقة! هل أنتِ بخير؟ تبدين شاحبة كأحد الأشباح».

كان ذلك إيجور.

أومأت برأسي وطلبت كأسا من الماء. ثم جاء النادل ودفعنا الحساب. وضعت الهدايا في حقيبتي. ثم غادرنا الحانة في صمت.

مررنا في وسط ضباب كثيف. بصعوبة كان يستطيع المرء أن يرى يده أمام وجهه.

«يا إلهي! ضباب شبيه بالظلمة!».

تمثلت استجابتي بأخذ عدة أنفاس عميقة فقط.

كان الطلبة ينظرون إليّ وهم يقفزون صعودا ونزولا ليحافظوا

على دفئهم، ومن ثم بدأوا في التفرق.

صاح ماريو من وسـط الضباب: «أشعر كأني في أحد أفلام جون كاربنتر».

قالت ميليها من أجل تهدئة الخواطر: «انظروا إليّ! لا تنزعجوا كثيرا مما فعل يوروش. الحفلات البلقانية لها نهايات بلقانية».

تمتمت: «أنا بخير. سأراكم بعد أسبوعين».

سألت نيفينا: «ذاهبة إلى زغرب لقضاء الإجازة؟».

«نعم».

«متى؟».

«غدا».

قالـت وهي تقبلني على خـدي: «أتمنى لك إجازة سـعيدة! أحضري بعض الشوكولاتة الطيبة من زغرب».

تواروا الواحد تلو الآخر في الضباب. وسـرعان ما بقيت أنا وإيجـور وحدنا. كنـت ممتنة عندما عرض إيجـور أن يوصلني إلى المنزل. حمل الحقيبـة وبداخلها الهدايا، وأخذته من ذراعه واتكأت عليه، إذ لم أزل أشعر بالضعف.

كان الضباب بكثافة حلوى شـعر غزل البنات. كان الألم الذي شـعرت به أثناء ما قام به يوروش في الحانة يتلاشـى تدريجيا أمام بهجة أمستردام وسحرها الطفولي.

همس إيجور: «الضباب يتماشى مع أمستردام، أليس كذلك؟».

«لماذا تتحدث هامسا؟».

رد مرتبكا: «إنه الضباب».

نظرت إليه. وجدت ارتباكه مؤثرا. كان الضباب مثيرا. أشبه بتخيل طفل عن اختفائه في الأثير الرقيق. الآن أنت تراني، الآن أنت لا تراني. ذلك مغر ومرعب في الوقت نفسه، مثل قبعة الإخفاء في الحكايات الخرافية الروسية.

قال مستفسرا: «ما الأمر؟ لماذا تنظرين إليّ هكذا؟».

«يا لك من طفل رائع!».

«أنتِ الطفلة! أراهن أنه ليس لديك فكرة أين أنتِ».

«ذكرني».

«في بلدة ماكوندو الخيالية».

«لماذا ماكوندو؟».

«أتذكرين كيف أن الجميع في تلك البلدة توقفوا عن النوم فجأة وفقدوا ذاكرتهم تماما؟ لذا كان عليهم أن يلصقوا على الأشياء أسماءها، وكيفية استعمالها لمعرفة التعامل معها. أتذكرين أيضا كيف اخترع آركانديو بويندیا آلة الذاكرة؟».

بدا كل شيء من حولنا ساكنا. لم يعد هناك المزيد من الحواف الحادة. كل شيء كان ناعما، الأصوات، والتعبيرات، والأضواء. كل شيء هادئ، في مستوى منخفض، ويحبس أنفاسه. كان علينا عمليا أن نتلمس طريقنا عبر الضباب. كل شيء كان وهميا.

«كلا، لا أتذكر».

«أتذكرين من أنقذهم؟».

«كلا، لا أتذكر».

«ذلك الغجري ميلقوديادس، الذي عاد من عالم الأموات وأحضر لهم ماء محلى بالسكر في زجاجات صغيرة».

«كوكا كولا؟».

رأيت رجلا بعينين ســوداوين، لامعتــين، مائلتين ميلا خفيفا تحملقان فيِّ من خلال الضباب. كانت شــفتاه الكبيرتان رطبتين ومنتفختين، وكان جسمه مشدودا كوتر . بدا كأنه يرتجف.

بدت صورة تبزغ في ذهني كأنها من ماض تم نســيانه. رأيت نفسي متعبة، (...).

قلت لاهثة وأنا أنسل إلى مدخل منزلي: «تصبح على خير».

الجزء الثاني

اتصلت بي قائلة: «ســأحضرك من المطار»، أجبتها: «لا تكلفي نفسك. سآتي بسيارة أجرة». لكن عندما نزلت من الطائرة، شعرت بوخزة خيبة الأمل: لأنني لم أر وجهها هناك. جال في خاطري، أن الدولة الأجنبية هي الدولة التي لا يستقبلك فيها أحد في المطار. كنت مندهشة من حساسيتي هذه: فهي طفولية إلى حد كبير. ولم يكن لدي الوقت لأرتدي ترسا يحميني من ذلك.

أقسمت أن أكظم كل «عواطف المهجر»، لقد كنت مدركة لقائمة الشكاوي المألوفة، «لا أحد يستفسر عن حالنا، فهم يتحدثون عن مشــاكلهم فقــط» (ماريو). «نحن» من غــادر الوطن، و«هم» من بقي هناك، «فهم» يعيشــون «هناك»، ونحن نعيش «هنا»، «إنهم» الأكثر معرفة بالأمــور. وهم يقاطعوننا بمجرد أن نفتح أفواهنا، إذ إن لديهم رأيا في كل شيء. (داركو). «لماذا ينبغي أن يكون لهم رأي في كل الأمــور؟»، «عندما يتحدثون يعطــون الانطباع أنهم يعرفون أمستردام أكثر منا، على الرغم من أن أقدامهم لم تطأها قط» (آنتي). «لا يتوقفون عن الشــكوى من سوء الأمور عندهم، ومحاولة جعلي أشــعر بالذنب لتركي الوطن» (آنا). «كلما عدت إلى الوطن، أشــعر وكأني أشيع جنازتي» (نيفينا). «أشعر وكأني كيــس للتدرب علــى الملاكمة، إذ أتوجع في كل أنحاء جســمي» (بوبــان). «اعتدت أن أمثل شــخصية بابا نويل وأحصل على كم هائل من الهدايا. كان ذلك يســعدني. أما الآن، فالأمور مختلفة» (جوهانكي). «لا أعرف كيف تسير الأمور هناك، فأنا لم أعد إلى هناك ولا توجد لدي الرغبة للعودة» (سليم). «لم أعد إلى هناك أيضا، فأنا أخشى من المواجهة» (ميليها).

تركت أمي باب شـــقتها مواربا. تأثــرت بعمق تفكيرها: فقد كانـــت تنتظرني على أحر من الجمر، وتخوفت من عدم ســـماع رنة الجرس، أو من مشقة البحث عن المفتاح في مكان لا تتذكره، ومـــن ثم الجري نحو الباب الذي قد لا ينفتح بســـهولة: فأنتِ لا تعرفين متى سيعلق القفل.

رمت بنفســـها بين ذراعي كطفل. («يا إلهي! تبدين كالخيال! أين تعيشين؟ في بنغلادش؟ لا، أنت تعيشين في دولة تزود العالم بالطماطم. بالمناســـبة، مذاقها ســـيئ؟»)، أجلســـتني إلى طاولة المطبخ وبدأت تتحدث عن الأطباق التي حضرتها («لا، لا سأضع ذلك في طبق لك، لا تتحركي»)، وما إذا كنت أريد ملحا أو المزيد من هذا أو ذاك.

بـــدت أقصر وأكثر ضعفا مما كانت عليه في آخر مرة رأيتها. زادت تجاعيدها وبدأت تفقد الشـــعر في أعلى رأســـها. مجرد رؤية أعلى رأسها من خلال شعرها الأشيب الخفيف المتناثر أثار حنانا مؤلما في نفسي. يا إلهي، كم تقدمت في العمر!

كانـــت لأمي موهبة فطرية في تحويل الناس إلى مراســـليها. فعلت ذلك مع كل من كان حولها - معي، ومع أهلها، وأصدقائها - ولـــم يعترض أحد ولو بكلمة واحدة. لقد كنت صفحة صغيرة، مطيعة في بلاطها، أو على الأقل هكذا نظرت إلى نفسي. اعتادت أن تمطرني بـألفاظ محببة من أســـماء الدلـــع - فكنت «نحلتها الطنانـــة»، و«فطيرتها بالتفاح»، و«ضفدعتها الغنية»، و«أنســـتها الســـمكة» - لكنها لم تخصص لي وقتا كافيا قط. كانت تراقبني طوال الوقت، ذلك كل ما في الأمر: فهي لم تكن تعيرني اهتماما،

بل كانت تعتني بـــي. وبالرغم من أنها غالبا ما كانت تتركني في رعايــة الآخرين - من الطلبة، وربات البيوت من الجارات، وفي الرعايــة النهارية مع «الخــالات»، فإنني كنــت دائما أنضم إلى «النشاطات التي تعقب المدرســة»، وكنت أنتظرها بفارغ الصبر لتأخذنـــي. في إحدى المرات نســيت أن تأخذني من مستشــفى حيث أجريت لي عملية بسـيطة. أتذكر جلوســي على الســرير طوال الليل، مرتدية كامل ملابســي، متظاهرة بالشجاعة، بينما كنت أتقطع مــن الداخل: متخوفة من عــدم رؤيتها مرة أخرى. جاءت في صباح اليوم التالي. رفضت أن تدعني «أهوِل» من هذا «العبــث»، وفي آخر الأمر، تربي عنــدي التعود على تدبير الأمر مــن دونها. كنت قد أصبحت «ضفدعة أمي الغنية المعتمدة علي نفســها»، لقد كانت تكد في العمل. كانت عالمة اقتصاد، وانتهى بها الأمر مديرة لأحد البنوك. كانت أيضا تتنقل جيئة وذهابا بين العديد من العشــاق الثابتين، وزوجين. وفي خضم ذلك كله كنت أنا - صغيرة أمها التلميذة الذهبية - و«كنز أمها الوحيد».

والآن كانت تتابع الحديث بابتهاج مصطنع عن الجيران الذين لم تعرهم ســابقا أي اهتمام البتة، والأقــارب الذين لم تتحدث عنهم ســابقا قط، وعن أناس لم أسمع بهم من قبل إطلاقا. كان هذا التقرير الطويل، والمفصل، طريقتها في ملء الفراغ، وإخفاء حقيقة أنه لــم يعد لديها إلا القلة القليلــة من الأصدقاء، وكان طريقتها في إبعاد شــبح الموت، وتجنــب مواجهة حقيقية معي، وتخفيــف الألم الناتج عن زيارتي، التي هي بمنزلة بداية لرحيل وشيك، ومحو الزمن الذي انقضى منذ زيارتي الأخيرة - خلاصة

القول، كانت طريقة «لوضع الأمور في نصابها»:

«هل تذكرين السيد شارتش في الطابق الثاني؟ لقد مات أخيرا».

«ما سبب موته؟».

«سكتة قلبية».

«يؤسفني سماع ذلك».

«وعائلة بوشيفيتش في الطابق الثامن - لقد فقدوا ابنهم».

«ما الذي حدث؟».

«كان حادث سيارة. لن تستطيعي التعرف على السيدة بوشيفتش. تبدو أكبر من عمرها بعشرين عاما، إذ غزاها الشيب بين ليلة وضحاها. ولكن أصغي إلي، فأنا لم أخبرك إلا بالأشياء الحزينة، ومازال في جعبتي أخبار سارة أيضا.

لقد كانت تختبرني، وتجس وضعي العاطفي. هل سيكون ذلك مقبولا أم سيكون عليها أن تؤنبني؟ («أنت لا تعيرين جيراننا أي اهتمام»، وكأنها كانت تفكر بهم طوال الوقت). لقد جاء هذا الاهتمام بالمشاعر مع التقدم بالعمر، فهي اعتادت أن تهزأ من الذين يعبرون عن عواطفهم.

انتصبت وغادرت الغرفة لبرهة قبل أن تعود بكراسة في يدها. وبفرحة طفل يريد أن يعرض لعبته الجديدة ناولتني دفتر «مذكراتها»، بدت في معظمها مجموعة من الأرقام.

«ما هذا؟».

«مذكراتي».

«ماذا؟».

«معلومات يومية عن مستوى السكر، فأنا مصابة بمرض السكر. على أن أقيس مستوى السكر يوميا».

«هل تعانين من ذلك كثيرا؟».

«إلى حد ما. لكنني مواظبة على إبر الأنسولين».

«لماذا؟».

«يقول الطبيب إنه من الأفضل أن أبدأ بجرعات صغيرة بدل الانتظار حتى تظهر الحاجة إلى جرعات كبيرة».

كانت تتحدث عن المرض بدرجة عالية من الحميمية والتفهم والاهتمام، وكأنه كلب أو قط أليف تقتنيه في المنزل. كانت تشير بإصبع منتفخ قصير إلى التواريخ المختلفة مفسرة لماذا قفز مستوى السكر في بعض الفترات بينما عاد إلى المستوى الطبيعي في فترات أخرى.

قالت: «سأريك كيف أقوم بقياسه». ثم أضافت على عجل: «كم ستقضين هنا؟»

«أسبوعا».

قالت وهي تزم شفتيها: «ستكونين مشغولة جدا».

«ماذا تقصدين؟».

«عليك أولا أن تحصلي على بطاقة هوية جديدة لسبب واحد. يوجد نظام جديد. طوابير الانتظار رهيبة. يقف الناس طوال اليوم. كنت قد أغمي علي تقريبا أثناء قيامي بذلك. ثم عليك الذهاب إلى محام بشأن شقتك، وعليك أيضا الحصول على بطاقة جديدة للتأمين الصحي. هناك نظام جديد لهذا أيضا. إنهم يغيرون القوانين باستمرار».

أجل، فهذه الثرثرة المستمرة تعد إشارة إلى أنها تعلمت كيف توظف الكلمات كقناع تغطي به خوفها، على الرغم من الغموض الذي يلف ذلك.

عندما فتحت الدرج في خزانة الأواني الصينية لتريني شكل الهويات الجديدة، رأيت صورة لي ولجوران في برلين، في المكان الذي احتفظت فيه بصور العائلة.

قالت وهي تتابع نظراتي: «ينبغي أن تقومي بزيارة والدي جوران. إن ماركوس ليس بحالة مطمئنة».

نظفنا طاولة الطعام وغسلنا الأواني. ثم فتحت الحقائب وأعطيتها الهدية التي أحضرتها لها، وهي معطف شتوي للاستخدام داخل المنزل، وأخفاف. وأثناء وضعها للمعطف في خزانة الملابس، أرتني الملابس التي ابتاعتها منذ آخر مرة رأيتها.

«لقد ابتعت عددا ليس بالقليل من الأشياء الجديدة، وليس عندي أي مكان أذهب إليه لأتباهى بها». تنهدت قبل أن تقول: «ارتديت هذه القطعة مرة واحدة فقط، في عيد ميلادي».

بعد ذلك جلسنا نشاهد المسلسل التلفزيوني البرازيلي. كانت أمي تحاول دون جدوى أن تجذب انتباهي إلى قصة المسلسل. كان جلوسها أمام الشاشة لساعات طويلة ومتابعتها لمصير ماريسول، وكساندرا أو أيا كانت الأسماء - كان ذلك مثله مثل الثرثرة، استراتيجية للدفاع عن الذات. كان لديها ثلاثة أجهزة للتلفاز - واحد في غرفة النوم، والثاني في غرفة المعيشة، والثالث في ما سمته «غرفة الضيوف»، هذا الانغماس الكامل في عالم المسلسلات التافهة، هذه الهستيريا، والغيبوبة التلفزيونية، وهذا

الرفــض المطلق لمواجهة الواقع، كلها جــاءت مع الحرب، عندما انسل الواقع خفية إلى داخل المنازل على شكل ترجمات تلفزيونية تافهة، بل إنها أكثر تفاهة من كلام «ماريسول» أو «كساندرا» في أدوارهما. تلك كانت كامل المســاحة التي سمح بها، إذ أصبحت المسلسلات التلفزيونية الماء الذي استخدم في إطفاء نار الخوف، والذي كان ينبغي اســتخدامه مرتــين يوميا في معية الأصدقاء، ليعطي مفعوله. كانت أمي تشاهد المسلسلات في معية اثنتين من جاراتها: فاندا، والســيدة بودين، إذ أصبح ذلك المخدر البرازيلي إدمانا بالنسبة لهن.

غدت أمــي، التي كانت تنكمش عند مجــرد التفكير بالتودد للجيــران، لا تســتطيع التوقــف عــن التحدث عنهــم، وأصبح بمقــدوري معرفة مكانتهم العاطفيــة عندها من خلال طريقتها بالإشــارة إليهم. فإذا ما أشارت إليهم «بالســيد»، و«بالسيدة»، («تقول الســيدة فرانســيتش في الطابق الخامــس إن البترول الكرواتي قــد بيع إلى الأمريكان»)، أعــرف أن لها علاقة طيبة بهم. وإذا ما أشــارت إليهم «بجيراني» («جارتي فاندا متشــوقة لرؤيتك»)، أعرف أن لها علاقة حميمة بهم. أما إذا أشارت إليهم باسم العائلة فقط («ماركوفتش في الطابق الثالث في حالة سكر طــوال الوقت»)، أعــرف أنهم من غير المحببــين لها. لقد كونت تدريجيــا عائلة لها من الناس الذين حولها. («قد لا يكون هناك أشخاص ذوي شأن، لكن المتسولين لا يمكن أن يختاروا. ليس لمن في عمري. فإذا ما حدث شيء لي، فسيكونون موجودين حولي، بينما أنت»)، كان ذلك أهــم اتهام يمكن أن توجهه لي، فوالداها

قضيا منذ زمن بعيد، وشـــقيقها مات منذ عشر سنوات، وزوجها قتل في بداية الحرب، ثم جاء سفري لأبقى بعيدة عنها.

كانـــت تصدق أنها لم يعـــد لديها آراء، وهـــي التي كانت في الماضـــي لها رأي في كل شـــيء. بينما كانت فـــي الماضي لا تعير اهتمامـــا كبيـــرا لآراء الآخريـــن، بدت الآن شـــغوفة بها («تقول السـيدة فيريتش إن أمســتردام أصغر من زغرب»)، طبعا، كان الأمر تمثيلية برمته. كان الأمر وكأنها تجلس في كرسي متحرك غير مرئي، طالبة الاحترام لحالة إعاقتها، ومانحة رضاها عمَّن يتجاوب معها.

قالت: «ســتأتي فاندا في الســاعة الخامســة. ربما تريدين الاستحمام وتغيير ملابسك».

امتثلت فورا للذهاب إلى الحمام للاستحمام وتغيير الملابس.

بينما كنا ثلاثتنا نشـــرب القهوة، تلـــت أمي على فاندا تقريرا مشوقا حول حياتي في أمستردام.

تقول تانيكا إن أمســـتردام واحدة من أجمل مدن الدنيا. لقد شاهدت أخيرا برنامجا تلفزيونيا وثائقيا عنها، وأستطيع القول إنها أجمل حتى من مدينة البندقية.

تانيـــكا تقول هـــذا، وتانيكا تقـــول ذاك. مثـــل الأمر طريقة للتواصل معي وطريقة لمتابعة الدردشة مع فاندا على حد سواء.

بعـــد أن ذهبت فاندا، تجولت في الشـــقة. امتدحت الخزانة الجديدة فـــي الحمام ولفت نظر أمي لضرورة فعل شـــيء فيما يتعلـــق بالبقع الصفراء في ســـقف الحمام. رفعت رأســـها. كان الســـبب تسربا من حمام عائلة آيفتش، ولم يكونوا في عجلة من

أمرهم بشـــأن إصلاحه. هكذا كان الناس في الماضي، ومازالوا كذلك، فهم يتسببون بالإيذاء، ثم ينكرون أي علاقة لهم بذلك.

قلت: «سأتولى أمر هذه المشكلة».

تـــوردت تقريبا من الفرح، وكأن عرضـــي عرض للزواج. فأنا من سيتولى الأمور، وأقوم بما ينبغي القيام به، أعتني بها. («لقد جاءت تانيـــكا وتولت الأمور، شـــكرا لله. شـــكرا على أي حال، فتانيكا هي من ستتدبر الأمر»).

شـــاهدنا نشـــرة الأخبار وتحدثت لي بإســـهاب عـــن كل ما يتعلق بالتلفاز: عن مذيعة الأخبار، وعن المقدم الشـــهير لبرنامج المسابقات، وعن المسلسلات الجديدة.

قالت: «أنت منقطعة عما يجري بالكامل. يبدو وكأنك قد غبت مائة عام». لم تكن تلك تهمة، بل حجة من أجل ولوج حديث مطول. وقد كانت محقة. فأنا كنت منقطعة تماما عن مشـــاهدة التلفاز. على الأقل بدت الحياة على شاشة التلفاز مختلفة بالكامل.

تنهـــدت فجأة: «لا أعـــرف ماذا أفعل. لقـــد ارتفعت تكاليف الحياة كثيرا. ليس لدي إلا ما أتقاضاه من راتب التقاعد الضئيل، وينتابني القلق حتى حول مقدرتي علي تدبير الأمور. وقد أضطر لبيع الكوخ الريفي».

«امض في الأمر».

سألتني: «تقصدين أنك لن تنزعجي من ذلك؟».

كانت تختبرني مرة أخرى.

أجبتها: «لا يمكنني القول إنني لن أنزعج. لكن افعلي ذلك إن كنت تعتقدين أنه الحل المناسب».

«لكنه لك!».

قلت :«كلا، إنه لك أنت».

«إنــه يقبع هنــاك طوال فتــرة الصيف دون أن نســتخدمه. اعتقدت أنك وجوران ســتعودان يومــا وتحتاجان إلى مكان على البحر، مكان تقضيان فيه الصيف معا. لكن هذا الكلام لا يجدي نفعا الآن. أكره أن أرى ذلك الكوخ قابعا هناك هكذا».

كانت تزين القصة بعض الشــيء. فأنا وجوران لم نســتخدم ذلك الكوخ إلا نــادرا. كانت العائلة هذا الوتر الذي طالما عزفت عليــه. هي من كانت تقضي الصيف تلو الآخر هناك مع زوجها، حتــى جاءته الأزمــة القلبية وهما في الكوخ، وقد نأت بنفســها عــن المكان منذ ذلك الوقت. في الحقيقة يقبع الكوخ هناك لهذا السبب فقط.

بعــد المزيد مــن الحديث عن التلفــاز مرة أخــرى، وارتفاع الأســعار، قالت إنها متعبة، وذهبت للنوم. سرعان ما غرقت في نومها مثل طفل. أطفأت التلفاز والنور وذهبت إلى غرفتي، وهي «غرفة الضيوف».

وضعت وشــاحا صوفيا يعود إليهــا على كتفي وخرجت إلى الشــرفة، ورحت أحملق في الظلمة. فكرت بالنزر اليسير الذي بقــي مني في هذا المكان، بعــض الصور، وبعض الملابس، ليس إلا. الأمــر ليس أن ذلك أوجعني. لماذا ينبغي أن أتوقع أكثر من ذلــك؟ لطالما نلت مجرد النزر اليســير عندمــا كنا نعيش معا: فهي من كانت تحصل على حصة الأســد، وكنت دائما أحشــر في زاوية ما.

والآن أنا موجودة في شظايا مجمدة تم اختيارها بعناية. هي من لها السـلطة المطلقة في محيطها، فهـي ترتب وتعيد ترتيب المحتويـات وكأن الحيـاة معرضا للصور. كان سـبب احتفاظها بصورتي مع جوران هو إبقاء العلاقة حية، فهي في دورها كمدير لأموال العائلة رفضت أن تعترف بانفصالنا.

نعم، لقد عدت إلى «المنزل»، ومازلت أمضغ ذلك الشعور مثل قطعة علك قديمة في محاولة لاستخراج آخر ما بقي من نكهتها. «المنـزل» لم يعد «المنزل» الذي أعرفه، فكل ما بقي منه هو أمي. لم يغب جوران فقط، بل أصدقاؤنا أيضا. العديد منهم رحل إلى أماكن بعيدة في العالم، ومن بقوا لم يعودوا بعد أصدقاء. لم يكن لي أو لهم أي خيار في ذلك، فالأمر حدث وحسب.

متفحصة المباني التي بدت وكأنها تنظر إلى انعكاسها في مرآة الماضي، حاولت أن أفرغ ذهني. استمتعت بغرقي في الظلمة. ثم آويت إلى الفراش جارة وشاح أمي ورائي. غرقت في النوم ضامة ذلك الوشاح بين ذراعي وكأنه لعبة «الدبدوب».

قالت ميليها: «بعد رحيلي، لم أستطع حقا أن أربط الأمور معا بتاتا. لم أكن متأكدة من الوقت، أتعرفون ما أقصد؟».

كان الزمن بالنسـبة إليهم مقسـما إلى ما «قبـل» وما «بعد» الحرب، وبينما كانت باسـتطاعتهم إعادة تشـكيل فترة «ما قبل الحرب» دون صعوبة، فإن فتـرة «ما بعد الحرب»، والتي ضمت الحرب نفسـها، كانت فوضى تامة. كانت أبسـط الأسئلة كفيلة بجعلهم يتعثرون.

«هل تعني متى غادرت الوطن؟».

تلك كانت الطريقة التي وضعوها، مختزلين، الأمر للقاسم المشترك الأدني.

«بالضبط».

«حسنا. لم آت إلى هنا مباشرة».

هذا ما حدث أولا، أم ذاك. بداية فعلوا ذلك وذهبوا هناك، وبعد ذلك جاءوا إلى هنا، إلى هولندا. خلت قصص المنفى من التاريخ. كانت التواريخ تسترجع بسهولة أكثر باللغة الهولندية لكثرة طلبها من المسؤولين الهولنديين. «متى أول مرة دخلت فيها إلى هولندا؟»، وعلى الرغم من درجة إتقانهم العالية للإجابة عن ذلك السؤال، كان المضمون الكامن وراءه يهرب منهم. كان «ما بعد الحرب»، زمنا أسطوريا حيث لم يعد هناك فرق إن مر مائة عام، أو مائتان، أو ثلاثمائة. باختصار، لقد حدث الكثير من الأشياء في فترة «ما بعد الحرب»، فجنت ساعاتهم العقلية في ظل التوتر. كل شيء جن، كل شيء تصدع، وقطع أربا. انقسم المكان والزمان إلى ما «قبل» و ما «بعد»، وحياتهم إلى «هنا» و«هناك»، أمسوا فجأة دون شهود، ودون والدين، ودون عائلة، ودون أصدقاء، وحتى دون المعارف اليوميين الذين نعيد تشكيل حياتنا في ضوء وجودهم باستمرار، وبافتقارهم إلى هؤلاء الوسطاء الفاعلين الحقيقيين، أعيدوا إلى أنفسهم.

كان الشعور الذي تولد عندي لدى دخولي الغرفة هو أنهم أوقفوا عقارب الساعة بكامل إرادتهم. لقد حاولوا إغرائي بولوج عالمهم من أجل تأجيل مسألة التفكير بالموت. لكن الموت كان

يحيــط بهم من كل صوب، لقد كان شــبحا متواريا. حتى الهواء نفسه كان ينفث رائحة الموت الكريهة.

كان بابا (والد جــوران) يرتدي بيجاما، وبرنس حمام متجعد مفكوك الحزام. برز أنبوب للقسطرة من سحاب البيجاما المفتوح. أدهشــني ما يرمز إليه ذلك من أنه لم يعد يســيطر على نفسه. بالكاد اســتطعت أن أعرفه بجسمه النحيل، ووجهه غير الحليق وبشرته الشاحبة، والبقع الســوداء الدائرية تحت العينين. بدت مامــا (والدة جوران) في وضع أفضل منه، إذ كانت ترتدي بلوزة جميلة، وزينت شــفتيها بأحمر الشفاه. لقد تأثرت بمحاولتها أن تريني أنها على الأقل لم تزل تمسك بزمام الأمور.

كنــت أناديهما بمامــا وبابا. عملت أولجا، وماركو في ســلك التعليم. جــاءت ولادة جوران في مرحلــة متأخرة من زواجهما. تخرج بابا فــي كلية تدريب المعلمين قبيل اندلاع الحرب، وانضم إلى الثوار. بعد انتهاء الحرب حصل على وظيفة مهمة في وزارة التربية الكرواتية. في العام ١٩٤٨ ارتكب زلة لســان سياســية، ومثــل كثيرين غيــره، تم ترحيله إلــى جزيرة «جولــي أوتوك»، الجزيرة القاحلة، حيث قضى ثلاث ســنين في الأشغال الشاقة. وبعد إطلاق سراحه، أرسل إلى مدرسة ابتدائية في قرية صغيرة نائية. لم يســتطع العــودة إلى «زغــرب» إلا عندما دخل جوران الجامعة.

تميز بابا دائما بالإيجاز، والتحفظ، فقد تعلم في تلك الجزيرة كيف يبقي فمه مغلقا. كان ذكر معســكرات الاعتقال، وفظائعها محرمــا حتى الســبعينيات، ولم يقل عنهــا الكثير حتى في تلك

الفترة. لذا، لاذ بابا بالصمت طوال حياته تقريبا. ومع ذلك، كان مستمعا جيدا، ويطرح الأسئلة المناسبة. لم يكن يستعرض في حبه لجوران إلا قليلا، بدا وكأنه ترك تلك الوظيفة لماما. أعتقد أنه قد أحبني أيضا، بطريقته الخاصه.

فجأة لم يكن بمقدورك أن تحصل على كلمة واحدة من جانبه، فهو يتحدث من دون توقف طارحا الأسئلة ومجيبا عنها في الوقت نفسه.

«سمعت أنك تقومين بالتدريس. هل لديك العديد من الطلبة؟ مازلت أحاول إحصاء عدد التلاميذ الذين علمتهم خلال الثلاثين سنة التي عملت فيها كمعلم، وهذا ينسحب على أولجا أيضا. لا أستطيع أن أحدد كمية الوقت الهائل الذي صرفناه في ذلك، وصدقي أو لا تصدقي أننا لم نصل إلى أي نتيجة. لذلك قلت لأولجا، يا أولجا، إن لدينا عالم رياضيات في العائلة، أليس كذلك؟ اكتبي إليه واطلبي منه أن يقوم بالحسابات».

قالت ماما: «دعك من ذلك الآن. ثم التفتت نحوي وسحبتني قائلة: «تعالي وساعديني في المطبخ، من فضلك يا تانيا!».

همست: «الآن ترين كيف تجري الأمور هنا».

لم أعلق على ذلك.

«كلام، كلام، كلام. من دون توقف. لقد توقفت عن الإصغاء له».

«لماذا يستخدم أنبوب القسطرة؟».

«لا تسألي. إنه مجرد... أحضري البسكويت من حجرة المؤن، من فضلك!».

لقـد تأثرت برغبتها في مشـاركة أسـرارها معي. فتحت أبواب الخزانة التي بجلتها باسم «حجرة المؤن»، أدهشني وجود غـلاف مجلة ملصق بطريقة يعوزها الإتقان على الباب. ظهر في الغلاف صورة تيتو في زي الماريشال. كنت أعتقد أن ماما وبابـا يكرهان تيتو بالرغم مـن أنهما لم يصرحا بذلك. والآن نجد «شانق» بابا مسترخيا في النعيم بين مؤنهم المتواضعة من أرز، ودقيق، وبصـل، وبطاطس. لقد قرروا أن يعيدوا تأهيله، في حجرة ماما للمؤن. من الواضح أنهم كانوا يفضلون سنوات حكم تيتو على الوضع الحالي، بالرغم من أنهم لم يجرؤوا على التصريـح بذلك علنا، تماما مثلما لـم يجرؤوا على التصريح بالعديد من الأشياء في عهد تيتو. سألتها وأنا أنزل الصندوق المعدني الـذي يظهر عليه صور الكعك: «متـى بدأت الثرثرة القسرية عنده؟».

«لا أسـتطيع تحديد ذلك، فقد بدأ بالتدريج. لكن أخيرا كان لا بد من أن ألاحظ ذلـك. فهو يتحدث للجدران عندما لا أكون في الغرفة. إنه يسـتمر في الكلام، ليـس إلا. لم يعد بمقدوري تحمل ذلك. هذا يتجاوز قدرتي، فقد سمعته ألف مرة، حتى إنني أتخيل سماعه يتمتم في نومه»، قضمت شفتها وأضافت: «أتمنى أن ينتهي هذا في أقرب وقت».

«مـاذا عن جـوران؟ هل يعـرف بهـذا الأمر؟ كيـف حاله، بالمناسبة؟».

«يمكنك الاطلاع على رسائله إن أردتِ».

«لا. ما نفع ذلك؟».

غادرت الغرفة لبرهة، ثم عادت وبيدها صورة.
«ينبغي ألا أريك هذا، ولكن ربما من الأفضل أن تعرفي».
ناولتني الصورة التي ظهر فيها جوران مع امرأة يابانية.
قلت: «جميلة».
قالت بارتياح: «اسمها هيتو. أنا وبابا ندعوها تيتو، على سبيل المزاح. تبدو جميلة، أليس كذلك؟».
عندما نظرت إلى الصورة مرة أخرى، شعرت بوخز من الغيرة.
تنهدت ماما.
«الحياة تستمر يا تانيا. لكن ليس لنا، فقد عشنا ما يكفي. لكن أنتم أيها الشباب تستحقون حياة أفضل، تخبرني أمك أنك على خير ما يرام في أمستردام».
«إنني كذلك».
«كنتِ دائما الأولى في صفك».
شعرت بأنها أرادت قول شيء آخر - قول، أنها كانت «بجانبي»، لكنها لم تستطع أن تجد الكلمات للتعبير عن ذلك.
«حزن جوران كثيرا عندما رفضتِ الذهاب معه».
«أعرف ذلك».
«الزمن يداوي كل الجراح، لحسن الحظ».
ظهر بابا عند الباب.
«ما الأسرار التي تتحدثان عنها هنا؟ لا أحب أن أترك وحيدا. وماذا تقصدين بقولك «الزمن يداوي كل الجراح»، «أنتن أيتها النسوة تتعلمن شيئا ما وترددنه كالببغاء في كل مكان. الزمن لا يداوي الجراح، إنه يصنعها».

قالــت له، وكأنهــا تتحدث إلى طفل: «أنــت تفرط في قراءة الروايات».

عدنا إلى غرفة المعيشــة، وتناولنا بعض القهوة. فتحت ماما صندوق الكعك. كان الكعك قد صنع في يوغســلافيا الســابقة، فكان قديما جدا لدرجة أنه فقد نكهته بالكامل.

اســتمر بابا في الثرثرة. ومن وقت لآخــر، كانت ماما تطلق ذراعا في الهواء وكأنها تطارد الذباب. ثم نهضت وفتحت التلفاز. بــدأ بابا يتذمر من أنها لم تعد تصغي إليه، بل إنها لم تصغ إليه قط، إذ كان شــغلها الشاغل ذلك الصندوق التافه. خفضت ماما صوت التلفاز، إذ كانت تشاهد مسلسلا مترجما، ولم تكن بحاجة إلى الصوت.

عندما جلت بنظري في الغرفة، انتابني شعور بأن الأشياء قد تقلصت. بدت ماما وبابــا أصغر من حجمهما الطبيعي. بدا كل شيء أكثر قِدما أيضا، وبدت الأشياء رمادية ورثة، أشبه ما تكون بالنبتة الاصطناعية المكسوة بالغبار التي تقبع في الزاوية.

غمــرت كلمات بابــا الغرفة، كانت تصفي الحســابات وتبرر الأفعال وتعبر عــن الغضب والاحتجاج. يــكاد أن يكون لكلماته واقعا فســيولوجيا، إذ جاءت في مرحلة متقدمة من العمر، وفي غياب السيطرة على عمل المثانة. لم يكن يدرك أن الكلام يتدفق منه هكذا.

لم أدرك كم مضى من الوقت، لكن عند نقطة ما وقفت وكأني أصحو من حلم.

قلت: «حان وقت الذهاب. ستصنع أمي العشاء لي الليلة».

لم يحاولا ثنيي عن الذهاب.

قالت ماما معتذرة: «حسنا، أنتِ تعرفين الآن أي حياة نعيش هنا».

صاح زاجرا: «ما المشكلة في حياتنا! نحن نعيش أفضل من الناس في أماكن كثيرة. لولا أن الأمور أخذت منعطفا آخر، لكنا نعيش أفضل من الأمريكان».

ذهب بابا، وهو يلتقط أنفاسه، وأخرج ثلاث كراسات من تحت المنضدة التي وضع عليها التلفاز. كانت كراسات من القطع الكبير، ومثبتة يدويا.

قال لي: «ها هي، ألقي نظرة على هذه. إنها كتاباتي».

قبلت كليهما عند الباب. من الواضح أن بابا لم يرق له ذلك، إذ أفشلت شفتاه كل محاولاته لرسم ابتسامة. ذلك التعبير جعله يبدو كطفل تم التخلي عنه يبذل ما في وسعه للتغلب على تجاهله. لا بد أنه كان التعبير الذي بدا على وجهي عندما وصلت إلى المطار.

راقبتها وهي تخز إصبعها بإبرة وتسحب نقطة من الدم عبر قطارة صغيرة، ومن ثم تدخل القطارة بيدها المرتجفة عبر فتحة جهاز صغير، متتبعة الأرقام الظاهرة وتسجلها بعناية في دفتر يوميات مرض السكر: مسجلة التاريخ، والساعة، ومستوى السكر في الدم. راقبتها تلقي نظرة قلقة باتجاه ساعة الحائط وتفتح الثلاجة، ثم تخرج تجهيزات الإفطار وتضع كل شيء بإتقان على الطاولة: طبقين، وكوبين، وملعقتين، ومنديلين.

«اصنعي القهوة لنفسك. أنا لا أشربها بسبب مرض السكر».

سكبت بعض القهوة في حليب بارد.

«سخني الحليب. ألا تريدين تناول الإفطار؟».

«لا أستطيع».

تنهـــدت قائلة: «علي تناول الإفطـــار، فلا بد من أخذ وجبات منتظمة في أوقات منتظمة. هكذا يتم التعامل مع مرض السكر».

راقبتها تفتت الخبز بأصابعها كما يفعل الأطفال، وهذه عادة أخرى من عاداتها.

قالت فجأة مـــن دون تفكير: «أنتِ تراقبينني. أشـــعر وكأني خنزير غينيا».

«ماذا تقصدين؟».

قالت مســـتخدمة ضمير الجمع:«أنت تراقبينني منذ أول يوم وصلت فيه إلى هنا».

قلت: «هذا ليس صحيحا».

التقطت كســـرة طرية من الخبز وجعلت تعجنها مشـــكلة كرة منها. شـــعرت بغصة في حنجرتي. أوشـــكت على البكاء. وكانت ستبكي هي أيضا لو حدث ذلك.

«هذا يجعلني أشعر بأنك تلومينني لشيء ما. أنتِ تظنين أنني السبب وراء ترك جوران لك».

رحت أكرر لنفســـي: «يجب ألا أسمح لنفسي بالوقوع في هذا الشرك. يجب ألا أسمح لنفسي بالوقوع في هذا الشرك».

قلت بكل مـــا أوتيت من رباطة جأش:«بعد الإفطار ســـنحزم متاع السفر ونتصل بسيارة أجرة». لاحظت أنني أيضا استخدمت ضمير الجمع.

سألت، منتقلة إلى مزاج الهجوم: «التوقيت في أمستردام هو

التوقيت نفسه في زغرب، أليس كذلك؟».

«طبعا إنه كذلك. أنتِ تعرفين هذا».

«إذن الساعة الآن الثامنة والنصف هناك؟».

«هـــذا صحيـــح، مع أننـــا نقولها بشـــكل مختلف فـــي اللغة الهولندية».

«لا أعـــرف لماذا، ولكننـــي اعتقدت أن الوقت هناك يســـبقنا بساعة واحدة».

«كلا، إنه التوقيت نفسه».

تنهدت، ثم اضافت: «حســـنا، ينبغي أن تعرفي، لا أســـتطيع القول إنني مرتاحة لوجودك هناك».

«لماذا؟».

«تلك القنوات، أراهن أنها كريهة الرائحة».

«لا، أبدا».

«لكن مياهها راكدة. لا بد أنه تفوح منها رائحة كريهة».

«من الغرابة بمكان أن هذا لا يحدث».

«حســـنا، من جانبـــي لا أود العيش هناك حتـــى لو دفعتِ لي راتبا».

«لم لا؟».

«لأن المطر لا يتوقف هناك أبدا، والقنوات تعج بالجرذان التي تسبح فيها».

«ما الذي أوحى لك بتلك الفكرة؟».

كذبت قائلة: «شاهدت ذلك على التلفاز».

«أنا لم أر جرذا واحدا».

«أنت لا ترين شيئا. تفكيرك دائما فوق السحاب».

فكرت في أن ما تقوم به هو من انفطار القلب. الحاجة إلى مضايقتي وأنا على وشك الرحيل. لقد كنت أتركها، وكان عليها إيجاد طريقة لمعاقبتي. في الماضي كان مثل هذا الشيء يدفعني للبكاء، ولكنني تعلمت كيف أحمي نفسي. الآن تمر هذه الأشياء مثلما يمر الماء على ظهر بطة.

قلت، وقد نهضت متجهة إلى غرفتي: «سأحزم حقائبي».

تبعتني إلى الغرفة.

«أتريدين أخذ أي شيء كتذكار».

«مثل ماذا؟».

«لا أعرف. لدي بعض مربى الخوخ المصنوع في المنزل».

«أأنت من صنع مربى الخوخ؟».

«لا، إنها السيدة بودين. ولا أستطيع تناولها بسبب مرض السكر».

قلت لإسعادها: «إذن سآخذها».

أحضرت جرة زجاجية في كيس بلاستيكي.

قالت وهي تعيد ترتيب الملابس في الحقيبة: «يا إلهي، ألم تتعلمي كيف تحزمين الحقائب بعد؟ لفي حولها بلوزة، أو أي شيء آخر لئلا تتكسر. هل هناك شيء آخر؟ أي شيء من أغراضك؟».

قلت وأنا أغلق سحاب الحقيبة: «لست بحاجة إلى أي شيء آخر، يا أمي». نظرت إلى ساعتي ووجدت أنه لم يزل هناك متسع من الوقت. «يمكنك أن تتصرفي فيما بقي من أغراضي. قد تستفيد منها فاندا».

«عندما أعود إلى الوطن، أشعر وكأني أشيع جنازتي» (حسب نيفينا).

تجاهلت ما قلته عن قصد.، صنعت فنجان قهوة آخر لنفسي.

سألتني: «كيف تستطيعين شرب تلك القهوة باردة؟ دعيني أسخنها لك».

«أحبها باردة».

«لطالما كان لك رأيك الخاص في الأمور، لماذا لم تتصلي بسيارة الأجرة؟».

«ما زال هناك متسع من الوقت».

«تتأخر سيارات الأجرة كثيرا في الوصول إلى هنا».

«ثمة الكثير من الوقت».

نظرت إلي، ثم خفضت عيناها. كان كلانا يكد في البحث عن أرض محايدة.

عرضت علي: «دعيني أقيس ضغط الدم عندك. أراهن أنك لم تقومي بقياسه من قبل قط».

قلت، على الرغم من انحباس أنفاسي من وقع المفاجأة: «هذه فكرة جيدة».

«عندما أعود إلى الوطن، أشعر وكأني كيس للتدريب على الملاكمة، إذ أتوجع في كل أنحاء جسمي» (حسب بوبان).

أحضرت كيسا بلاستيكيا، وبعناية أخرجت منه جهازا لقياس ضغط الدم. لفت الشريحة حول ذراعي الأيسر، وضغطت على الزر بيدها الأخرى. راقبت الأرقام تتغير بسرعة حتى استقرت مع أزيز الجهاز. لم تستغرق العملية أكثر من دقيقة. قالت، وقد

بدا عليها بعــض الذهول، لكنها احتفظت بهدوئها: «ضغط الدم عندك طبيعي».

رفعت عينيها لتلاقيا عيني.

«كان مجرد فحص عادي»، ســارعت للقــول مثل طفل مدان بالكــذب. «أردت أن أرى إن كان الجهــاز يعمــل. الآن أعطنــي ذراعك».

أعطيتها ذراعي. أمســكت أصابعها المنتفخة، بسبب تقدمها بالعمر، بذراعي ولفت الشــريحة حول الجــزء العلوي منه. كان الجهاز في حضنها. أمســكته بكلتا يديها، ثم ضغطت على الزر فظهر رقــم ثمانية مكررا ثلاث مرات. عندمــا اختفت الأرقام، ضغطت بعناية على زر التشــغيل. لم ننبس ببنت شــفة. شعرت بانتفاخ في ذراعي. أصغينا إلى أزيز الجهاز وتتبعنا الأرقام وهي ترتفــع وتنخفض في المقياس. عندما اســتقرت الأرقام، تولدت لدي رغبة مفاجئة بالبقاء في تلك الحالة، كما كنت وإلى الأبد.

قالت وهــي تنزع الشــريحة: «أنت طبيعيــة! لا داعي للقلق إطلاقا».

تلــك كانت قبلة الوداع بيننا. فقــد كان جهاز قياس الضغط بديلا مرئيا لشــيء غير مرئي، وهو حبل سري مخضب بالدماء، نضر، ولامع مثل ســلك معدني. كان ضغطنــا طبيعيا، ونبضات قلبينا منتظمة. في تلك اللحظة، كنا قد بحنا لبعضنا بكل شــيء كان علينا قوله.

اتصلت بســيارة الأجرة التي جــاءت على الفور. اصطحبتني إلى المصعد. قبلتها على خدها. أخذت نفسا عميقا واستنشقت

رائحة بشرتها وولجت المصعد دون زفرها.

«أحبك!»، قالتهــا فجأة بالإنجليزية. لا بــد أنها تعلمت تلك العبارة، ونغمتها من الأفلام الأمريكية التي كانت تشاهدها على التلفاز. حركت تلك العبارة مشــاعري، فهــي لم تخاطبني بتلك العبارة الإنجليزية من قبــل. والآن أتت تلك العبارة ربما بصوت أجــش، لكنها كانــت مفعمة بكل ما أرادت قولــه ولم تعرف إليه سبيلا. لقد ولجت تلك العبارة مباشرة إلى أعماقي، وانهرت في داخلي.

كان بمقــدوري أن أراها من خلال النافــذة الضيقة في باب المصعد وهي تلمس خدها بيدها. لا بد أنها كانت تمســح دمعة ذرفتها. وعندما ضغطت على الزر، كان باســتطاعتي أن أسمعها تهرول عائدة في شبشبها.

«أحبك»، كنت أظن أنني أغنيها لها، ولكنها خرجت من شفتي أشبه ما تكون بنشيج.

ابتعــت بضع علــب من أنواع الشــوكولاتة التــي أوصيت أن أحضرهــا معــي من الســوق الحــرة فــي المطار. كانــت علب الشــوكولاتة الكرواتية الشهيرة المسماة «كراش» مزخرفة بشعار النبالة الكرواتي، ومصممة بطريقة لتشبه جواز السفر الكرواتي الجديد.

بعد إقلاع الطائرة شعرت بإحساس غامض من الارتياح. بينما كنت أتصفح المجلة الموجودة على متن الطائرة، تمعنت في قائمة وجهات الرحلات الجوية، ثم انتقلت إلى الغوص في المقالات التي تتناول نبات الفطر «الأستيري»، وحسناوات «كوتشولا»، والسيرة

الباهرة لعــازف البيانو «أيفو بوغوريلنتش»، وآخر نجاحات بطل كرة المضرب «جوران إيفانسيفتش».

لم أنجز أي شيء في الأيام السبعة التي قضيتها في «زغرب». لم أحصل على هوية جديدة: لم أتصل بمحام. طبعا، كانت الشقة قضية خاسرة: فهناك آلاف القضايا المشابهة، علما أنني لم أكن مغرمة بالأشياء التي نتركها وراءنا. صحيح، أنا أشتاق إلى الكتب التي تعود إليّ، ولجوران، ولكن حتى لو وافق الساكن الحالي على إعادتها، فلن أجد مكانا لها.

ومع كل هذا، فقد أقنعت القاطنين في الشــقة التي تقع فوق شقة أمي بأن يجدوا عاملا حرفيا لإزالة البقعة الصفراء المنفرة من على ســقف الحمــام من تحتهم. كذلك تركــت بعض النقود لأمي لأشياء طارئة مشابهة، واشتريت لها حنفية للحوض.

شــاهدت أثناء الســبعة أيام في «زغرب» ســبعة مسلسلات برازيلية. حفظت أســماء أفراد العائلات الممتدة للممثلين. كان، علــى الأقل، واحد مــن أجهزة التلفاز الثلاثة شــغالا من لحظة نهوضها من الفراش.

قالت بطريقة تبرر نفســها: «هذا يشعرني بأني لست وحدي هنا».

«لماذا لا تقرئين؟».

«لا أستطيع. القراءة متعبة لعيني».

«احصلي على نظارات جديدة».

«لقد فعلت، لكن ذلك لم يحل المشــكلة. يبدو الأمر كأن هناك رملا في عيني».

لم أجــر أي مكالمة هاتفية، إذ لم يكن ثمة من اتصل به. كنت أتصفــح الأرقام في دفتر العناوين القديم، ومرة رفعت ســماعة الهاتف وضغطت على أرقام هاتف صديق، لكنني أعدت السماعة إلى مكانها قبل أن يرد أحد. ذلك جعلني أشعر بالارتياح.

فكرت بأمي وكيــف كانت تدافع عن حلبتهــا. ما كان يعنيها بالمقام الأول هو إزالة البقعة في سقف الحمام، وإصلاح الصنبور الذي يســرب الماء، والمحافظة على نظافة الســتائر، وأن تأخذ الحيــاة مجراها الطبيعي. لكنها كانت مقاتلة أيضا، وقد وجدت عدوا، مرض السكر. لقد رفضت أن تعترف بأي عدو آخر، فقد غزاها الوهن الآن، وكانت ستخســر أي معركــة أخرى. وهكذا حددت حلبتها، وتمتعت ببساطة مطلقة فيها.

كانت صورتي مع جوران في خزانة الأواني الخزفية في غرفة معيشة أمي. رؤيتي للصورة هناك جعلتني أدرك الشبه بينها وبين عــروض التذكارات التي رأيتها في غرف معيشــة المهاجرين. لم تعبر عروض التذكارات في منازل المهاجرين عن حنين لحياة خلت أو حنــين لوطن، بل علــى العكس من ذلك: فقد عبرت عن غياب ذلك الحنين. لقد شكلت تلك القلوب المصنوعة من خبز الزنجبيل، ومنافض السجائر على شكل أحذية الفلاحين، والقبعات الآتية من جزر الدلما أوالجبل الأســود، والأشياء المطرزة والأشرطة الزينية المصنوعة يدويا، وقرعات الشــراب المغطــاة بالجلد، والأصداف الأدرياتيكية، شكلت أضرحة كثيرة جدا، قبورا صغيرة جدا تضع علامــة لنهاية طريقة حيــاة، واختيارا صريحا لتقبل الخســارة واستعدادا لقبول النتائج المترتبة على ذلك الاختيار.

لم أستطع القول إنني قبلت بهذه الخسارة ونتائجها. ما يمكنني قوله هو أنه خلال الأسبوع الذي قضيته هناك كنت قلقة باستمرار. ليس نفس درجة القلق عندما أكون مع أمي مثلها عندما أكون خارج البيت. تجولت في شوارع «زغرب» بصفعة غير مرئية على وجهي، متفحصة الأشياء بشيء من الارتياب مثل أرنب، معانقة واجهات المباني بحثا عن الأمان. بدا كل شيء متعطلا ورماديا، فالآن يعني نفسي، الآن يعني أجنبي، الآن يعني سابق.

لم أخبر أمي قط بأنني حاولت الحصول على هوية جديدة. الأمر كان، أنني لم أستطع أن أجد المكتب المعني. وبالرغم من أنني كنت قد ذهبت إلى ذلك المبنى عدة مرات من قبل، وبالرغم من أنني أعرف المنطقة عن قرب، وبالرغم من أنني أملك حسا جيدا لتحديد الاتجاهات، إلا أنني لم أتمكن من الوصول إلى المكان. عندما سألت عن المكان، أشار الناس إلى اليسار ثم إلى اليمين، إلا أنني لم أستطع الوصول إليه. بقيت أحوم في مساحة دائرة محددة - في محيط شارعين أو ثلاثة على الأكثر - حتى اجتاحني الفزع فجأة وانفجرت في البكاء. ظهرت إلى السطح صدمة المنفى، صدمة الاختفاء المفاجئ لأم من محيط رؤية طفلها، ظهرت إلى السطح في مكان لم أتوقعه - «في الوطن»، حقيقة أنني ضللت الطريق في منطقة أعرفها كمعرفتي لأصابع يديّ قد ملأتني رعبا.

سردت تلك القصة للمسافر الذي جلس إلى جانبي في الطائرة. كان من «زغرب»، ويعمل مهندسا معماريا، وقد يكون

تخرج قبلي ببضع سنوات. لقد ترك «زغرب» عام ١٩٩١، وهو في طريق عودته إلى أمريكا، حيث وجد عملا في شركة واستقر هناك.

«اعتقدت أنني فقدت عقلي».

رد قائلا: «لماذا؟ لديك أسباب وجيهة لأن تضلي الطريق. لقد تغير كثير من أسماء الشوارع».

«لكن الشوارع بقيت كما هي».

«ليس عندما تحمل أسماء جديدة».

«ومع ذلك، لا أصدق ما حدث».

«فقدان مؤقت للذاكرة. فقد حدثت تغيرات هائلة في فترة قصيرة جدا».

«ولكن كيف لي أن أضل الطريق في مدينتي؟».

«ماذا لو لم تعد زغرب مدينتك؟».

قلت بعناد، مصغية لسخافة ما أقول: «زغرب ستبقى مدينتي إلى الأبد».

«في المرة القادمة، حاولي تعلم أسماء الشوارع الجديدة، ستكون الأمور على ما يرام. ويمكنك تسريع هذه العملية بنسيان الأسماء القديمة».

«أتظن أن من السهل فعل ذلك؟».

«ليس سهلا بأي شكل من الأشكال. أستطيع أن أرى كم أنت منزعجة من ذلك. كنت متضايقا أيضا، ولكنني تمكنت من التخلص من ذلك . أو، بالأحرى، اختفى ذلك مع مرور الوقت. لقد شطبونا، أنا، وأنتِ، وجميع من رحلوا . صحيح أننا مواطنون

غير فاعلين، لكننا لا نحسب. نحن أقلية مهملة. انظري، أنتِ قد عدتِ لفورك من الوطن، فهل تولد لديك الانطباع بأن الناس متضايقون خاصة من أحداث السنوات العشر الماضية؟

«لا أعرف».

«لقد تنفس الناس الصعداء العام ١٩٩١، كانت الحياة في يوغسلافيا صعبة على معظم الناس، كلاب تأكل بعضها. ولكن كان دائما هناك هدف على المرء أن يسعى إليه: المستقبل المشرق أو الإصلاح بشكل أو بآخر. كان هناك أولئك الجيران الأشرار الذين يتلصصون لمعرفة إن كانت دجاجاتك تبيض أكثر من دجاجاتهم. لذا تنفس كثير من الناس الصعداء عندما انهارت يوغسلافيا القديمة: فقد أصبح بإمكانهم أن ينكشوا أنوفهم، أو يحكوا أردافهم، أو يرفعوا أرجلهم فوق المنضدة، أو يستمعوا إلى الموسيقى الصاخبة، أو يجلسوا فحسب ويشاهدوا الملاكمة. طرد الكروات الصرب، وطرد الصرب الكروات واعتدوا بالضرب على الألبان. أما البوسنيون المساكين - فقد شطبهم كل من الكروات والصرب، مثلنا نحن المهاجرين. صحيح أن المكان يعج بالمجرمين الآن، والمجرمون يستغفلون الكثير من الناس، لكن الناس مازالوا يظنون أنهم أفضل حالا مما كانوا عليه من قبل: فالمجرمون على الأقل أصحاب عمل مستقل، ولا أحد يضع معايير مستحيلة. في النهاية، ينبغي أن يكونوا ممتنين «لميلوسيفيتش»، فهو من سحب القابس عن يوغسلافيا. لم يكن أي أحد آخر يملك الشجاعة لفعل ذلك. كان الكل ينتظر تلك اللحظة».

«ولكن ماذا عن آثار الكارثة؟ المسؤولية عن كل ما حدث».

«لماذا تكترثين بذلك؟ وما جدوى طرح مثل هذه الأسئلة؟ انظري، خلال سنة أو سنتين لن يتذكر أحد «فوكوفار». أو حتى «سراييفو» لذلك السبب. ولا حتى الناس الذين يعيشون هناك. لذلك لا تتحيري. فالأمر لا يستأهل كل هذا، صدقيني».

«لكنني حائرة».

«أخبريني، هل صادف أن قابلت أحدا من المهاجرين الذين رحلوا بعد الحرب العالمية الثانية؟ أو حتى ممن رحلوا بعد الحملة ضد القوميين العام ١٩٧١؟ لقد قابلت أناسا من هؤلاء. عندي عم في أمريكا، وقد قدمني إليهم. كان الأمر أشبه ما يكون بمقابلة الأشباح. كانوا يسترسلون بالحديث عن أشياء لا تتصل بحياتنا على الإطلاق. كان إدراكهم للزمن هو سبب ذلك. عندما ترحلين فإنك تغيرين ما هو أكثر من تغيير مكانك، فأنتِ تغيرين زمنك، زمنك الداخلي. الزمن في «زغرب» يمضي الآن بسرعة تفوق كثيرا سرعة زمنك الداخلي. أنتِ مازلت عالقة في إطار زمنك الغابر. أراهن أنك تظنين أن الحرب اندلعت أمس».

قلت بانفعال: «إنها كذلك. وهي لم تنته بعد».

«حسنا، هذا ينطبق على الناس الذين لم يغادروا الوطن! إن «أمسِك» هو تاريخهم الغابر. هل تتذكرين المهاجرين الذين سارعوا بالعودة من كندا، وأستراليا، وأوروبا الغربية، وأمريكا الجنوبية عندما أعلنت كرواتيا استقلالها؟ الكروات الذين حاولوا وصدقوا. أصبح من لبوا الدعوة المدوية «لتودجمان» يطلق عليهم المحتالون، وجحافل المحاربين القدماء، والقتلة، والفاشلين».

«معروضات من متحف إقليمي».

«بالضبط. خلال بضع سنوات سنبدو مثلهم في أعين الناس الذين بقوا في الوطن. لذا، فأفضل شيء هو النسيان، نسيان كل شيء».

«إذن، من سيتذكر؟».

«لماذا، في رأيك، يخترع الناس بدائل رمزية؟ يفعلون ذلك لزيادة معاناة الآخرين وجعلهم يتذكرون بدلا منهم».

«لا أعرف إن كنت...».

«حسنا، دعيني أقل لك الآتي. ليس من السهل سرد قصتنا. حتى الأرقام تحكي قصصا مختلفة لأناس مختلفين. ما نعتبره طوفانا، يعتبره آخرون زخات من المطر: فمقتل مائة ألف شخص، أو تهجير مليون أو مليونين، أو اندلاع حريق هنا أو انفجار قنبلة هناك، أو بعض النهب، كلها مجرد أشياء تافهة! لقد قتل أكثر من ذلك في فيضانات الهند هذا العام فقط».

«لا بد أنك فقدت صوابك!».

«ليس للناس قدرة على احتمال المحن، صدقيني. هم لا يقدرون على التوحد والمشاركة الوجدانية مع الكوارث الجماعية. ليس لفترة طويلة على الأقل، حتى لو أن الكارثة حلت بهم هم أنفسهم. لهذا لجأوا إلى الحل البديل».

«لا أفهم ما تقول».

«عدد الناس الذين يعلمون أن «إلفيس بريسلي» لم يعد له وجود بيننا أكبر من عدد أولئك الذين يعرفون أنه لم يعد لمكتبة سراييفو وجود بيننا. وهذا ينطبق على الضحايا المسلمين في مذبحة «سيربرينيتشا. يضع الناس الكوارث جانبا».

«إن ما تقوله مرعب حقا».

«أنتِ لم تسمعي إلا القليل حتى الآن. إذا ما استرسلت في الحديث، ستتوقين إلى التخلص مني...».

تقاطع حديثه مع إعلان إحدى المضيفات بدء نزول الطائرة باتجاه أمستردام.

قال مبتسما ابتسامة ودية:« أنقذني الجرس».

(أشعر براحة أكثر عندما أتحدث بالهولندية. كانت «نيفينا» قد قالت ذلك، وكأن الهولندية كيس نوم).

قلت معلقة: «أشعر براحة أكثر وأنا في الجو».

تجاهل رفيق السفر تلك الملاحظة، وكأنه لم يستسغها.

كانت الرؤية ممتازة: فالجو صاف، والسماء زرقاء، والشمس مشرقة ساطعة. بدت الأرض من تحتنا كفطيرة المشروم، انقسمت إلى أجزاء رفيعة منتظمة، أشبه ما تكون بصورة هولندا. مثل الميدان الأبيض «لماليفيتش»، وعشرات الآلاف من الآثار الأدبية الهابطة. فجأة أدركت أنني لم أحتفظ ولو بصورة واحدة «لزغرب» في مخيلتي. حاولت جاهدة أن أستحضر شيئا، لكن كل ما استطعت تجميعه كان سلسلة من الصور المشوشة، والغريب كفاية أنها كانت بالأبيض والأسود. إن لاوعيي لسبب ما نقل ملفات مدينتي «زغرب» إلى عصر ما قبل الألوان.

قلت، وقد التفت على نحو مفاجئ لجاري: «أخبرني. هل متجر «فارتيك» لا يزال في ميدان الجمهورية؟».

«تقصدين ميدان المحافظ يلاتشيتش».

«أيا كان الاسم».

«لا أعرف».

«كذلك أنا. لقد كنت هناك أمس، ولا أتذكر إن كنت رأيته».

قال: «لم أبتع شـــيئا من ذلك المتجـــر قط. لماذا يزعجك هذا الأمر كثيرا؟».

قلت: «إنني أنزعج وحسب».

الجزء الثالث

١٢

انفجرت قنبلة يدوية بين
الصبي اليافع وأبيه. يا له من مشهد!
لم يبق من الصبي المسكين إلا القليل الثمين،
وفقد الأب كلتا ذراعيه
حاولوا أن يحشوا الصبي في كيس.
ولكن سرعان ما بدأوا يسبون يائسين،
فكل ما تمكنوا أن يجمعوا منه
لم يتعد فردة من الحذاء وخصلة من الشعر.

نينو مويتشينوفتش

بعد يوم من وصولي إلى أمستردام، قمت بزيارة القسم. لن تبدأ الدراسة إلا بعد أسبوع، ولكنني ارتأيت الذهاب إلى هناك. أخبرتني السكرتيرة بنبرة قد تستخدمها للإبلاغ عن تغيير في الجدول الدراسي: «سمعت أن أحد طلبتك قد أقدم على الانتحار».

تدبرت أن أقول: «عم تتحدثين؟».

«هذا ما سمعته».

«أي طالب؟».

«كيف لي أن أعرف؟».

كان من الممكن أن أخنقها.

«من أخبرك بذلك؟».

«أحد طلبتك الآخرين. للتو».

انطلقت نازلة الدرج واتجهت إلى المقهى حيث وجدت نيفينا، وإيجــور. اســتطعت أن أعرف من تعبيــرات وجهيهما أن هناك خطبا ما.

نعم، لقد ســمعا أن «يــوروش» قتل نفســه. لكنهما لم يعرفا كيف حدث ذلك. سمعا أن شــقيق «يوروش» جاء إلى أمستردام لمتابعة الأمر، وأن والد «يوروش» مشــتبه بارتكابه جرائم حرب، ويتم اســتجوابه حاليا في محكمة لاهاي. وقالا لا، ليس لديهما أي فكــرة عن والده، إطلاقا. فقد كان «يوروش» كتوما جدا. وقد لاحظت أنا هذا أيضــا. وهم مثلي لم يحدث أبدا أن رأوه خارج حجرة الدراسة.

قال إيجور ببساطة: «إنه الشعور بالعار، يا رفيقة».

لقد جلبت الحرب بعد اندلاعها سلسلة من حوادث الانتحار.

أخبرتني ماما بقصة جندي عاد من جبهة القتال - صبي، لم يبلغ العشــرين من العمر - وقام بزيارة المدرسة التي كان يدرس فيهــا. اتضح أنه قضى اليــوم بكامله في فناء المدرســة موزعا الحلوى على الأطفال، وكان يشــرح لهــم ما هي القنبلة اليدوية. في الصباح التالي كانت أشــلاؤه مبعثرة في جميع أرجاء المكان. ســقطت بعض أجزاء من جسمه فوق شجرة وظلت ملتصقة في الأغصان. لقد فجر نفســه قبل بضع ســاعات من بدء الفصول الدراســية. هيئة العاملين في المدرســة لم تعرف بذلك - فكيف كان لهــم أن يعرفوا؟ - وهكذا دخــل التلاميذ مندفعين بأعداد كبيرة وهم يدوسون على البقايا المخضبة بالدماء.

نعم، موجة عارمة من حوادث الانتحار. انتحار بهدوء، وسكينة،

بعيدا عن الإعلام، فقد كان هناك الكثير من المحن والموت تحيط بالناس الذين لم يعد لديهم مزيد من الشفقة ليغدقوه على المنتحرين. إن الانتحار رفاهية أثناء الحرب؛ والشفقة شحيحة.

كانوا يُقدمون على الانتحار بطرق مختلفة: فكان البعض يتناول الشراب حتى الموت - وتلك أرخص الطرق؛ وكان البعض يأخذ جرعة مفرطة من المخدرات - نتيجة للحرب فإن الحدود فتحت على اتساعها، وتدفقت المخدرات بسهولة كبيرة؛ أو كانوا يموتون بكل بساطة بسبب «انفطار القلب»، وهذا تعبير تلطيفي عن الأزمات والسكتات القلبية التي لم تعالج، والتي انتشرت انتشار النار في الهشيم في أثناء الحرب. ويمكن أيضا وضع الأمراض الأخرى التي لم تعالج تحت مسمى الانتحار. ثم هناك حالة الطالبة ابنة الجنرال الصربي، وهو من مجرمي الحرب، التي وضعت حدا لحياتها بسبب الشعور بالعار. كذلك تلك المرأة العجوز من «بلجراد» التي تزحلقت وسقطت عندما توقفت الحافلة أمام حشد من الركاب. اندفع الحشد إلى داخل الحافلة، وهم يدوسون على جسمها بأقدامهم. لم يفكر أحد في مساعدتها. استطاع الأطباء ترميمها، ولكنها ما إن عادت إلى المنزل، حتى ألقت بنفسها من نافذة الطابق الرابع. إنه الشعور بالعار مرة أخرى.

هناك حوادث الانتحار بين من فروا من الحرب أيضا. لقد سمعنا كل أنواع القصص عندما كنا في برلين. سمعنا قصة المرأة البوسنية التي شنقت نفسها في مستشفى للأمراض النفسية قبل خروجها من المستشفى بيوم واحد. وقصة اللاجئ البوسني

الذي شنق نفسه في مخيم للاجئين بعد أن خنق زوجته وطفلهما البالغ من العمر سنتين بالوسادة. وهنا في أمستردام قامت امرأة كرواتية في أحد مراكز اللاجئين بفتح الغاز ثم أحرقت نفسها. لقد فعلوا كل ذلك بسبب المذلة، واليأس، والخوف، والوحدة، والعار. وهناك كثير من الوفيات غير معروفة، والتي مرت وحسب، ومعظمها لضحايا الحرب، رغم خلو سجلات الحرب منها.

عرفنا تفاصيل ما حدث ليوروش من داركو الذي لم يتأخر كثيرا عن المجيء للمقهى. فقد كان داركو الشخص الوحيد الذي احتفظ بعلاقة شخصية إلى حد ما مع يوروش. أخبرنا أن يوروش أطلق النار على صدغه من مسدس. لم يجد صعوبة في الحصول على ذلك السلاح: فكل ما كان عليه فعله هو الاتصال بمجموعات المافيا اليوغسلافية. كانت أمستردام تعج بالأسلحة اليوغسلافية: فدائما ما كانت الشرطة تعثر على قنابل تم التخلص منها في المتنزهات. وقد مات طفلان أخيرا بعد أن داسا على إحداها.

كان يوروش قد نظف شقته بشكل جيد قبل أن يطلق النار على نفسه. لقد تخلص من كل الأشياء التي كان يملكها - الكتب والملابس، بما فيها الملابس التي كان يرتديها قبل سحب الزناد. ترك وراءه حقيبة بلاستيكية سوداء فقط لا غير. ألصق على تلك الحقيبة بطاقة مكتوبا عليها اسم وعنوان شقيقه بأحرف كبيرة متقنة. أقدم على الانتحار يوم السبت أو الأحد، عندما كانت صاحبة الشقة خارج المدينة. وقد وجدت الجثة مساء الإثنين،

واتصلت بالشـــرطة مباشرة. كان ملقى في منتصف الغرفة وهو عار تمامـــا. كانت الجثة نظيفة فيما عـــدا بضع نقاط من الدم والبول، ولم تتحلل بعد. كانت الجثة محاطة بسبع حقائب أطفال كرتونية (حقائب لعب أطفال!) تباع في متجر «بلوكر». احتوى كل منها على الأشياء نفســها: فرشاة أسنان غير مستعملة، ومخدة صغيرة، وقلم رصاص مشــحوذ بشــكل جيد، و«يرملك»، القبعة التي يستخدمها اليهود.

سألت نيفينا: «هل كان يورورش يهوديا؟».

رد داركو:«لم يكن يهوديا وفق علمي. كان والده بوسنيا صربيا، كما تعرفون جميعا».

بــدا وصف «داركو» لمشــهد موت «يــورورش» طفوليا، مع أنه كان وصفــا باردا، وحادا كالســيف في آن واحد. كانت الحقائب الكرتونية هــي المتاع الذي رأى «يورورش» أنــه ضروري لرحلته: يرملك، وفرشاة أسنان، ومخدة، وقلم رصاص، مكررة سبع مرات. لقد كانت أيضا بمنزلة وصية «يورورش» بأحرف هيروغليفية لأي شخص يريد أن يحللها.

قــال داركو: «أوه، وهناك شــيء آخر. لقد وضع رصاصة في فمه».

قالت نيفينا: «إنني أتساءل عن سبب ذلك!»

«لا أعرف».

قال إيجور مذهولا:«حقا. ألا تعرف سبب ذلك؟».

قــال داركو: «كما قلت، لا أعرف. ولكن ماذا لو - ما أن نظف المكان وخلع ملابسه وصوّب المسدس إلى رأسه - أدرك أن الأمر

سيكون مؤلما. إذ ربما قد يصرخ. قد يسمعه شخص ما. ربما تذكر مشهدا في فيلم حربي ما وضعوا فيه شيئا صلبا بين أسنان رجل مصاب قبل أن يجروا له عملية جراحية من دون استخدام المخدر، ليتجنبوا صراخ الرجل. وربما للحظة أحس بالفزع فلم يتبق له شيء: فقد وضع كل شيء وفقا لترتيب معين. لذا فقد أخرج رصاصة من المسدس ووضعها بين أسنانه قبل أن يطلق رصاصة أخرى على رأسه».

كان داركو بالكاد ينطق كلماته. بدا وكأنه على وشك البكاء طوال الوقت الذي كان يحاول فيه إعادة تركيب المشهد. كان الأمر وكأنه يفكر كيف أن موت يوروش موت بلا معنى - وفي الوقت نفسه معترضا على هذا التفكير. هناك موت نبيل، ذو معنى، ولكن في النهاية، لماذا اختار يوروش موتا بلا معنى؟ كان داركو متعاطفا مع يوروش لذات السبب، وهو أن موته خلا من أي معنى يمكن تخيله. لكن كل هذا ليس إلا مجرد حدس بما كان يدور في ذهن داركو. في حقيقة الأمر، لقد كان الاعتراض هو اعتراضي أنا.

أرانا «إيجور» مقالا قصيرا في النشرة الصادرة عن المجلس النرويجي للاجئين تتعلق بمحاكمة ثلاثة من مجرمي الحرب، وكان أحدهم والد «يوروش». كانوا أول من سيمثلون أمام المحكمة، إذ إنهم من صغار القوم. لن يُجلب المجرمون الكبار للمحاكمة قبل سنوات عدة.

سأل إيجور، وكان يقصد والد يوروش: «هل نذهب ونلقي نظرة عليه؟».

«أتقصد أن المحاكمة مفتوحة للجمهور؟».

«حصلت على تذكرتين للدخول اليوم من القسم».

«كما لو أنك ذاهب لمشاهدة فيلم».

قال بسخرية: «إنهم ينظرون إليها من قبيل ممارسة اللغة. مجانا».

«متى سيكون ذلك؟».

«غدا، إن أردتِ».

لم ينبس أحد ببنت شفة. كنت قد نسيت ما يتعلق بالحرب في أثناء الفصل الدراسي الماضي. كذلك الطلبة نسوا ذلك. لكن موت «يوروش» أعادني من جديد إلى خضم الحدث، إلى الكابوس. لقد كنت بجانب نفسي. كيف فشلت في أن أعرف؟ لأنني لم أسأل قط. ولم أقم بالسؤال لأنني كنت خائفة من ذلك. والآن، فات الأوان، لقد كنت مرعوبة من الأسئلة التي كان من الممكن أن أطرحها.

«لقد رتب شقيق يوروش كل شيء. ساعده أصدقاؤه الذين يعيشون هنا منذ زمن طويل. ليس ثمة شيء واحد كان يمكنكِ أو يمكن لأي منا فعله. لا يمكننا حتى الذهاب إلى مراسم الدفن».

قالت نيفينا وهي تتجه إلى البار: «يمكننا أن نحتسي الشراب على روحه، أليس كذلك؟ إنها دعوتي لكم».

ارتشفنا «الراكيا» الهولندية في صمت. لم أعد أفكر في يوروش؛ كنت أفكر في مسلسل شاهدته على التلفاز في وقت مبكر من الحرب. ضم المسلسل فتى سلوفينيا يرتدي الزي الرسمي للجيش الوطني اليوغسلافي، كان في عمر يوروش، تم

أخذه أسيرا على يد قوات الدفاع السلوفينية الجديدة. كان يقف رافعا يديـــه، والدموع تنهمر على خديه وهـــو يصرخ «لا تطلقوا النار، أيها الرجال! أنا واحد منكم!» بعد بضع ثوان، أطلق الرجال السلوفينيون النار على رجلهم السلوفيني.

بعد انتهاء جلســـة الشـــراب، ذهبت نيفينا، وداركو، وإيجور، وأنا، كلٌّ مضى في طريق مختلف. في ذلك اليوم بدت أمستردام في مشهد «أماركورد» لفيليني. بدت رقائق الثلج المتساقطة أكبر من حجمها الحقيقي بكثير بشكل لا يصدق.

١٣

من حين إلى آخر سوف ينبش شخص ما
تحت الأشجار
النزاعات الصدئة
ويلقي بها في القمامة.

ويسلاوا زيمبورسكا

لم أعرف ما أريد فعله. سرت الهوينا في المساحة الضيقة لشقتي، وأنا أرتجف من حمى خفيفة. لم أستطع التركيز على أي شيء، فالتفكير في موت يوروش تملّكني كالشقيقة. ثم وقعت عيني على الدفتر، أحد الدفاتر الثلاثة التي أعطاني إياها بابا حديثا في «زغرب». لقد تركت الاثنين الآخرين عند أمي، مدركة أنه لن يكون لدي الوقت أو الرغبة لقراءتها. إذا أخذت ولو واحدا منها، فهذا لمجرد إراحة ضميري. خطفت الدفتر من على الرف وبدأت أقلّب الصفحات.

كان النص مطبوعا بمسافة واحدة بين الأسطر ومن دون هوامش. لم تكن الكتابة واضحة، فمن المؤكد أن تلك النسخة كانت النسخة المصورة الثالثة، أو الرابعة لذلك النص. كان قد قام بتدبيس الأوراق بعضها مع بعض، وغلفَها بكرتون أخضر فاتح، وكتب على الغلاف بخط يده مذكرات مُعلم في بلدة صغيرة. كان يسمي تلك الدفاتر «كتبا». وأنا لا أعرف العنوان الذى أعطاه «للكتاب رقم واحد»، الذي قد يكون تناول طفولته المبكرة. وقد يكون عنوان «الكتاب رقم اثنين» يوميات المدرسة في عصرها

الذهبي. كان لدي «الكتاب رقم خمسة» الذي حمل إهداء «إلى ذريتي المستقبلية». لم يكن لدى بابا إلا القليل من الأمل في ذرية مستقبلية، إذ كانت «الذرية» مجرد عذر رومانسي، ولكن، بما أنه صور العديد من النسخ من «هذا الكتاب»، اعتراف حياته، فمن الواضح أنه كان يأمل بأن يقرأه شخص ما في نهاية المطاف.

ذهبت إلى بلدة «ن» للقيام بما كنت قد دُربت للقيام به: التدريس. كنت مدرسا مثلي مثل غيري خلا شيئا واحدا: أنني ذهبت إلى المدرسة، وبلدة «ن» - بعد إطلاق سراحي من سجن «جولي أوتوك».

كانت اعترافات بابا منقوعة بتجربته كسجين سياسي في سجن «جولي أوتوك»، بسبب تعاطفه مع مكتب الإعلام الشيوعي. لقد غيره ذلك تماما: فحتى بعد إطلاق سراحه لم يشعر بأنه غفر له. بينما كان في الداخل، «مُغّيبا عن الحياة»، وبينما كان يقضي «طوال اليوم»، وكل يوم، وهو يحمل صخرة تزن عشرة كيلوغرامات لمسافة خمسين مترا لأعلى المنحدر، وإذا حدث وكان الحارس في مزاج جيد، فكان يسمح له أن يطرحها أرضا للحظة من أجل الراحة قبل أن يعاود جرها إلى أسفل المنحدر؛ كان الناس في الخارج قد تعلموا، بمزيد من الوقاحة، كيف «ينهبون أموال الدولة». لقد نعت حياته بعد خروجه من السجن «بحياة ما بعد الوفاة»، ونعت نفسه «بالجثة»، وقد اضطر إلى إخفاء ماضيه في سجن «جولي أوتوك» كمن يخفي إصابته بالسفلس. كان يشعر بأنه نُفي من الحياة لأسباب أخرى أيضا: لقد فقد مكانته كمحارب نصير للحرية (وفي أحد السياقات يصف كيف تم تجريده من كل

أوسـمته العسـكرية)، ولم يعد عضوا في الحزب (فقد طُرد من الحزب). لقد أضحى مجرد مُعلم في المدرسة الآن.

لقد تنوعـت النبرة، والمزاج: فكان رثاء الذات يفسـح مجالا للوعـظ المدرسـي، أو غضـب المؤمـن الحقيقي، أو الناشـط الاجتماعي - الشيوعي السياسي الذي يقوم به الموظف الإقليمي. في البداية اعتقدت أنه يخاطب مجموعة غير مرئية من جدران أحد السـجون، ولكن سرعان ما أدرك أن جمهوره لم يكن ذريته المسـتقبلية، ولا تيتو، أو الحزب، أو الشـرطة السرية، أو الدولة اليوغسلافية، أو الحراس القساة في سجن «جولي أوتوك»؛ لقد كان جمهوره تلك البلدة الصغيرة التي درّس فيها.

مـا ظهـر بالتدريج كان صـورة للحياة اليومية فـي الأقاليم اليوغسـلافية في الخمسينيات، والسـتينيات. لقد أعطى بابا وصفا دقيقا لكيف بدأ، بعد سـنوات عدة من العمل مدرسا في بلـدة «ن»، بترميم المدرسـة المهلهلة، حيث صب الأسـمنت على السـاحة الموحلة وأقام ورشـة؛ وكيف أنه، بعد وقت طويل حين أصبح رئيسا لفرع الوزارة الإقليمي، أسس مركزا للثقافة وجمعية اجتماعية للفنون؛ وكيف أنه أنشـأ مسرحا للهواة، واستطاع أن يؤمّن له أضواء كشّـافة حقيقية؛ وكيف بُنيت أول دار للسـينما، وكيف تحصّلوا على الأفلام لها؛ وكيف أنهم أسسـوا أول مكتبة عامة حقيقية فيها قاعة للمطالعة وكيف موّلوا شراء الكتب لها؛ وكيف أنهم أعـادوا الحياة إلى المتنزه البلدي المهمل؛ وكيف أنهم قاموا ببناء مجمع لمدرسة ثانوية وحمام سباحة؛ وكيف أنهم نظموا ناديا لكرة السلة؛ وكيف أنهم أسسوا أول مدرسة للموسيقى ...

كانت الصفحـــات التي تتعلق بتلامذتـــه تتميز بالدفء بوجه خاص. في أحد السياقات تحدث عن زلة لسان حين قال: «اذهب على الســـبّورة»، بدلا من قوله، «اذهب إلى السبّورة». وبينما كان يديـــر ظهره، نفـــذ الطالب معنـــى ما طلب منـــه حرفيا، «فرفع الســـبورة عن قاعدتها الخشـــبية وخطا عليها، مثيرا البهجة في غرفـــة الصف. لقد حصل ذلك الصبي فيما بعد على شـــهادتين جامعيتين».

عندما تقاعد من الخدمة - آنذاك، كان قد انتقل إلى زغرب - حصل على الســـاعة الذهبية الرمزية لقيامه بواجباته، ولكنه كان مجروح المشاعر بشدة لأنه لم يتلق أي كلمة عرفان من البلدة التي أمضى فيها أفضل سني عمره.

في نهاية «الكتاب» كرس بابا مســـاحة مغالى فيها لوصف الأنواع المختلفة من خزائن الكؤوس والأطباق، وخزائن الملابس والرفوف في حياته، من مرحلة الطفولة حتى الســـن المتقدمة في العمـــر (كانت الأكفان التي تخصه من ضمنها). وتوســـع بشكل خاص بالحديث عن رفوف الكتب في شقة «زغرب» التي عادة ما كانت تسقط منها مختلف أنواع الوثائق، والملصقات، والميداليات. كانت إحدى الملصقات تثني على «جهوده التربوية المتفانية بالنيابة عن جيل الشـــباب في أثنـــاء حرب التحرير الوطنية»، وأخرى تمتـــدح «جهوده المتفانية في تطوير وتعزيز الحيـــاة الاجتماعيـــة والثقافية فـــي الدولـــة». وكانت هناك أخرى ســـميت «شـــهادة المعلم الحزبي»، وهذا ذكرني بالزمن الـــذي كانت تدرس فيه القراءة والكتابة والحســـاب على وقع

هدير القاذفات الألمانية من جهة وقاذفات الحلفاء من الجهة الأخرى، ووقع أصوات المدافع عن بُعد، وأصوات الرشّاشات عن قرب. كان تلامذتنا يجلسون تحت إحدى الأشجار وألواح الأردواز في أحضانهم، والطباشير في أياديهم، ليتعلموا المفردات، والقراءة، والحساب، وعين المعلم الحزبي تراقبهم من كثب.

في أحد الأيام بدأت أبحث في الوثائق المصفرة، ولم أجد سوى ورقة وحيدة مدموغة بالختم الحكومي من أعلى. لم أرَ فيها إلا اسمي مشفوعا بأنني حصلت على ميدالية لقاء خدمة الوطن. جلست هناك أفكر مع نفسي، أي نوع من الأوطان يكون هذا الوطن إن كنت قدمت له من الخدمة ما يكفي ليستحق ذلك التكريم وبعد ذلك أنسى أنني تلقيتها؟ «نعم، جلست هناك ممسكا بتلك الورقة وفجأة، في لمحة بصر، تبدد الخوف من أن حياتي ذهبت هدرا. نظرت إلى الورقة من جديد، وكانت موجودة بكل تأكيد. بدا الأمر وكأنه حدث البارحة ...».

أصل إلى «زغرب» وليس لدي فكرة عما أفعله هناك، ولكنني باللباس الرسمي الكامل من ربطة عنق وغيرها (كان ذلك معاناة حقيقية لا يتخيلها المرء حتى من ألد الأعداء). ينمّ المدرج الذي أدخلت فيه عن جو رسمي، فالناس يتهامسون ويترقبون الآتي من دون وجود حتى ولو ابتسامة واحدة في المكان. ومن ثم يدخل مدير فرع الجامعات الكرواتية إلى المسرح حاملا مجموعة من الأوراق المهمة تحت ذراعه. «الفارس الذي يستحق الشهادة الأولى للمساهمات الرئيسية في تعزيز ونمو وتطوير مستمر للتعليم

والثقافة في الجمهورية الكرواتية الاشتراكية هو ...»، ثم يقرأ اسمي بصوت عال.

ينتمي بابا إلى الجيل الذي آمن بحق أنه كان يبني مستقبلا أكثر إشراقا. كان قد انضم إلى حركة المقاومة كواحد ممن اقتنعوا بمناهضة الفاشية وشعر بأنه قد ربح الحرب. إن كان قد انتهى به الأمر في أحد المعتقلات لمن يشك في ولائهم السياسي، فلا بد أن يكون ذلك بسبب تصريحه علنا في مكان ما عن رفضه لوجود المعتقلات الستالينية. وعند إطلاق سراحه، وهو «لم يزل متشبثا بمعتقداته»، عاد «ليبني مستقبلا أفضل»، ولكن عندما تقاعد من الخدمة كان قد فقد أوهامه، وكذلك الاهتمام «بكتبه». هنالك استرجع أطياف الناس الذين سيحطمون كل شيء آمن به في نهاية المطاف، وكثير منهم، مصابون بوهن لا يمكّنهم من تحمل غريزة حب البقاء، كانوا من الجيل الذي ينتمي إليه نفسه. وحالما تخلى عن كل ما كان يعرفه، فتح النافذة ليأخذ نفسا عميقا ويتفحص الدمار. لقد نكص الزمن، إذ عاد إلى حيث كانت البداية. فقد عادت الحرب من جديد، وعادت المعتقلات والأسلاك الشائكة.

تساءلت إن كان أحد سيقرأ ما كان عليه أن يقوله. فالأحفاد الذين أمل بهم، إن وجد له أحفاد، سيتكلمون اليابانية. أما أولجا، التي سمعت تلك القصص منه آلاف المرات، فكانت أكثر اهتماما بالوقت الذي تستطيع فيه صبغ جدران المنزل باللون الأبيض. وعبر السنين، تحول بابا من ضحية إلى جلاد، وحوّل ماما إلى أم مؤمنة يجلدها بكلماته من دون توقف.

كان باســتطاعتي أن أصور بابا هكــذا، وهو يضمد الجدران بشكاواه، مرســلا إشارات لا يتمنى أحد أن يســتقبلها، ومبررا وجوده وذاته، ومراجعا الإهانــات التي تعرض لها، مقتفيا إياها قائمة تلو الأخرى في الهــواء، ومغتاظا من خيبة الأمل والدناءة وقذارة الخيانة الإنسانية. تصورته وهو يقف في منتصف الغرفة في بيجامته، بأزرارها العلوية المفتوحة وأنبوب القســطرة البارز من أســفلها، وهو يطلــق جحافل من الكلمــات الانتحارية التي تصطدم بالجدران، تاركة خلفها بقعا من الدماء.

فكــرت في جــوران أيضــا، وكان يتحدث عــن حصته من الإهانات مثله مثل والده. ومما لا شك فيه أنه أخذها معه إلى اليابان، مهربا إياها عبــر الحدود، مثل صندوق للمجوهرات. كان مثل والده مصابا بعدوى - «عدوى» كلمة استخدمها والده في مكان مــا - الإقصاء، بما فيه المحــو، والتصفية، والنفي، والطرد، والمنع، والاســتثناء، والترحيل... وأنت اخرج، لا مكان لك هنا!

لم يعد جوران يحبني، وذلك كان ســبب رفضي الذهاب معه إلى اليابان. حدث الأمر بهدوء، وتدريجيا، ومن دون سبب محدد. عمــل جــوران كل ما في وســعه: فقد فعل كل شــيء لينبه قلبه ويجعل نبضه يتســارع؛ فلم يكن يعتقد أن الحب يمكن أن يتوارى هكذا. ولكن، وبالتدريج، كان شعوره نحوي يتحول إلى شعور من تعرض للإهانة. ربما كان لدي الشــعور نفســه، ولكنه كان نائما في داخلي. فمن الصعب استكشــاف مواقع الضعف والإحساس بالعدوى وهي تلج عروقنا.

كان جــوران مثل بابا تماما. فحالما يحقق نصرا، كان ينســبه ذهنيا إلى بلدة «ن» التي يعشــقها. وكلما عظمت إنجازاته، كلما ازداد تجاهــل تلك البلدة له. فالشـــيء الوحيد الذي كان محط اهتمام تلك البلدة هو إخفاقاته،. ذلك ما كانت البلدة ترغب في ســماعه، لأنها تثبت أنهم كانوا على حق في نظرتهم إليه. لذلك، فبالنســبة إلى جوران، وبابا، كانت الدولة مقسمة إلى معسكرين متصارعين ومتســاويين في الحماسة: الضحايا، والجلاّدين. ثم إنني ولأول مرة أدركت أنهما على حق في شيء: لعل تلك الدولة بائــدة الآن لأن من ســكنها في الواقع لم يكن ســوى الضحايا، والجلاّدين. الضحايا والجلادين هم من يتبادلا الأدوار من وقت إلى آخر.

كيف للمرء أن يتحرر من الماضي، كنت أتساءل من دون توقف ... طلبــت من طلبتــي أن يتصالحوا مع الماضــي كخطوة أولى ضرورية. قدمــت لهم الماضي الذي خلا مــن الألم في محاولة لحمايتهــم كمــا يفعل الوالــدان لحماية أطفالهمــا، وكما يفعل أطفالهما في حماية أصدقائهم، وكما فعلت أمي لحمايتي، ووالد جــوران لحماية ابنــه. ولكن، كلا، لا يمكــن التحرر من الماضي، هناك النســيان فقط. وهذا ما تقوم بــه تلك المحّايات الصغيرة الرائعة فــي أدمغتنا جميعا. كل واحد منا يجر خزانة من ورائه، وكل خزانة لها هيكلها الخاص الذي ســيتهاوى عاجلا أم آجلا، متنكــرة، بطريقة تريحنا تمامــا، مثل الوثائق التــي تهاوت عن رفوف بابا. إن الماضي هو «تركيبتنا» ونحن بلا خبرة، ســوى أنه تركيب بذريعة فنية. بلمســة فنية هنا وأخرى هناك، هنا لمســة،

وهناك لمسة، لمســات في كل مكان. إعادة التهذيب والتنقيح هي آداتنا الفنية المفضلة. كل منا قيم على متحفه الخاص. ونحن لا نســتطيع التصالح مع الماضي إلا إذا وصلنا إليه، إلا إذا غرسنا إصبعا في سده الصخري مثلما فعل «هانز برينكر»، وهو الصبي الذي أنقذ هولندا من الغرق. اغرس إصبعا في سدك الصخري. املأ شاشــتك بالصور. انفض الغبار عن حياتك. قم بالتغييرات من وقت إلى آخر. تخلص من بعض الأشــياء. اكشف «أ» واخفِ «ب». امح كل البقع. التزم الصمت، واعتبر لســانك سلاحا. فكر فــي أمر وصرح بغيره. اســتعمل العبارات الرنّانــة للتعتيم على نواياك. اخفِ ما تؤمن به، وآمن بما تخفيه.

لقــد ســئمت مــن التفكيــر فــي كل تلــك التكــرارات، والاســتنتاجات، والشــكاوى والتبريرات المتجددة، وفيروس البؤس الذي ينتقل بالعدوى، والحبل الســري الذي يحيط بنا ويحصرنا، رابطا إيانــا معا في حلقة مروعة، ومؤلمة، ودموية تدرسنا درسا من دون توقف - الوالدان، والأطفال، والأحفاد، والشانق والمشــنوق، والضحية والجلاد، والحارس والسجين، والقاضي والمتهم.

احتجت استنشــاق الهــواء الطلق، فرميت بدفتــر بابا أرضا وســحبت معطفي وخرجت. مشيت عبر شــارع «زيدياك» بعض الوقــت، ثم دخلت مقهى «دي فيردوينين مينار»، حيث اعتدت أن أتناول القهوة من وقت إلى آخر. اتخذت مكانا لنفسي على البار وقمت بالطلب. ساعدت همهمة الأصوات البشرية والحرارة التي تنفثها تلك الأجســام على تهدئة أعصابي. كنت بحاجة إلى لحم

بشـــري دافئ يطفئ الألم المتفجر بين أضلاعي كما يطفئ المرء سـيجارة. كان يجلس بجانبي رجل تبادلت معه أطراف الحديث، وتناولنا بعض الشراب، وتبادلنا النظرات، ومسّت أجسادنا بعضها ببعض: فقد كان كلانا يسـعى إلى صفقة هامشـية تنطوي على مصلحــة متبادلة ومزيجا من سـوائل الأبدان. نجحت الصفقة. حصلـت على ما أحتاج إليه - سـلوى امتهـان الذات - وها قد اختفى الألم.

في ضـوء الصباح الباهت القادم عبـر النافذة لمحت عيناي الناعســتان ورقة نقدية على المنضدة التي بجانب السـرير: لقد ترك الرجل الذي لم يتوافر لي الوقت لرسم صورة له في مخيلتي ورقــة نقدية مــن فئة مائة جيلدر كتذكرة. ارتسـمت ابتسـامة على شـفتيّ. «يا للهـول! مائة جيلدر مقابل البغـاء»، كما يقول الهولنديـون. لقد غاب عن ذهني تماما أنني أسـكن في المنطقة الحمراء من أمستردام!

ذكّرني مجمع محكمة الجزاء الدولية لمجرمي حرب يوغسلافيا السـابقة، بالهندسـة المعماريـة الاشـتراكية في السـتينيات والسبعينيات، التي أفسحت وظائفها المجال لمُثل المستقبل المشرق، والأممية، والعدالة للجميع. كان هذا هو الأسلوب المعماري الذي تبنته الأمم المتحدة في المناطق المتواضعة من هولندا. كان القصد من أسـلوب بناء محكمة الجزاء الدولية أن يشعر الجميع بأنهم في «بيوتهم»، بمن فيهم مجرمو الحرب اليوغسلاف، على الرغم من أنني لن أفاجأ إذا مـا عبر أولئك المجرمون عن خيبة أملهم تجاه التصاميم الداخلية المتواضعة.

بعد إبــراز التذاكر، والخضوع لتفتيش دقيــق وترك حقائب الظهــر في الخزائن الشــخصية، عبرنا أنا وإيجــور آخر نقطة تفتيش، وأخيرا نزلنا من على درج معدني - يشــبه ذلك الموجود في الســفن - إلى قاعة المحكمة. كانت قاعة الجمهور مقسّــمة إلى جزأين، واحد على اليســار للصحافيين، والآخر على اليمين للجمهور. حصلنا على ســماعات للأذن ونحــن في طريقنا إلى القاعة. دلت إشــارة صغيرة في الســماعة على اللغات المتوافرة علــى القنوات المختلقــة. كانت القناة رقم ســت مخصصة للغة تسمى «ســي بي أس»، أو الكرواتية/البوسنية/الصربية. جلسنا مقابل جدار زجاجي مغطى بسلســلة من الستائر الدوارة. كانت هناك شاشــات تلفزيونية معلقة في الزاوية اليمنى، وأخرى في الزاوية اليســرى. في الســاعة التاســعة تماما ارتفعت الستائر ووقفنا عندما دخل القضاة قاعة المحكمة. القضاة الثلاثة، الذين كانــوا يرتدون أروابا باللونين الأحمر والأســود، اتخذوا أماكنهم علــى المنصة في منتصف القاعة. أما مســاعدوهم الثلاثة، في أروابهم الســوداء ذات الياقات البيضاء، فقد جلسوا من تحتهم مباشرة. اتخذ مستشارو الادعاء، والدفاع مكانا أدنى منهم، يقع على جانب. كنا نحن بذلــك قادرين على رؤيتهم جميعا من دون أي عائق. احتفظ كل منهم بجهاز حاسوبه الخاص. جلس المتهم بجانب محاميه. كان رجلا في متوسط العمر، مرتديا بذلة رمادية لتناســب ذلك الموقف، ذا عينين باهتتين وبشــرة حنطية، ووقفة باهتة تشبه انتصاب كيس بطاطس. لقد خاب أملي، وكذلك أمل «إيجور»، كما تخيلت. لقد توقعنا مجرما، ولكن ما شاهدناه كان

رجلا، رجلا يمكن نسيان ملامح وجهه بسهولة. باستثناء شيء واحد: أن شفتيه نزلتا إلى أسفل، وفكّه كان مضغوطا تماما. كان وجهه نسخة طبق الأصل عن وجه «ميلوسيفتش»، وكذلك نسخة عن وجه «تودمان»، بالأسنان المطبقة نفسها، والشق الرقيق المنحني في الفم على شكل حدوة مقلوبة، أشبه ما يكون بالوجه المسطح الذي نراه في رسومات الأطفال. وجه شرير.

نادى المدعي العام على شاهد للقدوم إلى المنصة. نزلت الستائر لبعض الوقت، ثم ارتفعت كلها فيما عدا تلك التي تحجب الشاهد. بدت صورة الشاهد غير واضحة على الشاشة التلفزيونية، ولكن كان في إمكاننا سماع صوته. من وقت إلى آخر، كانت الكاميرات توجه نحو الجمهور، وكنا نرى وجوهنا على الشاشات. كان في مقدورنا أيضا أن نرى انعكاسات وجوهنا على الجدار الزجاجي، وقد ركبت على وجوه الناس الموجودين من خلفها.

في البداية تابعنا المحاكمة من خلال الجدار الزجاجي، مع إلقائنا نظرة بين الفينة والأخرى على الشاشات، ولكن تدريجيا وجدت عينيّ تتريثان على الشاشة، وكأني وجدت صورتها أكثر جدارة بالثقة من المشاهد الحية. الكلمات التي سمعناها، ونحن نغير من قناة إلى أخرى لنسمع كيف تبدو تلك الكلمات في اللغات الإنجليزية، أو الفرنسية، أو الهولندية، لم تكن كاذبة بأي حال. حقيقة أن الجدار الزجاجي الذي يفصلنا عن الحدث لم يعد بعد موثوقا في أنه أكثر حقيقة من «الواقع». فكلاهما - الأول الذي نتجت عنه الأكاذيب تلو الأكاذيب، والآخر الذي وعد

بأن يكشف الحقيقة كلها، ولا شيء غير الحقيقة - تساويا في الغرابة، إن كانت تلك الكلمة المناسبة.

ركز الاستجواب على مزرعة لتربية أسماك الشبوط. كان والد يوروش مديرا لمزرعة أسماك في بلدة صغيرة في البوسنة. كانوا يستجوبونه حول الإصلاحات التي تم القيام بها في سطح المبنى الرئيسي الراشح، وحول الصفيحة المعدنية التي استخدمت لتغطية السطح وتكلفتها، وحول من كان المعنيِّ بدفع التكلفة، وحول الشاحنة والسائق، وما إلى ذلك من أشياء كثيرة. كان القصد من جمع تلك التفاصيل المسهبة، والمملة، التي لم نفهم منطقها البتة، هو معرفة إن كان لدى والد يوروش، وشريكان آخران وقت فراغ كاف لترك العمل والذهاب إلى كوخ قريب حيث كان يُعتقل فيه مسلمو البلدة، وإجبارهم على القيام بممارسات جنسية مذلة - فقد كانت الممارسة المفضلة عندهم، كما زعموا، تلك التي تضم «الوالد وابنه» - ومن ثم كانوا يضربونهم بأيديهم التي تفوح منها رائحة سمك الشبوط النتنة حتى الموت، ثم يرمون بجثثهم في المستنقعات.

بدا المدعى عليهم في تلك المسرحية كممثلين هواة: فكلامهم أشبه بكلام الإنسان الآلي منه بكلام البشر، وقد حولوا الشر إلى مؤامرة آلية، بدرجة من الآلية كغيرها من القصص. لم يشعر أي من المتهمين بأدنى درجة من الذنب. من بين كل أولئك الذين دمروا الوطن - القادة، والسياسيون، والجنرالات، والجنود، والمحتالون، والمجرمون والمافيات، والكذبة، واللصوص، والأنذال، والمتطوعون - ولا واحد منهم كان مستعدا أن يخرج

علينـــا ويقول: «أنا مذنب» لم أســـمع كلمة «مذنب» منهم من قبل قط، ولم أسمعها حين كنت جالسة في قاعة المحكمة مع إيجور، ولا أتوقع أن أســـمعها منهم أبدا. هل تشـــعر بالذنب عندما تدق مســـمارا في الجدار؟ كلا. هل تشعر بالذنب عندما تعلق صورة على ذلك المســـمار؟ كلا. هل تشـــعر بالذنب عندما تضرب مائة شخص حتى الموت؟ كلا، بالطبع لا.

تســـاءلت كيف كانت الأمور مع مئـــات الآلاف من الناس غير المعروفـــين الذين قد يكون حماســـهم المتقد شـــكل وقودا داعما لتلك الحرب. هل شعروا بالذنب؟ وماذا عن جمهور السياسيين، والدبلوماسيين، والمبعوثين، والعسكريين الأجانب، الذين التصقوا كالغراء في كل مكان عبر البلاد؟ هم لم يتلقوا الأموال الســـخية فقـــط؛ بل إنهم حصلوا على لقب المنقذ، ناهيك عن إطراء الأمم المتحـــدة، أو أي تدرج مؤسســـاتي يصادفهم ليمثلـــوه. (ولم تكن مناصبهم في كرواتيا، والبوســـنة بتلك المشـــقة: فكانت الفنادق تعمل بشـــكل مقبـــول، وتوفر الطعام المناســـب، وكان الشـــاطئ الأدرياتيكـــي يقبع بقربهم.) هل شـــعروا بالذنب؟ هم أيضا كانوا يقومـــون بواجبهم، مثلهم مثـــل القنّاص الذي تمركـــز فوق التل واقتنص المرأة في شـــوارع سراييفو. مثلهم مثل المصور الأجنبي الـــذي أخذ صـــورة للمرأة (بالرغـــم من أنه لم يخطـــر في باله الاتصال بسيارة إســـعاف) وفاز بجائزة أفضل صورة حربية في تلك الســـنة. حتى إن تلك المرأة المســـكينة التى كانت تتلوى على الرصيـــف والدم ينزف منها، كانت هـــي أيضا، بغض النظر عن عدم إدراكها لذلك، تقوم بواجبها من خلال رســـم صورة حقيقية

للحرب. من المسؤول عن موت والد سليم؟ من المسؤول عن موت يوروش؟ من المسئول عن مسمرتي وإيجور في مقاعد المحكمة، وكلانا ينشد الغفران.

ها أنا وإيجور كنا نشاهد الشاشة التلفزيونية! كانت صورة لواقع منحرف كنا فيه جميعا، غير مبالين بالانحراف، شركاء في الجريمة. من حيث المبدأ لم يكن ثمة فرق بيني وأنا مسمرة في مقعدي أنظر إلى الشاشة التلفزيونية، وبين والد يوروش الذي تشبث في كرسيه خلف الجدار الزجاجي. ففي عالم التوسط - التوسط للتوفيق بين المتنازعين مرات ومرات - كان كل منا مذنبا. لم تكن الجريمة واقعية، ولم يكن كل شيء واقعيا. شعرت وكأن الأمر أشبه ما يكون بالضغط على فأرة في جهاز الحاسوب للتخلص من القضاة والمتهمين، ونحن، الجمهور، ضغطة واحدة سعيدة تعيد التوافق من جديد. كان ثمة شيء واحد يتصل بالواقع: هو الألم. كان الألم الشاهد الصامت، عديم الفائدة، والحقيقة المطلقة. ذلك الألم الذي يتدفق عبر شرايين سليم، ويظهر في أوداجه. ذلك الألم الذي يتفجر مكبوتا في داخلي، وداخل إيجور. ذلك الألم الأصم، والأخرس، والأعمى الذي يمكن أن يطيح بنا فجأة، كان يشير إلى خلل جذري .

لذلك جلست هناك مواجهة الجدار الزجاجي متأملة... متسائلة: ماذا سيحدث، لو أن كل ذلك الألم تجمع في العقل الواهن «لأوسكار ماتزيرات» ووقف وفتح فمه وأطلق صرخة مدوية؟ تخيّلت الجدار الزجاجي وقد تناثر في آلاف القطع الفضية الصغيرة، وكذلك شاشات الحواسيب، واللمبات،

والنظارات، وأغطية أسنان الموجودين البورسلين - تهشمت جميعها وتناثرت إلى قطع صغيرة؛ تخيلت ذلك الصوت النافذ، المدوي وهو يطلق النار على رأس كيس البطاطس الرمادي، رأس والد يوروش ويرسله عاليا في الهواء، ويضرب رؤوس كل أولئك المجرمين الدمويين ويرسلها عاليا في الهواء، مفجرا طبلات آذانهم وقلوبهم القاسية...

ألقيت نظرة باتجاه إيجور. شعر بتلك النظرة على وجهه، فاستدار ملقيا نظرة متسائلة نحوي. نزعت السماعات عن أذنيه، وخاطبته قائلة: «لنخرج من هنا».

كانت مغادرتنا لقاعة المحكمة تشبه مغادرة شخص لجنازة من دون أن يكون متأكدا من هوية الشخص المتوفى.

«إلى أين؟»

أجبت: «إلى المنزل. إلى أمستردام».

استقللنا الترام. منيت زيارتنا لمحاكمة الجزاء بالفشل: فقد ذهبنا لمشاهدة عقاب فوري لوالد يوروش، لكننا عدنا صِفْر اليَديْن.

قال إيجور، متوقعا ما كان يجول في خاطري: «محكمة لاهاي ليست محكمة نوريمبيرغ».

«هذا مؤكد».

«ولم تكن كمحاكمة إخمان في القدس».

قلت بما يشبه الزمجرة: «لقد أوضحت وجهة نظرك».

«ما الأمر؟ لماذا تتصرفين بهذه الغرابة؟»

«لأنه ينبغي ألا تستخف بمؤسسات العدالة».

«يا إلهي! هيا اسـمعوا ما تقول! مؤسسات العدالة. لم أعرف أنك رومانسية، يا رفيقة».

«وأنا لم أعرف أنك شخص ساخر، وهذا لا يليق بك».

«حسنا، حسنا. لا تعقدي الأمور».

«انظـر إليّ! أولئك الناس يحاولـون تنظيف القمامة التي تركناهـا وراءنا، لأننا لـم نكترث بتنظيفها بأنفسـنا، ولأنها لا تصدر رائحة كريهة بالنسـبة إلينـا. ولكنهم لا يمثلون في أفـلام أمريكية، لذا لم نر والد يوروش يشـنق كما كنا نرغب أن يحدث».

رد قائلا: «ربما أنهم سيطلقون سراحه بعد كل ما فعله».

«الأمر يستحق العناء إذا ما عاقبوا شخصا ما».

«كل هذه الضجة الكبيرة من أجل معاقبة مجرم واحد».

«ما الذي يضيرك؟ أنت لا تدفع من جيبك، أليس كذلك؟».

تذمر قائلا: «حسـنا. خـذي الأمور ببسـاطة، خذي الأمور ببساطة. أنا لست كارادزيتش، أليس كذلك؟ ولا ملاديش».

«أولئـك الناس يحاولون مسـاعدتنا، ونحن نتفـرج من وراء الكواليس، سـاخرين أشـبه ما نكـون بالمغفلين! أنـا، وأنت لم يكـن حتى لدينا الصبر الكافي للجلوس بضع سـاعات في أثناء المحاكمة».

«لكنها محكمة، وليست كنيسة».

«لن يضيرنا شـيء لو اعتبرناها كنيسة، وجلسنا حتى ينتهي الأمر، تواضعا ليس إلا».

«حسنا، لم أكن أنا من أراد الخروج».

احمرّ وجهي. لقد كان محقا. شعرت برغبة في جلده. رماني بنظرة نافذة. شعرت بأنه يقرأ أفكاري. كان المسافرون في الترام ينظرون نحونا.

توقف الترام عند تلك اللحظة وسحبني إيجور من مقعدي.

«هيا. لننزل».

قلت متذمرة ونحن في الشارع: «لماذا أردت أن تنزل؟»

«أولا لأنك أحرجتني بتحدثك بصوت عال، وأيضا لأنني أريد أن أعرفك على صديقتي».

«عنـــدك صديقة في لاهاي؟» ســـألت مثـــل طالب في فصل لتدريس اللغة الكرواتية للأجانب.

أجاب قائلا: «ما الأمـــر الغريب في ذلك. هذا لا يختلف عن القول «عندي صديقة في بيلوفار».

داهمتني نوبة مفاجئة من الغضب علقت ككرة في حلقي، وقد قمت بمحاولات عدة للتنفس بعمق.

قال مازحا: «لا تنفثي أنفاسك في وجهي الآن».

بصقت الكرة غير المرئية من فمي وتمكنت من التنفس أخيرا.

توقف إيجور أمام متحف موريتسهويس».

«تأخذني إلى متحف آخر؟»

رد قائلا: «هذا هو المكان الذي تعمل فيه صديقتي».

«صعدنا درجا خشـــبيا مغطى بســـجادة حمراء سميكة. عند نهاية الـــدرج انعطف «إيجور» إلى اليســـار. علّقـــت على جدار الغرفة الأولى بجانب الباب لوحة «فيرمير» الشهيرة «فتاة بقرط من اللؤلؤ».

«إذن، تلك صديقتك!».

«أجل، هذه صديقتي».

كنــت أعرف تلك الصورة - فقد جئت هذا المتحف من قبل - ولكنني لم أبح بذلك. لقد حبســت الصورة أنفاسي. تبدو اللوحة الأصلية تقليدا باهتا للوحات المستنســخة الكثيرة. في أول مرة رأيت اللوحة، اندهشت من إغراق اللون الأزرق الفاتح في عمامة الفتاة واللون الذهبي في ملابســها، كانا فاتحين أكثر بكثير من اللوحات المقلدة اللاحقة.

قال بحذر: «أنت تشبهينها بعض الشيء».

«لــم أعد غاضبة منك. فقــد حصلت على درجة الامتياز في الفصل، ولا تحتاج إلى أن تتملقني».

«ربما تكونين أختها الكبيرة. لا، ليس هذا. هناك شــيء يعبر عنه وجهك. إنه يذكرني بالسمك الإنساني».

«كيف لك أن تقول مثل هذا الشيء! هل سبق أن رأيت السمك الإنساني؟»

أجاب معترفا: رأيت صورته فقط».

«أمــا أنا فرأيتــه. عندما كنت طفلة، ذهــب تلاميذ المدارس اليوغسلافية الابتدائية في رحلة للكهوف في بوستيانا».

«إذن؟ كيف هو شكلها؟»

«مثل شيء يعيش في كهف. إنها فريدة من نوعها».

«آه، هذا ما أسميه بالوصف العام».

«حســنا، إذن. يبلغ طول الســمك الإنســاني ما بين عشرة، وخمسة وعشرين سنتيمترا، وهي مخلوقات برمائية منبوذة. هي

حالة فريدة من التحول الفاشـــل. تتنفس من خياشـــيمها بشكل رئيسي، ولكنها تستطيع استخدام جلدها للتنفس أيضا. عمياء، ولهـــا أذرع، وأرجل نوعا ما، يبدو أنها تم التخلص منها مع مرور الزمـــن: فالأرجل مجرد جِدعتـــين، والأذرع تنتهي بأيد لها ثلاثة أصابع. يبدو أنها تســـتطيع البقاء من دون طعام لســـنوات عدة، وعمرها طويل بشـــكل لافت - فيمكنها العيش لمائة عام أو أكثر. ليـــس لها لون معـــين، وجلدها الأبيض الباهت شـــفاف. يمكنك رؤية الخياشيم المحمرة قليلا والشرايين الدقيقة جدا من خلال جسمها، بالإضافة إلى قلب صغير. باختصار، إنها هجين فاشل ما بين الســـحليّة، والسمكة، والجنين البشري. لقد كانت السمك الإنســـاني معجزة يوغســـلافيا. كان ينبغي علينا أن نضعها على علمنا بدل النجمة الحمراء. إنها «إي. تي». خاص بنا».

قال بالإنجليزية: «رائع جدا، يا رفيقة».

«أوه، هناك شيء آخر. أعتقد أنها توالدت في المرحلة اليرقية، لكنني لست متأكدة».

«من أين لك كل هذه المعلومات؟»

«ليس لدي أدنى فكرة. وهناك شيء آخر ...».

«ما هو؟».

«الســـمك الإنساني آكل لحوم البشر. فهناك أوقات تأكل فيه صغارها لسبب ما».

قال إيجور، وقد بدا أن عقله في مكان آخر: «حســـنا، حسنا. إذن أنا محق بعد كل هذا».

«ماذا تقصد؟».

«خرجت فتاتي من الكهف فريدة من نوعها، نموذج متوطن».

«أخبرني بالمزيد عنها».

«أكثر ما أحب فيها لون بشرتها. إنه بلون أعمدة الرواسب البلورية الهابطة في المغارات».

«تقصد أعمدة الرواسب الكلسية الصاعدة، أليس كذلك؟».

«توقفي عن ذلك!».

«لكنني أحب الطريقة التي تصفها بها. أخبرني بالمزيد».

«أشعر بأن بشرتها جافة، ولكنها رطبة الملمس. أحب تعبيرها اللطيف، المرن البائس. والثغر نصف المفتوح، والطبقة الجافة اللامعة على شفتيها، وقطرة الرضاب على جانبه. وتلك النظرة الندية، والدمعة التي على وشك أن تذرف. وتلك الازدواجية الساحرة للغياب، والحضور الدائم في العيون. إذا نظرت إليهما: فستبدوان أنهما تتبعانك. وتلك الياقة البيضاء التي تحتضن عنقها الرقيق. وذلك الوجه الصغير الجميل الذي يتلهف للارتماء بين أيد دافئة، واقية - أو تحت المقصلة... هناك شيء لم يكتمل عنها بعد. هي تشبه أيضا السمك الإنساني بتلك الطريقة. أتعرفين؟ أنه ليس لديها حواجب. فتاتي يرقة جميلة تنتظر التحول».

أخذني «إيجور» الذي كان يقف خلفي من كتفي وحركني ببطء نحو اللوحة.

«انظري الآن بتمعن إلى القرط في أذنها».

«حسنا ...».

«ماذا ترين؟».

«لا شيء. اللؤلؤة فقط».

كان باستطاعتي أن أرى انعكاسنا في الزجاج الذي يقي اللوحة. بقيت يد «إيجور» على كتفي.

«انظري بتمعن أكثر».

«لا أرى شيئا».

«هذا ما ظننته. انتظري لحظة. لدي مكبّر للأشياء».

«لديك مكبّر؟».

«نعم، عندي واحد في جيبي».

«ماذا لديك أيضا في جيبك؟».

رد قائلا: «هذا ليس من شأنكِ. فقط انظري إلى اللوحة من خلال المكبّر».

«أرى اللؤلؤة ...».

«وفي داخلها؟».

«انعكاس».

«محبوبتي، أنت حقا عمياء! انظري مرة أخرى».

«لا أعرف. في مثل هذا النوع من الأشياء، قد تتوقع أن ترى صورة تمثل الموت».

«ليس لديك فكرة. اللؤلؤة تحتوي على صورة لوجه «فيرمير»!

كان وجهه متهللا من السعادة.

سألته: «ما الذي يجعلك تظن ذلك؟».

«أتقصدين أنك لم تريها بعد؟».

«كلا. كفى، قل الحقيقة. أنت تخترع كل هذا».

«أليس ذلك رائعا؟».

«حتى لو افترضنا وجود ذلك الوجه، ألا يمكن أن يكون تقليدا في ذلك العصر؟».

واصل كلامه: «الرسام، هو من أتى بها إلى الحياة، موجود في اللؤلؤة التي في أذنها!».

قلـت: «هناك من يقول إن الفتاة في الصورة هي «ماريا» ابنة «فيرمير»، وفي هذه الحالة يمكن النظر إلى ذلك على أنه التمثيل الرمزي الأول للحامض النووي».

قال إيجور: «وهذا سـيجعل الصورة أكثر روعة! الأب والابنة يتّحدان في واحد معا».

«لكـن هناك أيضـا من يقول إن الصورة لشـخص مختلف تمامـا، أو لشـخصية خيالية. لقد رسـم «ريمبراندت» صورا لمرتـدي العمامة أيضا. يمكنك رؤيـة واحدة منها هنا في هذا المتحف».

«أولئك الذين يقولون إنها ابنته محقون».

قلت مازحة: «إن كان الأمـر كذلك، «ففتاتك» ترتدي «أباها» في أذنها».

قال مقاطعا: «أخبريني، من ترتدين في أذنك؟».

«لا أعـرف. تمامـا مثلما هـي لا تعرف أنهـا ترتدي صورة موجدها، وأباهـا المفترض في أذنها. ولكن هذا ما ينطبق علينا أيضا. ليس كل من يعيش هذه الحياة يحتفظ في جيبه بعدسـة مكبّرة».

«شارلوك هولمز فعل ذلك».

كنت أشعر بثقل يده على كتفي وبنفسه الدافئ الرقيق يداعب

مؤخرة عنقي. اعتدلت في وقفتي. أزحت يده بحذر واستدرت مواجهة إياه.

سألته: «وأنت؟ أين وشمك؟».

رد: «ليس لدي وشم».

«كان ليوروش واحد».

«يوروش؟».

«إنها علامة فارقة، العار الذي ورثه عن أبيه».

«ذلك الرجل مجرم، وليس أبا».

«أتتذكر الاستبيان الذي وزعته في أول يوم في الفصل».

«نعم، أتذكر ذلك الاستبيان الأخرق»، رد مركزا على كلمة «أخرق».

«حسنا، كانت إجابة «يوروش» عن سؤالي حول ما يتوقعه من الفصل الدراسي هي «أن أصحو».

«تبدو مبتذلة بعض الشيء وجهة نظري. مع ذلك لم يكن «يوروش» - كيف أصيغها - لم يكن الأكثر ذكاء في السقيفة».

«ماذا تقصد بذلك؟».

«لم يكن ذكيا بوضوح».

«قولك هذا ينقصه اللباقة».

«آسف».

«لقد أرسل يوروش كثيرا من إشارات الاستغاثة. لكننا لم نلاحظ ذلك، أو أننا لم نكترث بذلك. إنني أتحمل كامل المسؤولية».

«والآن يؤنبك ضميرك، أليس كذلك؟».

«حقائب اللعب تلك... كانت رســالة، رسالة لم نحل رموزها. كانت أمامنا مباشــرة، وكان هناك أنواع كثيرة من الإشارات في الهواء. لقد أصابنا العمــى. إنها مثل صورة «فيرمير» المفترضة عنــدك. ربما أن العالم ســيبدو مختلفا لو تجولنــا وفي جيوبنا عدســات مكبّرة. أو لو امتلكنا الموهبة التي أعطيت للشــخوص الخياليــة، موهبة فهم لغة النبات والحيــوان، أو حتى فهم اللغة البشرية فقط، فهم كيف يتكلم الناس».

قال إيجور: «انســي ذلك يا رفيقة. الناس لا يتكلمون؛ الناس يتكلمون كلاما فارغا. لنوقف النقاش الآن. إنهم يغلقون المتحف. حــان وقت الذهاب. هل لــي أن أدعوك إلى تناول الشــوكولاتة الساخنة؟».

كنا آخر المغادرين، ولكنني تمكنت من شــراء تذكار من متجر بيع الكتب في المتحف: مثقلة زجاجية بيضاوية. كان تحت المثقلة صورة مقلدة لفتاة «إيجور».

كان الثلج الخفيف الناعم يتساقط عندما خرجنا من المتحف. عبرنا الســاحة الصغيرة ودخلنا إلــى الكافتيريا. وجدنا مقعدا بجانب النافذة، وطلبنا الشــوكولاتة الساخنة. والآن ما إن بدأت الحديث عن موت «يوروش»، لم يعد يمكنني التوقف.

قلت: «ربما أكون أنا من سحب الزناد».

رد إيجور بسرعة: «أي زناد؟».

«أقصــد أنني قد أكون الملامة بالنســبة إلى موت «يوروش». أرسل إليّ إشارة، ولكنني فشلت في حل رموزها».

قال إيجــور: «هذا حِمل ثقيل! يجــب أن تتوقفي عن إضفاء

الرومانسية على موت «يوروش». ما الحكمة في ذلك؟ هل يجعلك ذلك تشعرين بأي راحة؟ الله وحده يعلم لماذا قتل نفسه. ربما أصابه مس من الجنون. ربما سئم من الرحلة وقفز من القطار. ربما كانت تلك طريقته في وداع من حوله. أخبريني، لماذا اخترتني أنا لتزعجيني بسماع كل هذا؟».

«لأنه لا يوجد أحد آخر يمكنني مضايقته».

«أمسكي أعصابك، هل يمكنك هذا؟ تلك الدموع ستفسد الشوكولاتة الساخنة».

«سأتوقف عن ذلك. أعدك. سأتوقف».

«أتمنى لو أعرف أي فيلم أوقعت نفسي فيه - البكاء عصرا؟ أو ربما تكون رواية «لدانتيل ستيل».

قمت بمسح دموعي.

«أنتِ فتاة طيبة! كنت أخشى أن تتحولي إلى حبّار».

ضحكت، وساعدني الضحك على الارتياح المؤقت.

قلت بحذر: «أخبرني بعض الشيء عن نفسك».

«ماذا تريدين أن تسمعي؟».

«شيئا عن حياتك. هل والداك ما زالا على قيد الحياة؟ أين تسكن؟ مع من؟ هل لديك صديقة؟ من هم أصدقاؤك»؟.

«أنت وأسئلتك الخرقاء من جديد! حسنا، أعرف ما تنشدينه، ولا داع لقلقك. بداية، أنا لست من يقتل نفسه من أجل مجرم مثل الذي رأيناه في المحكمة. والأهم من ذلك أنني لست ممن يفكرون في الانتحار. فأنا موسيقي، وحاد الذكاء».

لم نتحدث كثيرا ونحن في القطار في أثناء عودتنا إلى

أمستردام. كنا مستغرقين تماما داخل أنفسنا في أشياء مختلفة: فكان «إيجور» يقرأ صحيفة هولندية؛ بينما كنت أنا أجري بيدي فوق المثقلة البيضاوية غير الملفوفة، مفكرة في الصور التي كانت أمي قد وضعتها في خزانة الأواني الصينية. لم تحتو تلك الصور على صورة لوالدي. لم أستطع أن أتذكر والدي. إذ لم يكن في مقدوري ذلك. كنت في الثالثة عندما أقدم أبي على الانتحار. رفضت أمي الحديث عن ذلك. لقد أحرقت جسورها ولم ترد أن تعيد بناءها من أجلي. فأنا لا أعرف أي شيء عنه، ولا حتى اسمه. وإيغالا في طمس أي أثر له، سمّتني باسمها. ولا عجب أنها لم تحتفظ بأي أثر له في معرض خزانتها للأواني الصينية. كانت متيقنة تماما من أنها «أنقذتني» بإخراج والدي من سيرتي الذاتية. أنقذتني من ماذا - عِلمه عندها فقط. فقد فعلت كل ما في استطاعتها لملء جميع الشقوق التي يمكن أن أمر من خلالها، وأزالت كل الخيوط التي يمكن أن أجمعها. لقد رتبت جزءا كبيرا من ماضيّ، واحتلت مكان أبي أيضا وملأته بوجودها.

كانت اللؤلؤة غير المرئية في أذني فارغة. أمعنت النظر في سطحها الكدر باحثة عن صورة سحرية. لم أستطع التأكد من أن المشهد الذي برز في الصورة من ظلمة عميقة دامسة، كان قد حدث فعلا، أم أن الرجل الذي ظهر في الصورة كان والدي. لكن ربما كان هو. أنا في الثالثة من عمري، وهناك رجل يحملني على ظهره، وأنا متشبثة بشعره. الرجل يمسك بحذائي وكأنه نهايات وشاح يلفه حول عنقه. نحن نشق طريقنا عبر الثلج المتراكم العميق. إنه وقت الشفق، وهناك لمعة سحرية في كل شيء. فجأة

يحــوّل الرجل يده إلى كتفيّ ويســقط في الثلــج بحركة بطيئة. أشعر بسعادة لا يمكن وصفها.

قال إيجور رافعا رأسه عن الصحيفة: «أنت تخربشين أذنك».

«أنا أقوم بذلك؟».

«بماذا تفكرين؟».

«أوه، لا أعرف ... أنا لا أفكر في شيء، حقا».

في المحطة، ذهبنا كل في طريقه. استدرت لأرى قوامه الفارع وقد انحنــى قليلا تحت وطأة حقيبة الظهــر، ويداه في جيبيه. بدا في الظلمة من الخلف وحبات الثلج تنتشــر على ظهره أكثر عنفوانا ورجولة.

صحت: «سأراك في الفصل يوم الإثنين».

لم يستدر ولم يرد؛ إذ اكتفى برفع ذراعه ببطء ليؤكد سماعه لي.

٢٠

أخيــرا دعتني إنيس، وســيز إلــى المنزل. بصراحــة لم تكن إنيــس صديقة مقربة إلي بشــكل خاص. لقــد كان مجيئي إلى أمســتردام محض مصادفة. صادف أن كانت صديقة مشــتركة لنــا في أمســتردام، وكانت تلتقي إنيس من وقــت لآخر، وبينما كانتــا تتحدثان عن معارفهمــا وعملهما في الماضي، أعطت تلك الصديقــة عنواني لإنيس. كنت قد درســت وإنيــس معا بعض الوقت، وذهبنا في مواعيد غرامية معا لبعض الوقت. كان اســم صديقهــا فالديك، وكان جوران صديقــي. كانت تعرف فالديك من أيام المدرســة، وقد تزوّجا وهما في مرحلة البكالوريوس في الجامعة. لقد اختفيا من «زغرب» بعد تخرجهما، وسرت إشاعة بأنهمــا ذهبا إلى أمســتردام. تدبر فالديك أمــوره في الجامعة بالمتاجرة بأعمال الفنانين الكرواتيين الهواة، خاصة في إيطاليا. والآن افتتح معرضا له في أمستردام.

كنــت آمــل أن تدعوني إنيــس إلى منزلها حالمــا وصلت إلى أمستردام. فقد اتصلت بها مرات عدة مقترحة عليها اللقاء، لكنها كانت دائما تعتذر بلباقة بحجة أن لديها الكثير من المشاغل، وأن عليها الاهتمام بالأطفال قائلة: «حســنــا، سنلتقي، نحن الاثنتان فقط، لنعيد ذكــرى الأيام الخوالي؟». حاولــت أن أتذكر إن كنا فعلا أمضينا أي وقت معا من دون وجود جوران وفالديك.

كانت إنيس فتاة زغربية بامتياز، جذّابة، تعتني بنفسها بشكل مفــرط، وكان لديها أخصائيــة تجميل (ينبغــي عليك الذهاب

إليها. لن تتعرفي على نفسك!) ومصففة للشعر، وطبيب أسنان، ومصممة أزياء. اعتادت أن تبتاع ملابسها في لندن («فماركة تريستي للفلاحين!»). كان كل من كانت تعرف في خدمتها، من المرأة في مكتب التأشيرات («فيكيكا أنجزت تأشيراتنا في خمس دقائق!»)، من مجموعة الأطباء إلى مصففة الشعر إلى القصابين وعاملات التنظيف («ميلكيكا ممتازة، فهي تنظف النوافذ جيدا، ولا أحد يتفوق عليها في كي الملابس. وعندما تحتاجين إليها، تجدينها بالانتظار»). كان يزعجني ويدهشني في الوقت نفسه تأقلمها الحميم مع العالم من حولها، وقدرتها على تطويعه بالكامل لإرادتها، وشعورها بالارتياح المطلق مع من حولها - وكأنها سكين يقطع في الزبد - وعدم اكتراثها التام بمن يختلف معها، ومواكبتها لحياة الراشدين وهي لم تزل طالبة في الجامعة - وكأنها تتبوأ وظيفة بمرتب عال. كانت تتمتع بصفات «الفتاة الزغربية»: أنوثة ترثها الفتاة عن أمها، أو تكتسبها من ولوج الطبقة الاجتماعية الراقية، والنبرة العالية في بعض الأصوات، وميل للتركيز على المقطع الأخير في الكلمة، والأداء المنغم بين علو وانخفاض الصوت صُمم ليوضح أنها كانت مهتمة بمحدثها مهما كان. ولكن، بالرغم من أن ذلك الصوت كان مفعما بالعاطفة والتوافق، إلا أنه لا يترتب عليه أي التزامات.

لم أكن مشتاقة كثيرا لرؤيتها، ولكني تضايقت قليلا من أنها لم تتصل ولو مرة واحدة في الأشهر الماضية منذ عودتي إلى أمستردام. وضعت المساحيق لأول مرة منذ زمن طويل، وارتديت الأقراط، وحذاء بكعب عالٍ. بينما كنت أبحث عن منزلها في

شارع «بلوم»، شعرت بشيء من الخجل من رغبتي بالذهاب إليها متبرجة. كنت أريدها أن تراني في أحسن حال، مستخدمة الملبس لإخفاء واقع الحال.

لم تتغير إنيس قيد أنملة. عانقتني عند الباب، وأخذتني من ذراعي إلى داخل المنزل وهي تثرثر («تانيكا! استديري لكي أراك بشكل أفضل! يا إلهي، تبدين رائعة حقا! كفتاة في الخامسة عشرة! وذلك الفستان! هل اشتريته من هنا؟ مازلت أذهب إلى لندن عندما أحتاج شيئا. ينبغي أن تشاهدي «سيز» وهو يستشيط غضبا عندما أذكر لندن! يقول لي: «ما الذي يجعلك تعتقدين أنك لن تجدي واحدا هنا». لن تجدي مثله هنا. إنهم يبذلون كل ما في وسعهم في محلات الملابس في أمستردام، ولكن دون جدوى. فأي فتاة من بلدة «فيروفيتيكا» تلبس بشكل أفضل من المرأة الهولندية العادية. أنتِ لاحظت ذلك أيضا. أنا متأكد من ذلك»).

لو شاهدَنا أي شخص لاعتقد أننا صديقتان قديمتان، التقينا بعد فراق طويل، وقد جعلني حديثها المتواصل أعتقد ذلك أيضا. لقد شعرت بأنني لم أقم بالواجب المطلوب بإهمالي تلك الصداقة.

أخذتني إنيس في جولة بالمنزل قبل أن نجلس لتناول الطعام. أرتني أولا غرف الأطفال. («الأطفال الآن مع والدة سيز. أتمّ «بايت» السابعة لفوره، وماريكي ثلاث سنوات. هذه صورة لهما، بايت وماريكا، كما أدعوهما»). كان المنزل واسعا بأثاث بسيط، بالرغم من أن الجدران مغطاة بلوحات لفنانين كرواتيين سُذج،

قالت وقد لاحظت نظرتي: («أردت شيئا يذكرني بالوطن». «وشيئا لأري الهولنديين أننا لسنا متسولين، أنت تعرفين ما أقصد؟»). لمحت عيناي أعلام الحداثة الكرواتية على رفوف الكتب - الأعمال الكاملة «لكرليزا»، و«يويفتش» و«ماروش» («أحب أن أقرأ قصيدة لليويفتش قبل أن أخلد إلى النوم. ألا تقومين بذلك؟ أنت تقرئين أكثر مني بكثير، أنا متأكد من ذلك. أنت لا تستطيعين تخيل حجم الإرهاق الذي يسببه الأطفال لي!»). كانت ستائر النوافذ في المطبخ مصنوعة من شريط الزينة السلوفيني، وعلى عتبة النافذة كان يوجد رف خشبي يستقر عليه كعكعة زنجبيل. وهناك وضعت الهدية التي أحضرتها لها، علبة شيكولاتة «الكراش»، العلبة التي على شكل جواز السفر الكرواتي.

سألتني في المطبخ على استحياء: «وهل اختفى فجأة هكذا؟».

«من؟».

«جوران، طبعا».

«لم يختف. إنه في اليابان».

«هل تتواصلين معه؟».

«كلا».

«من كان يتوقع ذلك! الزوجان المثاليان! لا يمكنني تخيل حدوث ذلك لكِ!».

«على كل حال، هذا ما حدث».

قالت مازحة: «من مصلحتك أنك لم تتورطي مع «ميلوسوفيتش» هذا».

لم أرد. كنت مندهشـــة من أنها تذكرت أن جوران كان مصنفا رسميا على أنه صربي.

«لا تغضبي مني! فأنا كنت أمزح فقط. أســتطيع رؤية ما في داخلك، يا صديقتــي العزيزة. لقد أغلقتِ عليه قلبك. قال إنكم لن تفترقوا. لكنه حر طليق الآن. والمفتاح لم يعد في حوزتك».

لم يكن باستطاعتي سوى الابتسام من تلك العبارات الهزلية، واختفى التوتر فجأة.

قالــت: «لو كنــتِ تزوجت كرواتيــا كما فعلت أنــا، لكان أمر التخلص منه أسهل لك. وكنت متزوجة ثانية الآن».

«لقد فقدت فرصتي».

«سقط فالديك في الوحل ساعة وصولنا إلى أمستردام. فقد انخرط في الحشيش وما شابه ذلك. أعني أنه تورط حقا». لقد لفظت كلمة «الحشــيش» كتلطيف للتعبيــر، وقالته بهمس وكأن أهلنا ربما كانوا يتنصتون علينا.

«أين فالديك الآن؟».

«حتى الشــرطة لا تعرف أين هو. لكني لا أكترث بهذا الأمر. لم يعد فالديك يعنيني إطلاقا... حســنا، لنذهب لتناول الطعام الآن».

كان «سيز» يتكلم بلغة كرواتية لائقة. («أترين ما صنعت منه؟ لقد قمت بوظيفتي على أحســن وجه، أليس كذلك؟ بالرغم من أن ذلك من فعل والدتي، أليس كذلك يا سيز؟ أوه، على فكرة، ما أخبار عائلتكِ؟ لا أعرف حتى الذين مازالوا موجودين من طرفك فــي أرض الوطن..»). لم تتوقف إنيس عن الكلام طوال وجودي

هنــــاك. كانت مضيفة مثالية، إذ وضعت على المائدة أحســـن ما لديها مـــن الأواني الفضية («لقد أخرجتهـــا من أجلك، لأذكرك بالطريقة التي اعتدنا أن نعيشـــها، وقـــد أتتني من جدتي»). إنه نبيذنـــا وزيت زيتوننا. («نذهب إلى الوطن كل صيف. لدينا مكان صغير مناســـب في جزيرة كورشـــولا. لا بد أن تأتي لرؤيته يوما ما. ثم نعود من هناك محملين مثل الغجر بالنبيذ، وزيت الزيتون، ولحـــم الخنزيـــر المجفف، وكل ما يمكن أن تتخيّليه. يحب ســـيز الذهـــاب إلى هناك كثيـــرا، وكذلك الأطفـــال. ويهمني جدا أن يتحـــدث الأطفال اللغة الكرواتية. وكذلـــك يهم أمي، طبعا. هي تقضي شهرين كاملين كل عام مع الأطفال»). استمرت بالحديث مـــن دون توقف عن الشـــاطئ، والأطفال، ووالدتها، وأم ســـيز، الهولندية. كان من غير المحتمل أن أتحدث وسط هذا الصخب.

كان من الممكن أن يصيبني الملل في مناســـبات أخرى، ولكنني وجدت الحديث مريحا للأعصاب في ذلك المساء. كانت الثرثرة الخجولة بغنّتها المميزة أشـــبه ما تكون بالبلســـم. لأول مرة منذ وقت طويل بدت الحياة «عادية» بالنســـبة إلـــي. عاد الزمن كله مـــرة واحدة، وداوى الجراح. كنت أقف على أرضية صلبة أخيرا، مســـتمتعة بالدفء الحاني في كلمات إنيس. للحظة تخيلت أننا في «زغرب». صحيح أننا تقدمنا في العمر بعض الشـــيء، وأننا بصحبة ســـيز وليس فالديك، ولكن جوران سيعود مباشرة، فقد ذهب للتو لإحضار زجاجة أخرى من النبيذ...

«يجـــب أن تجربي كعكة بذور الخشـــخاش. لقد صنعتها لك خصيصا. شـــكرا لله على الحكم الملكي للســـلالة النمســـاوية/

المجرية، إذ مــن دونهم ما كنا عرفنا ماهيــة الحلوى الحقيقية، إن كنت تعرفين ما أعني. كان علي أن أحضر بذور الخشــخاش مــن «زغرب» أيضا. لم يعد ممكنا الحصول عليها هنا، ولا حتى من – ماذا ندعوهم؟ – آه، الأتراك». من الواضح أنها أرادتني أن أفهم إشارتها العنصرية الخفيفة، وأن أومئ بقبولها.

غردت: «فطائر، وبقلاوة، وكعكة الخشخاش».

قالت متذمرة: «أنتِ والحنين إلى يوغسلافيا». فاجأتني تلك الملاحظة. قالتها بنبرة وكأني لم أتوقف عن الحديث عن الوطن.

بدأت إنيس باستخدام ضمير الجمع عند تناولنا القهوة.

«نحن سعداء أننا اســتطعنا أن نساعدك. من النادر جدا أن يساعد الناس بعضهم بعضا هذه الأيام. لقد كنتِ دائما الأفضل في صفنا في المدرســة، لذلك قلت لســيز أنكِ الشــخص الذي يســتحق الدعوة. وقد ســمعنا كثيرا عن طلبتك هنا. وعن ذلك الفتى. إنه لأمر مرعب!».

لقد فوجئت مرة أخرى. أحسســت أن الحديث ســيقود إلى مكان ما.

رددت قائلة: «كان اسم ذلك الفتى يورروش».

قالت: «لكل جيل انتحاره».

«ماذا تقصدين؟»

«أقــدم واحد على الانتحار ونحن فــي الجامعة، هل تذكرين ذلك؟ ماذا كان اسمه؟»

«نيناد».

«هــذا صحيح. ذهب إلى الهند وعاد ليقتل نفســه. يا إلهي!

هل تذكرين كل الناس الذين ذهبوا للحج في الهند؟ أما نحن، أنا وأنت، فلم ترق لنا تلك الأفكار الهندوسية قط، أليس كذلك؟».

سألني سيز مقاطعا إنيس، وقد أسعدني ذلك: «هل اكتشفتِ أي شيء بخصوص ذلك الطالب؟».

أخبرته بكل ما أعرف.

ثم وجه الكلام إلي: «يؤسفني أن أخبرك هذا. لدي بعض شكاوى الطلبة منك».

نزلت عليّ تلك الكلمات كالصاعقة.

«أي نوع من الشكاوى؟».

«للطلبة الحق في تقديم الشكاوى إن شعروا بأن الأستاذ لا يقوم بواجبه، وينبغي علينا أخذ شكاواهم بجدية. المسألة أن الطلبة غير راضين عن الطريقة التي تدرسين بها الفصل الدراسي».

خرجت كلماتي بصعوبة: «هذا ليس صحيحا».

«أظن ذلك صحيحا».

«مم يشتكون؟»

«يقولون إنهم لا يقومون بأي شيء له علاقة بالتخصص. يقولون إن الأمر مضيعة للوقت».

«هم يقولون ذلك؟»

«يقولون إنه ليس لديك برنامج واضح، وأن محاضراتك تتسم بالفوضى. فهم لا يذهبون معك إلى المقاهي فحسب، بل إنك تلزمينهم بفعل ذلك».

«من يقول ذلك؟».

قال سيز بوضوح: «ليس لي الحرية لإخبارك بذلك».

«لا يمكنك القول إن الجميع اشتكوا مني!».

لم يجب سيز عن سؤالي.

حاولت إنيس أن تواسيني. قالت إنني كنت عمياء، لأنني رفضت أن أرى أن الأمور قد تغيرت. الناس هنا في هولندا لم ينحازوا إلى طرف معين، إذ رأوا أن المسألة بالنسبة إليهم هي «واحد زائد واحد يساوي اثنين»، أليس كذلك؟ قالت إنني كنت طيبة أكثر من اللزوم، وأفرطت في الاقتراب من الطلبة. «وأنت تعرفين المثل القائل: من يلعب بالنار، يكوى بها». «ارتعدت من سماع عبارة «يكوى بها»». أخبرتني بأن هناك مقترحا قد تم تقديمه إلى وزارة التربية الهولندية، وقد حضّره سيز بنفسه، يقضي بفصل اللغة الكرواتية عن اللغة الصربية في جميع الجامعات الهولندية، وهو أمر قد «تأخر كثيرا في ضوء الواقع السياسي الجديد». وإذا ما قبل مقترح سيز، فإنه، اعتبارا من الخريف المقبل، ستبدأ جامعة أمستردام بتدريس اللغة الكرواتية وآدابها، بينما ستبدأ جامعة «جرونينجن» بتدريس اللغة الصربية، وهو أمر طبيعي لأن تلك الجامعة تدرس اللغة البلغارية. وهذا يعني أن لدي فرصة كبيرة بالحصول على وظيفة دائمة في شهر سبتمبر. كلا، لم يكن لديهم أي مرشح آخر، لا أحد إطلاقا. لم يكن بإمكانها الحصول على تلك الوظيفة بسبب الأطفال، ولأن القوانين لم تسمح بأن يعمل الرجل، وزوجته في القسم نفسه، خاصة إذا كان أحدهم رئيسا للقسم. هذا بالإضافة إلى أنها لم تضع اللمسات الأخيرة على أطروحتها قط. قالت إنه ينبغي

علـــيّ أن أفكر بنفســـي، فقد بدأت أتقدم فـــي العمر، ولا يعقل أن تراودني العودة إلـــى زغرب. لن يكون بإمكاني الحصول على وظيفة هناك، وأنا أعرف طبيعة «أهلنا». «عندما ترحلين، فأنت تعتبريـــن رحلت للأبد. وهم محقون بطريقتهم. وتســـقطين بين مقعدين، ولن يشـــفع لك أن لديك ردفا كبيرا». أجل، ردف. كانت تلك الكلمة التي اســـتعملتها، ومجددا شعرت بتغير مفاجئ. كان ســـيز معي تماما، ولكن سيز ليس وحده. وحساسية الطلبة أكبر بكثير مما كنت أدرك فيما يتعلق «بالقضايا القومية». هكذا كانت إنيس مندهشـــة من ســـذاجتي في هذا الأمر وعدم قدرتي على رؤية الأشياء على حقيقتها في ضوء «الواقع السياسي» الجديد. ثم كانت مســـألة ذلك الصربي المسكين يوروش الذي أقدم على الانتحـــار. انظري إلـــى تلك الأمور المرعبة التـــي واجهها أولئك الشباب حتى بعد أن ظنوا أنهم قد فروا بجلدهم.

قال سيز: «نحن لم ندعُك إلى هنا لإعطاء جلسات في العلاج النفسـي».

«أنا لا أعطي جلسات في العلاج النفسي! أنت تعرف المستويات الثقافية المختلفة لديهم. كان عليّ أن أجد قاســـما مشتركا بينهم في الفصل. لقد ســـلبوهم كل شـــيء، ألا ترى ذلك؟ كيف لي أن أفرض الكوميديا على من نجا للتو من الجحيم؟».

تمتمت إنيس قائلة: «ألم يســـلبوك كل شيء. لقد فعلوا ذلك، طبعا. اشكري الله أن يوغسلافيا ذهبت إلى غير رجعة!».

«أنتِ لســـت مدربة لعمل ذلك، ولا تتقاضين الراتب من أجل هـــذا العمل. نحن لدينا الخبراء لمثـــل ذلك العمل في هذا البلد.

إنهم المعالجون النفسيون. وظيفتك هي أن تقومي بما طلبناه منك هنا، وندفع لك راتبا من أجله».

«أصغي إلى «سيز» يا عزيزتي. إنه يراعي مصلحتك الحقيقية بصدق».

«لقد أعطيت الجميع درجات عالية من دون وجه حق. وقد لاحظ كل من في القسم ذلك. لا يمكنك القول إن الجميع كانوا متفوقين إلى هذا الحد».

تمتمت: «لقد كانوا فعلا».

«هذا أنتِ! «تانيا» صاحبة القلب الكبير! لقد كانت صاحبة القلب الكبِير دائما يا سيز. أتذكّر أنها مرة خلعت «بروشها» وأعطته لي عندما عبرت عن إعجابي به».

لم أتذكر شيئا من هذا القبيل، وتساءلت إن كانت قد اخترعت تلك القصة، أم أنني قد نسيتها.

«حسنا، الآن تعرفين أن رشوتهم بالدرجات المرتفعة لا تجدي نفعا. هم يصرون على وجود منهاج دراسي. أعتقد أنك استهنت بقدراتهم. إنهم يأخذون الأمور بجدية في دراستهم، وهذا يسعدني».

بدا عليها الخجل من جديد، وكأنها كانت تخاطب طفلا:

«أصغي إلى سيز يا عزيزتي. إنه يعي ما يقول».

«أنا لم أرشهم! كيف يفوتك أن ترى أنهم في مرحلة تعاف! نحن جميعا في مرحلة تعاف! وأنا لا أشك إطلاقا بأن ما فعلته معهم أهم بكثير من أي منهاج أكاديمي». ولكن على الرغم من أني تكلمت معبرة عن رأيي، كنت أعرف أن كلماتي لن تجد آذانا صاغية.

هزّ سيز كتفيه.

«إن كانوا يعتقدون أن ما تقولينه أكثر أهمية، فلماذا اشتكوا من غياب المنهاج الدراسي؟».

بالنسبة إلى سيز، فإن موقفي ليس إلا مجرد عذر واهن لفشلي في القيام بواجبي الأكاديمي. دفق شيء في حنجرتي وجعلت أنتحب بتشنج. شعرت بأنني خدعت من جميع الأطراف: فقد خدعني طلبتي، وخدعت نفسي بالصياح في حضرة سيز وإنيس. لم أصدق، لم أصدق حقا أن أحد طلبتي ذهب ووشى لسيز بما كنا نفعله في حجرة الدراسة. أم هل كان هناك أكثر من واحد فعل ذلك؟ لقد استخدم سيز صيغة الجمع. هل يمكن أن يكون الطلبة جميعهم ذهبوا إليه؟ شعرت بالخجل، والنبذ، والحرقة، والغضب. لم أعد أعرف لماذا أستمر بالبكاء، ولكنني لم أستطع إيقاف دموعي. وكنت في درجة من الفزع لحد أنني، برغم ما يبدو عليه الأمر من غرابة، وبدل أن أغادر ذلك المنزل مباشرة، فإنني لم أرد شيئا سوى الانكماش على الأريكة، والبقاء هناك حتى الصباح. إن فكرة العودة إلى شقتي في الدور الأرضي ملأتني باليأس.

وفي خطوة تنم عن رغبة صادقة للمساعدة، جرت إنيس إلى الهاتف لطلب سيارة أجرة، معتبرة إياها بمنزلة سيارة إسعاف. («لن أجعلك تنتقلين من ترام إلى آخر وأنت في هذه الحالة!»)، عندما وصلت سيارة الأجرة، مدّ سيز يده ليوصلني إليها.

قال متلعثما: «آمل أنني كنت واضحا تماما. سأراك الأسبوع المقبل في القسم».

قامت إنيس بمعانقتي.

همســـت قائلة: «سيكون كل شـــيء على ما يرام. صدّقيني يا تانيا. فقط نفذي ما يقول سيز. أنت تعرفين أننا نحبك ولا نريد شيئا سوى الخير لك».

وبينما كنت أخرج من الباب، دسّت علبة صغيرة في يدي.

«قســـمت لك قطعة من كعكة الخشخاش إلى شرائح. يمكنك تناولها غدا صباحا على الإفطار».

عندما بدأت السيارة بالابتعاد، رمتني بقبلة في الهواء، وتوارت إلى داخل المنزل.

في الصباح التالي لاحظت خدشـــا طويـــلا على ظاهر يدي اليســـرى. كان الجلد أحمر، وكان الخدش يزداد عمقا. شـــعرت بالخوف في البداية، غير مدركة كيف حصل ذلك. ولكن سرعان ما تذكرت بغموض أنني جلســـت لفترة طويلة في الكرســـي ذي المسندين، وكنت أحرك يدي من الخلف جيئة وذهابا على روافد المدفأة. تســـاءلت كم من الوقت استغرق إحداث مثل هذا الجرح في يدي.

٢١

توقفت أمام الباب. قبل أسبوعين فقط كنت أسارع للدخول بكل حماس؛ والآن أبدو أفتقر إلى القوة لعبور العتبة. أخذت نفسا عميقا وأمسكت بالحقيبة كترس ودخلت القاعة.

«أهلا وسهلا يا رفيقة. كيف كانت زغرب؟».

«هل أحضرت لنا الشوكولاتة التي وعدتنا بها؟».

«يسرنا عودتك. لقد كنا ننتظرك بفارغ الصبر؟».

أربكني ذلك الترحيب الحار والصادق. لم أعرف ماذا أقول. انتظرت حتى هدأ الترحيب، ومن ثم وزعت المنهاج الذي حضّرته في عطلة نهاية الأسبوع. ضم المنهاج قائمة بالمحاضرات التي سألقيها حتى نهاية الفصل الدراسي. وحملت كل محاضرة تاريخا، وملخصا مقتضبا عن الموضوع الذي ستتم تغطيته. بعد ذلك وزّعت قائمة بالقراءات المطلوبة، والتي ضمت نحو مائتي صفحة كل أسبوع. أخبرتهم أنني سألتزم بالبرنامج بصرامة، وأنه يتعين عليهم أن يكونوا قد قرأوا النصوص قبل أن أتحدث عنها. وأعلنت أنه مطلوب منهم بحثان، وامتحان نهائي شفوي. وقلت إنني لن أتسامح مع الغياب مستقبلا، وأن الغياب المتكرر سينعكس على الدرجة النهائية.

صاحت ميليها ضاحكة: «ما الذي يحدث هنا؟ أثمة نظام جديد في الحكم؟».

تجاهلت تلك الملاحظة.

تذمر ماريو قائلا، وعيناه تستعرضان القائمة: «كيف لنا أن

نقـــرأ كل هذه الكتب إن كانت المكتبة لا تملك إلا نســـخة واحدة فقط؟».

أجبتهم: «يتعين عليكم تقاسمها فيما بينكم، أو تصويرها. لقد أمضيت أنا نفسي جزءا كبيرا من عطلة نهاية الأسبوع في مكتبة القسم لتصوير الكتب التي تظهر في أول القائمة.

سأل سليم: «هل من المؤكد أن جميع الكتب في قائمة القراءات متوافرة في المكتبة؟».

«إن جميع الكتب في قائمة القراءات موجودة في المكتبة. وإلا لما أدرجتها في القائمة».

أعطيت نسخة خطة المنهاج إلى «سيز» أيضا.

«مائتـــا صفحة في الأســـبوع؟ أليس هذا مبالغـــا فيه بعض الشيء؟».

«لا، إطلاقـــا. الطلبـــة الأمريكيون يقرأون حوالـــي أربعمائة صفحـــة في الأســـبوع. عدا ذلـــك، أنت من طلبت هـــذا، أليس كذلـــك؟» بدا ما ذكرته عن الطلبة الأمريكيين، وهو ما قرأته في مكان ما، قد فعل فعله. كان رد «سيز» هز كتفيه فقط.

كانـــت المحاضـــرات مخصصة لمســـح مقارن موجـــز لتاريخ الآداب السلوفينية والكرواتية، والبوسنية، والصربية، والمقدونية، التي شـــكلت رحلة شـــاقة عبر حقل زاخر بالحقائق، والأسماء، والتواريخ، على الرغـــم من أنني خصصت بعض الوقت في آخر الفصل الدراسي لتحليل مواضيع العديد من الروايات الكرواتية.

عـــدم التصديق علق علـــى وجوههم لبعض الوقـــت. حاولوا إرجـــاع تصرفي على أنه نزوة، وســـامحوني، علـــى أمل أن تكون

النـــزوة مؤقتة فقط، وفي المرة القادمة ســـتعود الأمور كما كانت من قبل. من طرفي اســـتمررت فـــي تفحص وجوههم باحثة عن الشـــخص الذي اتهمني. في بعض الأحيان ظننـــت أنها ميليها، ثـــم نيفينـــا، أو إيجور، أو بوبان... قمت بعمل شـــاق في محاولة لمعرفـــة إن كان واحد منهم فقـــط، أو اثنان اتفقـــا معا. تخيلت ميليهـــا، وإيجور وهمـــا يقدمان تقارير منتظمـــة عما يجري في حجرة الدراســـة إلى سيز. أو سليم وهو يجري إلى سيز ليخبره عن الأشـــياء المجنونة التي كانت تحدث، متمثلة ببعث بلد دمرها مواطنوها باســـم الضرورة التاريخية. لكن أليس من الممكن أنها كانت جوهانكي؟ أو آنا؟

كنت أغادر مباشرة بعد انتهاء المحاضرة. لم أذهب إلى مكتبي قـــط. فعلت كل ما أســـتطيع لتقليل التواصل معهـــم. وتدريجيا تحولـــت الصدمة على وجوههـــم إلى حيرة، وأخيـــرا إلى خيبة أمل. ومع ذلك، كانـــوا يأتون إليّ بعد المحاضرات منتظرين مني أن أدعوهـــم لتناول القهوة. لقـــد حاولت ميليها مرة، ومن بعدها نيفينا.

«مرحبا يا رفيقة. ما رأيك بفنجان من القهوة؟ على حسابي».

جاء ردي في المرتين: «شكرا، فأنا مشغولة في هذا الوقت».

كنت أراهم منغمســـين في الحديث في المقهى المقابل للقسم. أشبه ما يكون باجتماع مشترك لقادة القوات المسلحة. كنت أدرك أنهم يتحدثون عني. «العاهرة. لقد تحولت إلى «لوســـيفتش» إلى عاهـــرة حقيقية». تخيلـــت أحدهم، المخبر، وهـــو يجلس ضاما شفتيه وعابس الوجه. حاولت أن أحدس من سيتوقف عن المجيء

إلى الفصل أولا. إيجور؟ آنتي؟ نيفينا؟

فقط مرة واحدة فقدت السيطرة على نفسي. لقد طلبت منهم أن يحفظوا عن ظهر قلب قصيدة «الرثاء اليومي» للشاعر يوجفتش. طلبت منهم أن يكونوا مستعدين لإلقائها من البداية حتى النهاية، ومن النهاية حتى البداية. كانت تلك خدعة سخيفة تعلمتها من أستاذ جامعي للشعر الكرواتي كان مكروها جدا، وكان يتلذذ بتعذيبنا بمثل هذه الواجبات. أتذكر أنني أقسمت في ذلك الوقت أنني لن أطلب أبدا شيئا مرهقا من هذا القبيل من طلبتي في المستقبل.

رفضت «نيفينا» أن تحفظ القصيدة في كلا الاتجاهين. طلبت منها أن تقرأها بصوت عال. كانت قراءتها مشوشة جدا. ثم طلبت منها أن تقرأها في الاتجاه المعاكس. وقفت هناك هكذا، وقد غاب عنها كل شيء. لقد كان مشهدا مؤلما ومهينا. وأخيرا أنقذ إيجور الموقف عندما وقف وألقى القصيدة بشكل رائع.

قلت: «شكرا، يا إيجور. وأنت يا نيفينا، يمكنك العودة بعد أن تكوني قد حفظت القصيدة».

لمّت نيفينا أشياءها، وأسنانها تفشي لفظ «العاهرة!»، وخرجت من غرفة الصف. أظن أنني سمعتها تنفجر بالبكاء وهي تدفع الباب من خلفها. شعرت بالتعاطف معها، ولكن كان قد فات الأوان. لم يكن لدي أدنى فكرة عن كيفية الخروج من الدور الذي رسمته لنفسي.

كنت أحس بأن تذمرهم يتزايد. كنت أحسه كلما دخلت حجرة الدراسة، أحسه ماديا تقريبا، وكأنه تغير في درجة الحرارة.

أحيانا كان ذلك الإحســـاس يملأ الغرفـــة لدرجة عالية جعلتني أخاف من أن يحطم النوافذ. ومع ذلك لم ينبســـوا ببنت شـــفة. كنت أتساءل متى سيفقدون القدرة على التحمل ويثوروا، أو على الأقل، إن كان أي منهم ســـيأتي أخيرا ليواجهني، ويســـألني لماذا كنت أتصرف بتلك الطريقة. لكنهم لم ينبســـوا ببنت شـــفة. كان إيجور الوحيد الذي لم يتأثر بكل ما جرى. كان يحملق فيّ وكأنه يستكشف روحي، وكان أحيانا يضع سماعات الأذن التي لم تغادر عنقه قط.

«أغلق جهاز الموســـيقى يا إيجور. هذا فصل دراســـي وليس حفلا لموسيقى الروك».

«أنا لا أستخدم هذا الجهاز عندما أحضر حفلات الروك».

«كيف لك أن تسمع ما أقول عندما تكون..»..

«لا تقلقي. أسمعك بشكل أفضل عندما يكون الجهاز مفتوحا».

قلت: «سنرى ما سيحدث عند الامتحان».

كان الأمر مرهقا حقا. كنت أتفوه بأشـــياء ليست من طبعي، وكرهت نفســـي بسبب ذلك. وما اســـتمراري بذلك إلا لأنني لم أســـتطع التخلص مـــن فكرة أن أحدهم كان قد ذهب إلى ســـيز وأخبره بكل ما كان يجري في الفصل الدراسي الأول.

علـــى الرغم من ذلك، فإن التعـــود على روتين النظام الجديد قـــد قلل من حجم تلك العداوة لحد أنني في مرحلة معينة بدأت أشـــعر ببعض المتعة في إعطاء محاضرات «حقيقية». وكانت ردة فعـــل الطلبة متناغمـــة مع ذلك. فقد لعبت ميليهـــا دور الطالبة المجـــدة، ولم يغب إيجور عن محاضـــرة قط، وكانت آنا تدون كل

ما أقوله، وأبدت جوهانكي حماســة عالية جعلتني أشك لبعض الوقت بأنها هي من وشــت بي لسيز. ولكن في ذلك الوقت كان الفصــل قد تقلص إلى هؤلاء فقط. فنيفينا لم تعد قط، وتوقف ماريو، وسليم، وبوبان، وداركو عن الحضور واحدا تلو الآخر.

أكملنا المقدمة التاريخية دون مشــاكل تذكر. لقد كان للجولة عبر العصور والمدارس الأدبية، والمؤلفين، والعناوين، أثرا مخدرا إلــى حد ما. تركت موضوع العودة لنهايــة الفصل. لم يكن أحد منهــم يعــرف إن كان يريد البقاء، أم العــودة، ولكن الجميع كان يشــعر بأن بقاءهم هنا «مؤقتا فقط»، وصبوا جهدهم على إنهاء الأبحــاث المطلوبة منهم. وعندما ينتهون منها، رأوا أنه ســيكون بمقدورهم اتخاذ القرار المناسب. لم يزل «الوطن» يلمع في مكان ما في داخلهم، مشيرا إلى طريق عودة محتمل.

إذن، ها أنا هنا أحشــو حقائــب طلبتي اللاجئين مرة أخرى. وهــذا ما فعلته خلال الفصــل الأول مع فــارق واحد: لم تحتو الحقيبــة هذه المــرة بضاعة مهربة. لقد كنــت أعرّفهم بعائلتهم الأدبية، بأسلافهم. كانت النماذج التي اخترتها تمثل سيرة ذاتية للبطل الروائي. عادة ما كانت القصة تبدأ بضمير الغائب، وتنتهي بضمير المتكلم، على شــكل مذكرات لبطل الرواية، أو رسائل إلى صديــق. على رغم أن أبطال الروايــات كانت من «تربة الوطن»، فإنها جميعا - خاصة التنويعات الكرواتية - كانت تحمل تشابها عائليا متميزا لشخوص «كالفتى ويرثر» و«تشايلد هارولد»، فضلا عن الشخوص الروسية التي نعتها النقّاد «بالرجال الزائدين عن الحاجة»: كشــخوص مثل «تشاتســكي» للروائــي «جريبودوف»،

و«يوجين أونيجين» للروائي «بوشـــكين»، و«بيتشـــورين» للروائي «ليرمنتوف»، و«رودين» و«لافريتســـكي» و«كيرســـانوف» للروائي «تورجينيف»، و«أوبلوموف» للروائي «جونتشـــاروف»، و«إفانوف» للروائي «تشـــيكوف»، و«كافاليـــروف» للروائي «أوليشـــا»؛ كانوا جميعهـــم يدورون في فلك الآداب الســـلافية الأخرى مثلهم مثل الكثير من الأشخاص النزقين. هذا بالنسبة للروائيين من الرجال. أما الخط النسائي، فقد احتوى على ثلاثة أنماط بشكل أساسي: الفتاة الوطنية الجميلة، التي عادة ما يتخلى عنها البطل؛ والمرأة المشـــؤومة، التي تســـخر من البطل لكنها أيضا تلهمه، والضحية الصامتة، التي تبقى وفية للبطل حتى النهاية.

لقد أدهشـــني تكرار ظهور الملامح الشـــائعة لأبطال الرواية. شـــعرت وكأنني أقرأ فـــي علم الوراثة وليـــس الأدب. بدا الأمر وكأنه اكتشـــاف الواحد منا لشيء طالما أدركناه من دون أن نعيره أي أهمية، مثل اكتشاف شامة في جسمك في نفس المكان الذي توجد فيه في جسم والديك، أو جسم أطفالك، أوجسم أحفادك. كثيرا ما شـــعرت بأنني أشـــاهد تركيبة مسلسل تم إنتاجه لأكثر من عصور (بالرغم من أنني لم يكن من الممكن أن أعترف بذلك علنا).

قرأنـــا روايتـــين للكاتـــب ك. ش. جالســـكي همـــا «جانكـــو بوريســـلانفتش» و«رادميلوفتـــش»؛ وفيهما جن بطـــلا الروايتين وأقدما على الانتحار؛ وقرأنا روايتين لفينسييللاف نوفاك: رواية «عالمان»، ورواية «تيتو دورشيك»، كما قرأنا رواية «الهروب» للكاتب م. س. نيهايـــف، وكان مصير الأبطال الثلاثـــة الانتحار. كذلك

قرأنا رواية «عودة فليب لاتينوفيس» الذائعة الصيت لكرليسا، والتي مثلها مثل الأخريات، كانت تتناول موضوع المنفى. وبينما شعر أبطال جميع هذه الأعمال بالوحدة خارج الوطن، كان سبب موتهم المأساوي عدم قدرتهم على التكيف مع العودة إلى الوطن.

قالت ميليها: «ولكن ما يمكن أن يشد انتباهنا حقيقة، هو الرواية عن العمال، التي تحكي عن آبائنا، وأجدادنا، الذين ذهبوا إلى ألمانيا، والسويد، وفرنسا وهولندا، وخدموا كالعبيد لسنوات، فقط لكي يعودوا إلى الوطن ويضعوا ما جنوه بشق الأنفس في بناء منازل ضخمة - شيء ملموس يتركونه وراءهم، ويجعلهم يستقبلون الموت بصدر رحب - والتي من ثم وقفت خالية أشبه ما تكون بنصب تذكاري ليوتوبيا مرحلة التقاعد النهائي، تشبه الأهرام، تشبه الأضرحة. فقد جاءت الحرب وذهب كل شيء أدراج الرياح».

قالت آنا بتوتر: «ربما. ولكن هل هذه حكايتنا حقا؟».

«يا أختي، أراهنك أنها حكايتنا، إن كان والداك قضيا نصف حياتهما في ألمانيا وأنت الآن تعيشين في الخارج، ولا يوجد قرش واحد باسمك. اسألي صديقتي «آلدا» وستخبرك. لقد تقاعد والداها بعد ثلاثين عاما من العمل. أودعوا كل قرش وفروه في مصرف في سراييفو، معتقدين أنهم سيبنون منزلا ويستقرون فيه. فأين هم الآن؟ لقد عادوا إلى مدينة كولونيا الألمانية! هكذا تجري الأمور معنا: فكل جيل يبدأ من لاشيء وينتهي بلاشيء. لقد بدأت جدتي وجدي - ووالداي من بعدهما - حياتهما من الصفر بعد الحرب العالمية الثانية، ثم جاءت هذه

الحرب الجديدة لتعيدهم من حيث بدأوا مرة أخرى. وها أنا هنا أبدأ من نقطة الصفر، ولا أملك شيئا».

لم ينبس أحد ببنت شفة. فقد حام صفر ميليها فوق رؤوسنا كحبل المشنقة.

استعار علماء الأنثروبولوجيا مصطلح «النائم» من روايات الجاسوسية الشهيرة. «النائمون» هم مهاجرون يعيشون حياة «طبيعية» في بيئتهم الجديدة: يتعلمون لغتها ويتكيفون مع أساليب الحياة فيها، ويبدون مندمجين فيها - وفجأة يشعرون بصحوة. ويستحوذ عليهم حلم «العودة إلى الوطن» بقوة محولا إياهم إلى أناس آليين. فيبيعون كل ما يملكونه ويعودون إلى الوطن. عندما يدركون الخطأ الذي ارتكبوه (كما يفعل معظمهم) يعودون إلى البلاد التي كانوا قد «ناموا» فيها لمدة عشرين سنة أو مهما كان من سنوات كثيرة، ويجبرون على العيش مرة ثانية (كما يفعل المرء وهو مستلق على أريكة الطبيب النفسي) مرحلة التكيف لسنوات مرة أخرى - بعد الانكسار مرتين، ومع التأهيل مرتين - إلى أن يتصالحوا مع مصيرهم الجديد. الكثير منهم يعيشون حياة موازية: فهم يسقطون صورة الوطن على جدران البلاد التي يقيمون فيها «مؤقتا فقط»، ويعيشون الصورة المسقطة علي أنها حياتهم «الحقيقية».

كان طلبتي يبعدون كل البعد عن كونهم من «النائمين»، ولا يمكنهم حتى أن يحلموا بأن يصبحوا منهم. فهم لا ينتمون إلى هنا ولا إلى هناك. كانوا منهمكين في بناء قصور في الهواء، ويحدقون إلى أسفل لكي يقرروا أي مكان سيناسبهم ويحسن

أوضاعهـــم. كنت بالطبع واحدة منهـــم، فأنا أيضا كنت لا أنتمي إلـــى هنا ولا إلى هناك. الفارق الوحيـــد هو أنني لم أكن أتحمل التحديق إلى أسفل، إذ كنت مصابة بالدوار.

٢٢

لم أعرف بالضبط ما السبب الكامن وراء ذلك، ولكنني كنت أجد نفسي أحيانا متوقفة في منتصف الشارع، وقد نسيت إلى أين كنت ذاهبة. كنت أقف هكذا مثل طفل خائف من أن يطرد من اللعب إذا حرك ساكنا. تأتي الصرخة 'أنتِ أخرجي'! قد يكون سبب الارتباك هو أنني لم يعنني حقا إلى أين كنت ذاهبة، أو أنه كان من الممكن أن أكون واقفة في أحد شوارع مدينة أخرى، وأن وجودي في هذه المدينة كان مجرد مصادفة، كذلك، كان كل ما قيل وحدث، كل شيء كان محض مصادفة. لقد انتهى الكثيرون منا في أماكن لم يحلموا بأن يروها قط، فضلا عن أن يعيشوا فيها. ويستمر ذلك بالحدوث من يوم لآخر. كان الأمر مثل الذهاب للنوم في حياة والاستيقاظ في حياة أخرى.

في بعض الأحيان كان يقطع نومي ألم قهري عصيّ على الوصف، ألم يخلو من الألم. كنت أنهض من الفراش وأتوجه إلى الحمام، أشعل الضوء، وأفتح صنبور الماء لفترة، ثم أرتشف جرعات صغيرة، محاولة إطفاء ظمأ بدا كأنني عانيت منه منذ زمن بعيد. بعد ذلك أتكئ بجبهتي على مرآة خزانة الدواء، وأراقب رذاذ أنفاسي ينتشر بنعومة على سطح المرآة.

«آه يا جرحي، آه يا روحي. لقد أتى الخريف. أنا الويل. آه يا جرحي، جرحي المتقيح...». الجراح حميمة في وطني؛ إنها أبناؤنا، وبناتنا، وأحباؤنا. الجراح هي الحب؛ والحب يعني الألم. مرة سمعت أنا وجوران لحنا صربيا لعبارة «آه يا جرحي»يدوي

في أحد شـوارع برلين. أرانـا البائع المتجول شـريطا رخيصا للموسـيقى مكتوب على غطائـه «آه يا جرحـي». عندما ناوله جوران النقود، قال لي مبتسما، «جراحنا هي أشهر صادراتنا».

«آه يـا ألمانيا، آه أيتهـا البلد الغريبة. لقـد منحتك حبيبي. ومنحتك شقيقي»؛ إنهم ينوحون، ويندبون، ويصرخون لعقود على العمال المهاجرين، واللاجئين، والمهاجرين، والمنفيين، والمغامرين، واللصوص، والمحتالين، والهاربين من الجندية... «آه يا أستراليا، آه أيتها البلد الغريب». «آه يا كندا، آه أيتها البلد الغريب».

لم أستطع أن أفهم مغزي مقاطع الفيديو الوطنية الرخيصة، التي انقسمت مناصفة بين الترويج السياحي، والدعاية السياسية - حيث يعود رجال بشـوارب داكنة حديثا من مهمات في الخارج وهـم يتحدثون عن القوة المغناطيسـية الجاذبـة للعودة للوطن. يتسلقون الجبال ويعبرون الوديان في طريقهم إلى قراهم، حيث تنتظرهم العجائز بشـوارب باللباس الأسـود بجانب المدافئ - يعودون وهم يحملون الحقائب المحشوة بأيديهم، ويرتدون العقود الذهبيـة والصلبان على صدورهم المشـعرة. «يـا وطني! أيتها الأرض الحبيبـة!» يترنم مواطنونا العائـدون بصوت عال، وهم يحملقون في الأفق الجميل، وهو الشـيء الجميل الوحيد الذي سـيحملقون فيه. ربما يكون كل المهاجرين ممثلون أُعطوا أدوارا في مسلسـلات لا نهاية لها، ربما تكـون طبيعة المنفى هي التي تمنعهم من مسخ ما يفعلونه وما يشعرون به.

كلما وجدت نفسـي في حضرة أرق الهجرة، رحت أفكر مليا كيف سـتكون الأمور مستقبلا لو لم تكن كما هي عليه الآن، آملة

فـــي أن أجد مكانا دافئا لنفســـي. أقوم بخلـــط كل من أعرفهم معـــا وكأنهم رزم مـــن أوراق اللعب. أفكر بجـــوران وهو يحتضن زوجتـــه هيتو. لديهما طريقة منتظمة فـــي النوم بينما كل منهما يضم الآخر. يئن، فتصحو. تســـأله: «هل أنـــت بخير؟». يتوقف الأنين ويعود التنفس إلى طبيعته. تنام هيتو من جديد. كنت أفكر بوالدة جوران وهي ذاهبـــة إلى المطبخ لتناول كأس من الحليب. تأخذ بســـكويتة من علبة البســـكويت الدنماركية، ثم تغير رأيها وتأخـــذ اثنتين أخريين. ثم واحدة أخرى. تغمس البســـكويت في الحليـــب وتدفعه إلى قعر الكأس بإصبعهـــا، ثم تتناولها بملعقة. يريـــح الخليط الحلو أعصابها. تندب حظهـــا: «لا أفهم ذلك. لا أستطيع التوقف عن تناول الطعام. خاصة في الليل». كنت أفكر في نفسي وجسدي ملتف في السرير في «غرفة ضيوف» والدتي، وأنـــا أصغي إلى وقع الخُف، وصرير الباب، وصوت تبول والدتي فـــي الحمام المحاذي لغرفتي. تمتلئ الغرفة بالأصوات المجلجلة. ثم تتوقف الأصوات، وتنسحب عائدة إلى سريرها. وعندما تغفو، تزيّن ماضيها مثلما تُزين بيض عيد الميلاد، بترو ورضا.

في مثل هذه الأوقات فقط، وأنا مســـتلقية على ســـريري في ملجئى بأمســـتردام، كنت أستطيع الحصول على صورة واضحة لنفسي. أتصور نفســـي وأنا أرتدي بنطلون الجينز وألبس سترة فـــوق قميص البيجاما وأخرج من «البـــدروم». أحاول أخذ نفس عميق، لكن الهواء فاتر ولزج، مثل حلوى غزل البنات. الرياح شبه الاســـتوائية تكنس الفضلات المبعثرة بطول الشارع. يَعلق كيسان بلاســـتيكيان بين أغصان إحدى الأشـــجار القريبـــة ويصدران

فرقعة، ووهجا باهتا في الظلمة وكأنهما رسائل من عالم آخر.

أرى امرأة قصيرة، وبدينة، من البلدة نفسها بمشية مرحة. كان معها امرأة طويلة، شيباء، في رعايتها. تستخدم المرأة العجوز عكازين لمساعدتها على المشي. تأمرها المرأة الفتية بصوت اخترق طبلة أذني كإبرة: «تحركي يا ماما». جميع «أهلنا» يعرفون هذه المرأة. يقولون: «إنها امرأة عبقرية». تتباهى أحيانا باصطحاب مجموعة حقيقية من أقارب متخيلين، وأحيانا بأنها حامل بجنين عمره ثمانية أشهر ونصف، وأحيانا بأنها امرأة معاقة متخيلة، كما هي اليوم، أم متخيلة، ولكنها دائما ما تكون بصحبة رجل شديد البأس يتبعها كالظل، ويداه مدسوستان في جيبيّ سترته القصيرة. يدعون أنها تستطيع سرقة أي شيء يريد «أهلنا» شراءه من لباس، ومجوهرات، وأجهزة فيديو... تقبع قائلة: «لنذهب يا ماما. تحركي».

تلكزني امرأة إنجليزية ثملة في مقتبل العمر وتسأل «ألديك كبريت؟».

أقول: «لا، آسفة».

ترد قائلة: «تبا لك»، وتمضي في طريقها.

أقف أمام ستوديو للوشم. الاستوديو مغلق، لكن التلفاز في شباك العرض يبث فيلما وثائقيا. يقول رجل ياباني في مقتبل العمر، وقد استدار ليعرض ظهره المرصع بالأوشمة للكاميرا: «بدأت أشِم نفسي لأتعلم معنى الألم. كل نموذج من هذه النماذج يشكل لحظة من الألم». ويومئ رجل ياباني آخر في مقتبل العمر، وهو مغطى بالأوشمة، بحيوية قائلا: «الألم مفتاح النجاح!».

يدور الماء السـميك الأسود في القناة بشؤم. تظهر فجأة أوزة من داخل الظلمة وتتجمد مثل شـبح. في تلـك اللحظة يتوقف التلفـاز في شـباك العرض عـن العمل، وتختفـي الصورة عن الشاشة. أظل واقفة لبعض الوقت. مازال الكيسان البلاستيكيان يفرقعان بين الأغصان كطائـرات الأطفال الورقية. تمس الريح شبه الاستوائية وجهي. يسيل العرق على ظهري. وتأتي الصرخة «أنتِ اخرجي».

ثم أعدو إلى داخل جُحري كفأر مذعور.

٢٣

وصلنا إلى نهاية المرحلة التمهيدية. تعلمنا كل الحروف. يمكننا قراءة الخط المطبوع والمكتوب باليد. الآن يمكننا قراءة جميع أنواع كتب الأطفال الجميلة. الآن يمكننا قراءة كل شيء. ونعرف كيف نكتب أيضا. نعرف أن نكتب كل شيء نراه. الآن يمكننا أن نقرأ ونكتب بأنفسنا. كلما ازددنا معرفة، تحسنت حالنا.

طالب أول تمهيدي

من ثم جاء الامتحان. كان أربعتهم موجودين: جوهانكي، وميليها، وآنا، وإيجور في الممر خارج مكتبي. دخلت «جوهانكي» أولا. طرحت عليها أسئلة كثيرة أجابت عليها جميعا بشكل صحيح، وأعطيتها درجة «ممتاز». لقد كانت مُجدة أكثر من الآخرين بكثير، وأثبتت أنها مراقب رصين لما يدور. في تلك اللحظة فقط أدركت أنني لم أتبادل معها حديثا جديا من قبل. لقد تبنيناها وكانت «لنا». ويبدو أن ذلك كان كافيا.

قالت: «آمل أنك سوف تبقين هنا».

قلت محاولة أن أبدو مرحة: «قد أبقى».

وقفت ومشيت إلى الباب معها ومددت يدي مودعة. بدت مضطربة.

«تمنياتي لك بالتوفيق». قلتها كبلهاء، مدركة أنني من يحتاج

إلى تلك الدعوة أكثر منها.

عندما دخلت «ميليها» كنت أدرك أنني لا أستطيع الاستمرار في ذلك الدور.

قلت لها: «لا تكترثي بالامتحان يا ميليها».

«ماذا تقصدين؟».

قلت بصدق: «لا يمكنني أن أمتحنك. بامتحان أو بدون امتحان، أنت تستحقين درجة ممتاز».«تقولين لي هذا الآن! بعد أن راجعت حفظ المادة طوال الليل، مثلما كنت أفعل عندما كنت طالبة. بالمناسبة، لقد كان أمرا رائعا حقا! إذن ستعودين في السنة القادمة؟».

«ربما».

قالت بمرح: «حسنا، إن كنت ستعودين، سأعود أنا أيضا».

تحدثنا قليلا عن والديها وعن خططها وعن وضع دراستها.

قالت فجأة: «لا أعرف ماذا سأفعل. لقد وقعت في الحب».

«من هو؟».

«رجل هولندي!».

ثم تحدثنا قليلا عن حبيبها الهولندي، فهو شخص رائع، ومغرم بالبوسنة. ويعمل في منظمة غير حكومية، تعنى بمنع العنف أو شيء من هذا القبيل. يقضي وقتا في سراييفو أكثر مما يقضيه هنا. ويعرف اللغة. ربما سينتهي بها الأمر بالذهاب معه إلى هناك. من كان يتخيل أن شخصا هولنديا هو من سيجعلها تعود إلى الوطن. «وهناك أيضا... أبي. إنه يتدهور. كل ما يستطيع قوله هو «الحياة مجرد نكتة كبيرة». إنه مثل الببغاء. تسألينه إن

كان يريـــد البيض مقليا أم مخلوطا، فيجيب: «الحياة مجرد نكتة كبيرة». برغم ذلك، ربما عليّ تعلم بعض الدروس منه».

وقفـــت ميليها، وأنا وقفت مباشـــرة، وتصافحنـــا. كانت على وشـــك أن تفتح الباب عندما توقفت وارتسم طيف على وجهها، جعلها تبدو أكبر سنا بعشر سنوات.

«ما الأمر يا ميليها؟».

«لا شـــيء. أحيانا أظـــن أنني أصبت بالجنون. أكون ماشـــية وفجأة أتوقف لأقوم بجمـــع أجزائي: ذراعيَّ ورجليَّ. أفٍّ، هناك أيضا رأســـي المجنون. أنتِ لا تعرفين مدى سعادتي عندما أجد تلـــك الأجزاء. لـــذا على أي حال، ألصقها معـــا، وتصمد لبعض الوقت. أظـــن أن ذلك اللصق سيســـتمر إلى الأبـــد، وبعد ذلك تتســـاقط أجزائي مرة أخـــرى. ومرة أخـــرى أجمّعها من جديد وألملم نفسي ثانية مثل قطع لعبة اللغز منتظرة المرة القادمة..».

فتحـــت الباب ثم أضافت: «لقد تبلـــل وجهي الآن، وصديقي الهولندي ينتظرني في الطابق الأرضي». رسمت ابتسامة مفتعلة على وجهها، وانسلت خارجة.

جاء دور آنا.

قالت أثناء دخولها الغرفة: «أريدك أن تعرفي أنني لم آتِ من أجل الامتحان».

«ماذا تقصدين؟».

«لا فائدة من ذلك، فأنا لن أستمر في الدراسة».

«ما سبب هذا القرار المفاجئ؟».

ردت قائلة: «سأعود إلى بلجراد».

«مهلا. اشـــرحي لي بعض الشـــيء. ما الـــذي جعلك تقررين العودة؟».

«لطالما فضل جيرت بلجراد، وهذا المكان يثير أعصابي».

«ألن تفتقدي أي شيء هنا؟».

«كلا».

«لكنك أمضيت سنوات عدة هنا، أليس كذلك؟».

«كان يمكن أن تكون في أي مكان آخر».

«هل أنت متأكدة بأنك لا تريدينني أن أعطيك درجة؟».

تظاهرت بعدم سماع السؤال.

قالت: «جئت فقط لأودعك»، ثم أضافت من دون تفكير: «هل أنت وحيدة؟»

«لماذا تسألين؟».

«العيش في بلد أجنبي أصعب بكثير عندما تكونين وحيدة».

قلت: «الأمر يعتمد على عوامل أخرى». ولم أرد أن أتابع ذلك الحديث.

قالـــت: «أنت تعرفين... إن ما حدث كان من الممكن أن يحدث بغض النظر عن الظروف».

«ماذا تقصدين بذلك؟».

«لـــم تدركي ذلك، ولكنك كنت الســـبب الأول والأخير لبقائنا معا. كانت الأمور ستنهار بدونك».

«لماذا؟».

«لأن الأمور تسير هكذا. في البداية كانت معنوياتنا عالية، إذ كنا نريد الاستمتاع بالحياة. كانت الحياة انفجارا، حفلة لا نهاية

لها. ثم صحونا في صباح أحد الأيام لنجد فراغا يلفنا».

«فراغا؟ ماذا تقصدين بذلك؟».

«لا أعــرف. أفترض أنــه يعني ذلك الشــعور المرعب بأنه لا يوجد أحد خلفك، ولا أمامك».

«لكن لديك جيرت».

«يكون الهولنديون أحسن في الخارج منهم في الداخل».

«ماذا يفترض أن يعني ذلك؟».

«إنهم يتأقلمون مع الحياة في الخارج، ولكنهم كالسمك خارج الماء عندما يكونون في هولندا».

«ماذا تتوقعين أن تجدي عندما تعودين إلى أرض «الوطن»؟».

«الرعب تلو الرعب».

«وماذا تجدين هنا؟»

«غياب الرعب».

«هذا سبب كاف للكثيرين للبقاء هنا».

قالت بسكينة: «لكن هولندا صعبة أيضا بطريقتها».

ثم أخرجت ظرفا من حقيبتها ووضعته على مكتبي.

«ما هذا؟».

«مفتاح الشقة».

«شقة من؟».

«لم نعد نحتاج إليها، وقد تبقين هنا».

«لم أتخذ قرارا بعد».

«ولكن ربما تقررين البقاء».

«هل هي شقتك؟».

«لا. إنها شقة «جيرت»، وهي من الشقق التي توفرها الدولة. كل مـــا عليك فعله دفــع فاتورة الغاز والكهربـــاء، وهي لا تكلف شـــيئا تقريبا. آه، عليّ أن أخبرك، فهي ليست في مركز المدينة. العنـــوان، ورقم الهاتف، وكل ما تحتاجين إلى معرفته موجود في الظـــرف. الأثاث قديم جدا، لكن يمكنـــك التخلص منه. يمكنك عمل كل مـــا تريدين من تغييرات. ســـنغادر أنا و«جيرت» خلال أســـبوع. أخبريني بقـــرارك. اذهبي وألقي نظـــرة عليها. اتركي المفتاح في الصندوق إن لم ترق لك».

كنت مندهشـــة من آنا، وفي لحظة شـــعرت بالغيرة منها. بدا أنها تعرف شيئا محددا لا أعرفه. حملقت في الظرف لفترة بعد ذهابها، ثم وضعتـــه في حقيبتي. فتح مفتاح «آنا»، لفترة وجيزة، الباب الذي كان يكبح كل مخاوفي.

بقـــي إيجور فقـــط، ولكنني لم أقوَ على الحركة. اســـتمررت بالتفكير بآنا، وميليها، والحياة التي عاشـــتاها، تلك الحياة التي لم أعرف عنها شيئا البتة.

كان بحـــث إيجـــور أمامي، وكنت أقلب صفحاته وأنا شـــاردة الذهن، بالرغـــم من أنني قرأته من قبل. فـــي معالجته لموضوع «العـــودة» فـــي الأدب الكرواتي، اختار إيجور عمـــلا غير متوقع إطلاقا، حكايات الجنيات الخرافية: كيف التمس بوتييه الحقيقة لكاتبة أدب الأطفال المشهورة إيفانا برلتش - ماتزورانتش.

كان ثمـــة رجـــل عجوز يدعى «فيســـت»، وثلاثة مـــن أحفاده يعيشون في بقعة فارغة في غابة شاطئية قديمة. في أحد الأيام ظهر الإله «سفاروســـيتش» - الذي يســـميه إيجور «بالسوبرمان

السلافي» – للصبية الثلاثة:

وعندما تحدث، حرك «سفاروسيتش» طرف معطفه، ثم رفع «ليوتيشا» و«ماورون» و«بوتييه» على ذلك الطرف. ثم حرك طرف المعطف من جديد محدثا التفافة فيه. وقد التف الأشقاء الثلاثة مع التفاف المعطف، وفجأة بدأ العالم يمر من أمامهم. بداية شاهدوا كل الخزائن، والحقول والأملاك، والثروات الموجودة في العالم في ذلك الوقت. ثم، بينما هم يلتفون، ويدورون من دون توقف، شاهدوا الجيوش، والرماح، والسهام، وجنرالات الجيش، والغنائم الموجودة في العالم في ذلك الوقت. وبعد مزيد من الالتفاف والدوران، رأوا فجأة كل النجوم، والقمر، والأخوات السبع، والرياح والغيوم. وقد أدهشت هذه المشاهد الصبيان الثلاثة، ولم يزل طرف المعطف يرفرف ويحفّ ويهسهس كبساط من الذهب. وفي تلك اللحظة وجد الأشقاء الثلاثة أنفسهم في مأواهم في الغابة من جديد، والرجل الذهبي «سفاروسيتش» يقف أمامهم مرة أخرى. وهنا خاطبهم قائلا: «هذا ما ستفعلونه. ستبقون هنا في هذه البقعة، ولن تتركوا جدكم العجوز حتى يترككم هو، ولن تدخلوا العالم لخير أو لشر حتى تعيدوا له الحب الذي منحكم إياه.

وعندما يسأل الجد أحفاده عما شاهدوا في العالم والنصائح التي تلقوها من الإله «سفاروسيتش»، لا يتذكر «بوتييه» أي شيء، فيغادر مأواه إلى داخل الغابة بحثا عن ذاكرته، وعن نصائح «سفاروسيتش»، حيث تهاجمه عفاريت الغابة، التي يسميها «إيجور» بمعاوني الشيطان الأكبر.

أومأت لإيجور، فدخل وجلس. رأيت انعكاسي في وجهه. كان الأمر كمن ينظر في مرآة. بدا وكأنه دوّن كل كلمة قلتها خلال الفصل الثاني، وبدأ الآن يشغل الشريط. استهل بتلاوة تلك القائمة الجافة من الأسماء، والتواريخ التي لقنتها لهم، ثم راح يتظاهر تظاهرا متكلفا لإخفاء ازدرائه لي. قمت بمقاطعته.

قلت: «اندهشت بعض الشيء من بحثك».

«إنه يتناول عملا محيّرا».

«ماذا تقصد؟».

«ما الحقيقة المهمة التي لا يتمكن بوتييه من تذكرها؟ أهي الرسالة التي تلقاها من سفاروسيتش؟ كل ما قال له سفاروسيتش هو البقاء في مأواه، وهو شيء بسيط يخلو من التعقيد».

«إذن؟».

«إذن يظهر سفاروسيتش مرة أخرى لبوتييه ويخبره بالشيء نفسه: عد إلى مأواك. ولكن ماذا يحدث الآن عندما يستعيد الذاكرة؟ إنه يموت. يقول وهو ينحني إلى البئر: «غطسة سريعة ثم أطير إلى جدي العزيز'، ثم يسقط فيه ويغرق».

«حسنا، كيف تفسر ذلك؟».

«إذا ما أخذنا قواعد النمط الأدبي التي تقول «لا مكان يوازي مكانة المنزل» بعين الاعتبار، فالكل يفترض أن يعيشوا في سعادة إلى الأبد. يجد أبطال القصص الخرافية الحكمة، والثروة، والأميرات في أسفارهم، وهم لا يسقطون في الآبار. لا بد أن شيئا ما دار في ذهن ماتزورانيتش جعلها لا تنهي القصة بالطريقة التقليدية».

«لكن ينتهي أمر بوتييه في بلاط سفاروسيتش».

«يضع سفاروسيتش بوتييه في الجنة، وهي الموت مضافا إليه النهاية السعيدة، ولكنها نهاية يعوزها الالتزام لأننا جميعا نضمن الجنة أو الجحيم بطريقة أو بأخرى. لذلك، فالعمل مجرد هراء من خلال منظار فني، ولكنه عمل عبقري صرف من خلال منظار التحليل النفسي».

«لماذا؟».

«الرســالة جلية: «النفي» يعادل الهزيمة، حيث يتيه بوتييه في الأدغــال في ضباب كثيف وهو فاقد الذاكــرة، أما العودة لمأواه فتعادل عودة الذاكرة. ولكــن تلك العودة تعادل الموت أيضا، فما أن عادت إليه الذاكرة حتى ســقط فــي البئر. من هنا، فالنصر الوحيد لحرية الإنســان يكمن في رحيلنا الســاخر في جزء من الثانية في هذه الوجهة، أو تلك، أو وجهة ثالثة ما. ومن أجل تلك الحقيقــة الكامنة، انحرفت ماتزورانيتش عن ذلك النمط الأدبي وخرجت بقصة خرافية «سيئة».

رفع نظره إليّ، وعيناه السوداوان المائلتان تزنان روحي.

لقــد هزمني: إذ أراني شــيئا ما كان يمكن أن أراه بنفســي. العمــل يمكن أن يتحمل تفســيرات عدة، لكــن قراءته صدمتني فكلاهمــا صحيح ومفزع. ماذا لو كان كل ما قاله صحيحا؟ ماذا لــو كانت العودة تمثل المــوت - رمزا أو حقيقــة - والنفي يمثل الهزيمة، ولحظة الرحيل هي لحظــة الحرية الحقيقية الوحيدة التي منحت لنا؟ وإن كان هذا صحيحا، ماذا سنفعل بها؟ ومن هم «نحن» على أي حال؟ ألســنا جميعا ممزقين إربا ومجبرين على

التيــه في الأرض، نلتقط أجزاءنا كما تفعل ميليها، ونجمّعها معا كقطع اللغز، التي نلصقها معا برضابنا؟».

«ما الأمر يا رفيقة؟ أعني دكتورة لوســيتش». قالها ســاخرا، وكأنه كان يقرأ ما يدور في ذهني.

هــذا دفعني من جديد إلى دوري. فالحديــث الذي دار بيننا لفورنــا كان خطــوة باتجاه الوفــاق. مددت يــدي أولا، ولكنني سحبتها الآن.

«شكرا يا إيجور. هذا يكفي. سأسلم الدرجات إلى السكرتيرة غدا أو بعد غد، وستخبرك السكرتيرة بدرجتك».

في اللحظة التي قلت له ذلك، كرهت نفسي أكثر مما كرهتها في أي وقت مضى في حياتي».

نهض مستهجنا، ثم حمل حقيبة الظهر واتجه نحو الباب. لكنه ما لبث أن اســتدار وقال: «ثمة ملاحظة بســيطة يا دكتورة. في الأدب، الرجــال هم من يخرجون إلى العالم. يخرجون، ويعودون ليذرفوا «الدمع الغزير». أين النسوة من كل هذا؟».

لــم أرد. حولت نظري عــن اتجاهه، صماء وبكمــاء. بالكاد اســتطعت أن أميــز ملامحه. لقــد دفنت جــذوري في الأرض واكتسبت لون محيطي. شعرت بالســمكة الإنسانية التي علقت أثناء عملية التحول تتحرك في داخلي: الخياشيم تتنفس، والدم يجري عبر أدق الشــرايين، والقلب الصغير ينبض بســكينة دون صوت البتة. ســاعدني واجعل القلب ينبض. المســني وسأتحول إلى سيدة جميلة؛ اتركني وسأبقى سجينة ظلمتي إلى الأبد.

بعد أن غادر إيجور، انبريت لتحديد الدرجات للطلبة. قررت

أن أنجّح نيفينا، وسـليم، وماريو، وبوبـان، وآمرا، وأعطيت كلا مـن ميليها، وجوهانكي، وآنا درجة «ممتاز». ولكن ماذا أنا فاعلة بإيجور؟

لا أعرف لماذا فعلت ما فعلت. كنت مثل «برلتش - ماتزورانتش» التي لـم تعرف لماذا تلاعبت بنمط أدبـي كان قد أثبت جدارته مـرات عدة. لا بد أن شـيئا قد وقع بطريق الخطأ، شـيء في داخلهـا، هو الذي منعها أن تنهي تلـك القصة بالطريقة المتبعة، تلك الطريقة التي أنهت بها بأريحية قصصا أخرى كثيرة. كل ما أعرف هو أنني لم أكن قادرة على السـيطرة على الاندفاع لأدير قصتي بالاتجاه الخطأ، وعندما أعطيته درجة «راسـب» أخيرا، مشفوعة بتفسـير خادع مقتضب بعد فترة من التردد - شعرت باشمئزاز عضوي ممزوجا بالخزي، والخزي ممزوجا بشعور من الراحة.

الآن كل ما عليّ فعله هو تسـليم الدرجات إلى أنيكي وإعادة مفتاح مكتبي ورؤية سيز. جلت بنظري في الغرفة. لقد كنت في مساحة مكشوفة من حجرة. كنت في أرض قاحلة من خلفي، ولا شيء أمامي سوى المفتاح في الظرف القابع في قاع حقيبتي.

بعد ذلك سـحبت درج مكتبي للتأكد من أنني لم أنس شـيئا، وعندها رأيت ورقـة طويت إلى نصفين. كانت رسـالة مجهولة وضعت في صندوق بريدي في القسـم قبل بضعة أشـهر. وقد وضعتها في ذلك الدرج ونسـيتها بالكامل. والآن أقرؤها وكأنني لم أرها من قبل.

أيتهـا العاهرة اليوغسـلافية، تبا لـك! عندما أفكر بالنـاس الذين قتلوا وهم يحاولون النجاة من ذلك النظـام الشـيوعي الفاسـد، وأنـت مازلـت تروجين لمبـدأ الأخوة، والوحـدة الفارغ. كفي عن هذا الهراء، أتسمعينني؟! الموت للجماهير، ولتحيَ الفاشية!

كابتن ليشي

ملاحظة: انعمي بهذا الهراء.

لم تكن هناك كلمة واحدة تشـير على هوية المُرسـل: إن كان صربيا، أو كرواتيا، أو بوسـنيا. من المؤكد أن ذلك كان سيحبط جهـود أكثر المحققين اللغويين خبرة. وقد أدركت أن تلك الخبرة الواسعة التي اكتسبتها أخيرا ستجعلني، أردت أم لم أرد، خبيرة في نصوص الكراهية. وأنه من الصعوبة بمكان أن تشرح محتوى ذلك النص لأي شـخص، شـخص هولندي، على سـبيل المثال. فكيف لي أن أوصل السجع في كلمات وعبارات النص؟ وكيف لي أن أشرح ما يكمن وراء شعار «الموت للجماهير، ولتحيَ الفاشية!» أو الإحالة إلى البطل اليوغسـلافي الخيالي في الخمسـينيات، «كابتن ليشي»؟

كانت تلك الرسـالة المسـتترة مـا تبقى من شـظايا إحدى القنابـل. وبالرغم من أنها وجدت طريقهـا إلى درج مكتبي، إلا أنني لم أبدِ أي اهتمام في اكتشـاف مصدرها. أخذت قلم حبر أحمر وصححت الأخطاء الإملائية في النص بنوع من اللامبالاة الحنونة. ثم مزّقت الورقة إلـى قطع صغيرة، ونثرتها في الهواء كما تنثر الحلوى. لقد انتهت الحرب.

٢٤

ســـرتُ برويَّة نازلةً درجات السلم الخمس لأقابل في الطابق الأرضي بالمصادفة، لاكي، عالم اللغة، الذي كان قد حضر بعض الحصص الدراسية في الفصل الأول قبل أن يتوارى عن الأنظار. توقف للحظة وكأنه في شـــك مما سيفعله. ثم رفع عينيه، ونظر جانبا، وقال متشدقا ببطء: «كيف حالك سيدة لوسيتش؟»

«أنا بخير، الحمد لله. وأنت؟».

«أموري عادية. فمازلت أتردد على القسم، كما ترين».

«هذا صحيح. ولولا ذلك لما تصادفنا هنا».

«وابتداء من سبتمبر سآتي إلى هنا يوميا».

«حقا؟».

«لقد أعطيت مكتبا. لذا سأتمكن من إكمال المعجم».

«هذا خبر جيد».

«إلى حد ما، وســـتكون الأمور بشـــكل أفضل عندما ينشرون المعجم».

«أنا متأكدة من أنهم سينشرونه».

«لـــم نكـــن لنحلم بمثل هـــذا إطلاقا عندمـــا كان الرفاق في السلطة».

قلت: «هذا مؤكد»، وقد بدا واضحا أن نبرة التهكم في صوتي تكررت في رأس لاكي.

«حصلـــت على دعم مالي من وزارة الســـياحة فـــي كرواتيا. هذا يخدم مصلحتهم على كل حال. ذلك سيســـاعد في تســـويق

السياحة الهولندية. استطعت أيضا أن أحصل على بعض الدعم من وزارة الثقافة. قدم القســم هنا مساهمته البسيطة بإعطائي مكتبا. ليس بالأمر المهم بالطبع، ولكنهم ربما أيضا سيســمحون لي بالتدريس لبعض الشعب التدريبية».

«هذا رائع».

«إلــى حد ما... بالمناســبة، هــل أنت ذاهبة إلــى الوطن في الصيف؟». لقد استخدم كلمة «الوطن» كبديل محايد للبلد، الذي حــين كان لا يزال قائما، كان العمال في الخارج يدعونه «يوغا»، مترنمين في لفظ حروف المد فيه.

«قد أذهب».

«إنني في غاية الاشتياق. يملك والداي منزلا رائعا في جزيرة هفار، حيث أقضي شهرين كل عام هناك».

«حسنا... إلى اللقاء».

رد قائلا: «بالتوفيق يا سيدة لوسيتش».

العيــون التــي ترفض أن تطيــل النظر لعينيــك أكثر من ثانيــة، وذلك الموقف الرافض للشــيوعية الذي أصبح موضة بعــد تغيير الحــرس القديم (بالرغم مــن أن لاكي لم تكن له أي علاقة بالشــيوعية من قريب أو مــن بعيد)، وذلك الكلام الحضــري (للوقت الحاضــر) المختلط المهــروس، واللهجة، والنــزوع الأدبي(كان الأمر أشــبه ما يكــون بالجد والحفيد وهما يتكلمان من الفم نفســه)، وذلك التصنع في مخاطبتي «بالسيدة لوسيتش» «كل ذلك كان مقززا بشكل مبهم، كتحذير مسبق بشيء غير سار.

بدلا من أن أخرج من المبنى، عدت إلى الطابق العلوي وطرقت على باب سيز، الذي كان بمفرده.

«تفضلي يا تانيا. تسرني رؤيتك. كنت سأبحث عنك».

لم يحاول هو أو إنيس إطلاقا - البحث عني «منذ أن كنت في منزلهما في ذلك المساء. في الحقيقة، اتصلت بهما مرة أو مرتين، واستقبلت بكلمات إنيس الودية تشرح لي عن مدى انشغالهما وعدم وجود أي وقت فراغ عندهما، وكيف أنني لم أغب عن بالهما، وأنهما كانا يسمعان أخباري الطيبة من طلبتي، وأنه لا بد أن نلتقي ونتبادل أطراف الحديث الممتع. لقد كان تلفظها بعبارة «الحديث الممتع» على وجه الخصوص منفرا.

والآن بدأ سيز يشرح لي أنه على الرغم من التقارير الممتازة التي وصلته عني في ذلك الفصل الدراسي (هل عنى «التقارير» حرفيا، أم كان ذلك على سبيل المجاملة؟)، فلن يكون بإمكانه منحي الوظيفة في سبتمبر، لأنه لم يستطع إيجاد الدعم المالي الضروري. فقد قامت وزارة التعليم الهولندية بتخفيض الميزانية المخصصة للدراسات العليا عبر السنوات القليلة الماضية، وأنه حتى يأتي الوقت الذي يتمكن فيه من إيجاد الدعم لشاغل وظيفة في تدريس اللغة الكرواتية وآدابها، وهو يفعل كل ما يستطيع بهذا الخصوص، فإنيس ستتطوع للقيام بتلك الوظيفة مجانا. كانت تلك تضحية كبيرة من جانبها، ولكنها الطريقة الوحيدة لإبقاء البرنامج حيا. كان القسم يواجه مشاكل كبيرة، فحتى اللغة الروسية، وهي

المصدر المالي الرئيسي، كانت تفقد زبائنها. لم يكن بمقدوره أن يطلب مني التدريس مجانا. كلا، لم يكن ليحلم بذلك، وهو يعرف الظروف التي كنت فيها، وأنه لن يريد أن يستغلني. سأتمكن من إيجاد وظيفة ما، لم يساوره الشك في ذلك، فأنا، كما قال، أحمل شهادة الدكتوراه، ولدي خبرة في التدريس، وأملك «قلبا كبيرا». والأهم من ذلك كله هو أن «السلافيون معلمون بالفطرة، أليسوا كذلك؟» أبلغني تحيات إنيس وأنها تعتذر عن عدم تمكنها من رؤيتي. لقد غادرت لفورها إلى جزيرة «كورشولا» مع الأطفال، وأنه سيلحق بها قريبا أيضا، حالما ينتهي من تسليم الدرجات. وطلب مني أن أرى آنكي في الأيام القليلة القادمة بخصوص إجراءات إخلاء الشقة التي استأجرتها عن طريقها، وبخصوص المفاتيح والتأمين وما إلى ذلك.

كان سيز صادقا في حديثه. لم يكن هناك أي إشارة توحي بسوء النية. مع ذلك لم يتطرق إلى موضوع المكان الذي سأذهب إليه بعد أمستردام، فأولئك الذين يتوخون الحذر لا يسألون أسئلة قد تنم إجاباتها عن التزامات من طرفهم - لكن طوال الوقت كان تفكيري مشغولا خلال حديثه بشيء واحد.

قاطعته وقد أصابني الفزع: «سيز، إن تأشيرة إقامتي هنا أوشكت على الانتهاء».

«لا أعرف كيف يمكنني المساعدة».

«يمكنك أن تكتب رسالة بصفتك رئيسا للقسم تؤكد فيها أنني سأدرّس هنا في العام القادم».

«ولكن ذلك ينقصه الصدق. لا أستطيع المجازفة بذلك».

«لا تكترث السلطات بالحقيقة، فهم يهتمون بالوثائق فقط. لا يوجد مجازفة إطلاقا».

«لا أعرف ما..».

قلت بصوت كدت لا أميزه: «سأحضر غدا لأخذ الرسالة. يمكنك تركها عند آنكي».

تركت المكتب مطمئنة بأن الرسالة التي تحمل ختم القسم، وكل ما تحتاج إليه ستكون بانتظاري في اليوم التالي. ثم هرولت نازلة الدرج وذهبت إلى المقهى في الجهة المقابلة من الشارع. وصلت الحمام في اللحظة الحرجة، ورحت أتقيأ بشكل لم أعهده في حياتي.

فيما بعد، سألت نفسي عما سأجنيه من الرسالة، ولماذا أذللت نفسي لأحصل عليها. ما قيمة التمديد إذا لم يكن هناك شاغر للوظيفة؟ لقد شاهدت أعراض حمى المهجّرين عند الآخرين، عند «جوران»، على سبيل المثال، ولكنني اعتقدت أن لدي حصانة منها. كان هناك كل ذلك الحديث عن «الأوراق»، والاستعداد للذهاب إلى آخر مدى من أجل الحصول على «الأوراق» المناسبة. ثم ماذا؟ «ثم سندرس الأمر». لقد شاهدت الوجوه تغير تعبيراتها بشكل متلاحق، أو تدمج المكر والتذلل والخوف معا، وشاهدت النظرة المتوترة، والحزينة، ونصف الإجرامية تلاحق التزاحم من أجل الحصول على آخر جحر متوافر. سمعت أحاديث مفعمة تتوقف فجأة بسبب سيطرة جو من اليأس غير المرئي، ولكن الناس ينفضون ذلك اليأس ويستأنفون أحاديثهم بالحيوية نفسها.

أنا لســت مهجّرة، فأنا أملك جواز ســفر في جيبي. لماذا أذللت نفسي أمام سيز، فضلا عن إنيس، التي من المؤكد أنها ستسمع عما حدث مباشرة. («أعني أننا عملنا كل ما نستطيع فعله لها. ينبغي على المرء أن يتولى أمره في النهاية. الســفر إلــى الخارج يلفه الغمــوض..».) آه يا إنيــس! تلك الحلاوة، والخفــة، والأبهــة، ودفء الجنوب، والرضا الــذي يلج منزلا جدرانه تتألق من الغنائم، غنائم الزواج الأول. («شــيء لنري الهولنديين أننا لسنا متسولين، تعرفين ما أعني؟»). كانوا يرون أنفسهم في حصن برجوازي منيع، بينما كنت أراهم يتأرجحون على طوف جليدي، وهما يبتســمان ويثرثــران طوال الوقت، وهمــا يخرجان أواني الجدة الفضيــة. الفضيات، واللوحات الساذجة هي سلاحهم الوحيد أمام القدر، وأمام الشر، فهي الإشارات الأكيدة بأنهم ينتمون إلى طبقة محصّنة من الأذى. أما بالنسبة إليَّ، فسأجد شيئا. أملك شهادة الدكتوراه، وقلبا ســلافيا كبيرا. الســلافيون معلمون بالفطرة، أليسوا كذلك؟ ســأحصل على تصريح الإقامة وبعــض الفتات عن الطاولة، ومن ثم ماذا؟ ثم سندرس الأمر.

بعد أن هدأت قليلا، أدركت أن ســيز لم يعِد بأي شــيء، ولم يكن ليلام على أي شيء. كنت أفتقد إلى الموارد الداخلية والخارجيــة معا. لقد كنت مكشــوفة لمن يريد. يســتطيع أي شخص أن يأخذني ويركلني ويفعل بيَ كل ما يريد، ثم يتركني مجروحة مهيضة الجناح. بسبب هذا كنت صيدا سهلا لثرثرة إنيس وكلماتها المعســولة. واللوم لم يكن ليقع عليها مثلها مثل

سيز. لقد فقدت كرامتي، وارتديت قناعا محاولة الدفاع عن نفســـي، واندمج القناع مع وجهي، وحفر طرقا داخلية عميقة في كينونتي. لم أعد أعرف نفسي.

مررت بإيجور وأنا خارجة من المقهى. كان يرتدي ســـماعات الأذن ويقرأ في كتاب كعادته. لم يرني. فجأة فكرت بالأمريكيين الذين كنت أعتني بأطفالهم في برلين، أولئك الذين طالما عرّفوني على أصدقائهم. «هذه تانيا. راعية أطفالنا. أنها من يوغسلافيا السابقة. إن تانيا رائعة مع الأطفال. تعرف كيف تعاملهم حقا».

٢٥

«أنت واحدة منا؟»، يسـأل بنظرة فطنة وابتسامة تكشف عن سن من الذهب. تتدلى من زاوية فم صاحبه سيجارة مبللة.

أرد قائلة: «نعم، أنا واحدة منا. من أين أنتما؟».

«أنا من سميديريفو، وهذا الرجل من كومانوفو. وأنتِ؟».

أقول: «أنا؟ أنا من المريخ».

الآن يبتسم كلاهما.

قال الغجري: «لا يوجد فيها ما يشـبه أهلنا. الشـفة هي ما تميزهم». ثم استدار نحوي. «أتريديننا أن نعزف لك شيئا؟».

«لم لا».

«إذن، شيء من الوطن. من المريخ».

«رائع».

التقط مزمـاره. ألقي صاحبه «بالأكورديـون» على كتفيه ثم ألقى السيجارة أرضا.

أخرجت ورقة نقدية من فئة مائة جيلدر وأسقطتها في القبعة.

نظـر عازف الأكورديون إلى الورقـة النقدية وأعول «الرحمة يـا أختي. هل أصابك الجنون أو شـيء ما لتلقي بالنقود هكذا؟ احتفظـي بها للظروف القاهرة، ليوم من أيام الشـدة. حسـنا، أتركـي لنـا جيلدرا أو جيلدريـن، لكن هذا المبلـغ؟ «يا إلهي! لا تفقدي صوابك يا امرأة. النقود لا تنمو على الأشجار!».

طمأنت قلقـه ولوحت إليه بيدي وتحركـت بعيدا إلى داخل الحشـد، شاعرة بقنبلة الفتى الغجري المؤلمة - «اغربي، آه، أيتها

الشـــمس الذهبية، اهبطي. اجعلي الســـماء مظلمـــة للقمر..».، «تفجـــري في قلبي، واســـكني فيه. وفجأة كان قلبي يســـبح في الدمـــاء، والجليد الذي يغطي جدرانـــه راح يذوب، ورحت أترنح عبر السوق والدم يقطر مني.

يعـــد ســـوق «ألبـــرت كايـــب» أكبر الأســـواق وأشـــهرها في أمســـتردام. يقع في منطقة «بيب»، وهـــي منطقة كانت تقطنها الطبقـــة الكادحة. وتأتي منصّات الســـوق، التي يقال إنها تتوف علـــى الثلاثمائة منصة، تنُصـــب كل صباح ولا يتم إنزالها إلا في وقت متأخر عصرا. كانت مســـألة شراء السمك، أو الفاكهة، أو الخضار مجرد غطاء مقنع للقوة المغناطيسية الغامضة التي كانت تجذبني إلى ذلك الســـوق الذي يلفه غبـــار اللقاح والعبق القوي للتوابل الآتية من وراء البحار، مدفوعة بالرياح والملح - الينسون، والقرنفـــل وجوزة الطيب. كان الهواء يتـــلألأ مع الحرير البديع، والمنسوجات الســـميكة، والمجوهرات الغريبة، والذهب، والخرز، والأصداف المفتوحة، واللون الفضي اللامع للسمك الطازج. كان للتفـــاح في ســـوقي لمعته الخاصة به، إذ توهجـــت كل حبة عنبة كمصباح، وكان الحليب دســـما وناصع البياض، أشـــبه ما يكون ببشرة امرأة الرسام «فيرمير».

لكـــن أحيانا كانت المغناطيســـية تفقـــد قوتهـــا عندما تقبع ســـمكة ميتة بثقلهـــا على المنصـــة، ويفقد التفـــاح، بالرغم من احتفاظـــه بحمرته، والخـــس، بالرغم من احتفاظـــه بخضرته، لمعانـــه. وهناك أيضا بائعو الملابـــس الرخيصة ومحيطهم الذي يعبق بروائح القماش الاصطناعي، أولئك الذين يبيعون أقمشـــة

ما أنزل الله بها من سلطان - أقمشة من الألياف الصناعية، ومساحات بلاستيكية من مختلف الأشكال والأحجام، وعقدا مصنوعة من النايلون بجميع الألوان، وأدوات خشبية بأصابع بلاستيكية لهرش الظهر، وأطعمة خفيفة ملفوفة في أكياس؛ وثمة بائعو الصابون، والشامبو، وكريمات الوجه، والحقائب اليدوية، والأزهار الاصطناعية، ووسائد الكتف، وقطع القماش، والإبر والخيوط، والمخدّات والبطانيات، والمطبوعات والإطارات، والمطارق والمسامير، والنقانق والجبن، والدجاج وطيور الدراج، والأوشحة البالية.

بينما كنت أتجول بين المنصّات وقلبي ممتلئ بالشظايا الغجرية، صادفت شيئا جذب نظري مباشرة - إنها حقيبة بلاستيكية بخطوط حمراء، وبيضاء، وزرقاء. لقد كانت «آنا» محقة، فقد اشتريتها بجيلدرين فقط. ثم إنني أشبه ما أكون بلعبة ميكانيكية معبأة، توجهت إلى الجزار الذي يدعى «زويد»، وجنوب، هي الشفرة لليوغسلاف المحليين الذين كانوا زبائنه الرئيسين. كانت واجهة عرض اللحوم تزخر بمفاصل لحم الخنزير، وكانت الرفوف تضم مجموعة متواضعة من المقبلات التي تثير الحنين إلى يوغسلافيا: من بهارات مقدونية، ونقانق من مدينة سريم، وزيت زيتون، وبسكويت البلازما (الذي جعله اسمه المضحك سلعة رائجة حالما ظهر في الأسواق)، وقهوة ميناس (التي كان مصدرها تركيا طبعا)، وحلوى المدخنة الزنجية (التي راجت أيضا بسبب اسمها). اشتريت علبة من البهارات وبعض الحلوى. كان ذلك على سبيل المجاملة، رمزيا ليس إلا،

فقد كنت أكره تلك البهارات، وكان طعم الحلوى مُرّا.

فيما كنت أفكر بالألوف المؤلفة من المهجّرين الذين يتركون دولهم للمجيء إلى دول كهذه الدولة، والذين يشترون بهارات يكرهونها وحلوى يعرفون مرارتها، وحقائب لن يستخدموها قط، وأدوات مضحكة بأصابع بلاستيكية لهرش الظهر، وعقدا من النايلون؛ في تلك الأثناء تابعت رحلتي الآلية متجهة نحو الشارع الفرعي بجانب متنزه «آوستر» حيث يوجد مقهى بوسني يسمى «بيلا». وجدت في المكان مجموعة من الرجال بوجوه متجهمة وشفاه مشدودة يلعبون الورق. كانت نظراتهم إلي مطولة ولكنها خلت من العاطفة تماما، حتى إنه لم يفاجئهم أن تلج امرأة عالمهم الذكوري. اتخذت مجلسا في الزاوية، وطلبت «قهوتنا»، وجلست في المكان نادِمة، إذا جاز التعبير. وسرعان ما بدأت أشعر بالصفعة غير المرئية على وجهي، ولاحظت أنني احدودبت كالرجال الموجودين في المكان.

بعد أن أنهيت شرب القهوة، أخذت الآثار التي جمعتها في رحلة الحج - علبة البهارات المقدونية، وحلوى المدخنة الزنجية التي تقبع في الحقيبة البلاستيكية ذات الخطوط الحمراء، والبيضاء، والزرقاء - وبدأت رحلة العودة إلى المنزل. لقد تلاشت الشظايا الغجرية في قلبي أثناء الفترة الفاصلة، ولم أعد أنزف دما، ولكنني لم أستطع تحديد ما إذا كنت قد ودّعت شيئا لفوري، أم أنني امتلأت باستمارة تقديم غير مرئية. «بحق الله يا أختاه. أأنت مجنونة أو شيء؟».

الجزء الرابع

٢٦

أنا مثل شفرة تمشي على قدمين

ألا ترى حجمي

أنا خطير

عاملني بشكل جيد

إن أردت أن تعيش

من الأفضل لك أن تعاملني جيدا.

بيترتوش

عرفت أنه إيجور لحظة قرع جرس الباب. عرفت أنه سيأتي من أجل معرفة السبب. دخل، وتجول في الغرفة وكأن حجمها لا يتسع له وأنه لم يكن قرر بعد ما إن كان سيبقى أم لا، ولكن بعد ذلك وضع حقيبة الظهر على الأرضية، وقال: «إذن هذه شقتك».

«نعم، هذه شقتي».

قال بسخرية: «غرفة معيشـــة ونوم معا، ومطبخ بمستلزماته وحمام».، ثم قال مقتبسا إعلانا تجاريا من التلفزيون اليوغسلافي: «مساكن صغيرة، متران في ثلاثة أمتار».

«آمل أن يكون مسكنك أفضل من هذا».

«إذن، قمت ببناء عشك الصغير تحت الأرض».

«لنقل إنه الطابق الأرضي».

قـــال وهو يجول بنظـــره في الغرفة: «ليـــس لديك الكثير من الكتب، أليس كذلك. بالنظر إلي مهنتك، ليس إلا».

سألته متجاهلة تلك الملاحظة : «هل تود أن تشرب شيئا؟»
«بعض القهوة. لا أرى أنك اختزنت أي شيئ آخر هنا».

بينما كنت أصنع القهوة، فكرت فيما سأقوله له. وبالرغم من أن الأكـواب كانت نظيفة، إلا أنني غسـلتها مرة أخرى. أمضيت وقتا طويلا في البحث عن علبة السكر. فعلت كل ما أستطيع في سبيل كسب الوقت.

هـي من زغــرب،. تُعتبر، نتاجا حقيقيا لهــذه المدينة وامرأة شابة رائعة حقا. وبالرغم من أنها في عهد الغرارة والطيش، ألا أن لديها إرادة حديدية وثابتة وجسورة. لا أحتاج إلى القول إنها متمكنة من شؤون البيت بالمقاييس التقليدية، لكنها أيضا تعرف الفرنسـية والإيطالية، وتسـتطيع أن تغني وترسـم، وتملك يدا بارعة في التطريز. وهي تعشق أن يقال لها إنها تقوم بواجباتها بتفان كبير، وإن هناك مسـحة مثالية في طبيعتها، وهذا جعلها تعتبر الإصلاح وتشريف الأرواح المودعة لديها مهمة مقدسة.

كان هذا اقتباسـا مـن «برانكا» للكاتب شـينوا، ذلك العمل الشهير في النثر الرومانسي، حيث تغادر معلمة في مقتبل العمر، مشـحونة بمثاليات الحركة الإحيائيـة الوطنية الكرواتية، تغادر زغرب متوجهة إلى قرية «يالشيفو» النائية لتعليم أطفال القرية. وبينما كنت أصب القهوة مديرة له ظهري، كنت أسـتمع له يقرأ من النسخة التي كنت قد استعرتها من المكتبة. كنت أشعر بذقني ترتجـف، وخفت من أن انفجر في البكاء. كانت طريقة صبيانية لإثارتـي، ولكنني أحسسـت بأن ذلك كان مجرد مقدمة لشـيء غريب كان قد أعد له.

قال وهــو ينزل الكتاب ويومــئ باتجاه النافــذة: «إذن، كنت تقضين كل هذا الوقت تتفرجين على أرجل المارة».

قلت بصوت هادئ قدر المستطاع: «يمكنك أن تتحمل شيئا إن عرفت أنه لفترة مؤقتة. يضاف إلى هذا أنني سأرحل في غضون بضعة أيام».

ســأل، غير مكترث بالمكان الذي سأذهب إليه، أو أنه تظاهر بعدم الاكتراث: «ما الذي يجعلك متأكدة أن ذلك مؤقت؟»

قدمــت له القهوة على صينية. كنــت أعرف لماذا جاء وقررت الذهاب إلي الموضوع مباشرة بغض النظر عن النتائج.

«انظر يا إيجور. أنا آســفة جــدا ...»، وبدأت أضع الصينية على الطاولة.

«عظيم. أنتِ آسفة».

«اجلس» قلت، وقد جلســت أنا. بقي واقفا. أدار ظهره لي من جديد، وجعل يحملق عبر النافذة.

«أعلم أنك هنا بسبب الدرجة التي أعطيتها لك».

استدار وحملق فيّ بعينيه السوداوين المائلتين.

«وإن كان الأمر كذلك؟»

«لا أعرف» أجبته. شعرت بصوتي يتكسر وبذقني يرتجف من جديد.

اســتدار مرة أخرى وعبر الغرفة متجها إلى السلة التي كنت أضع فيها أشــياء مختلفة، بما فيهــا الهدايا التي قدمت لي في عيد ميلادي. بدأ إيجور يتفحص الهدايا.

قال وهو يخرج زوجا من القيود: «كانت الأمور جيدة جدا في

البداية، أليس كذلك؟»

قلت بحذر: «أجل ...».

«بالمناسبة يا رفيقة، هل سبق أن جربت هذا القيد؟».

«لماذا أجربه؟».

«أوه، من قبيل حب الاستطلاع. ألم تتساءلي حتى كيف يُفتح؟»

«كلا».

قال: «وكنت أظن أنه يفترض بالعلماء أن يتميزوا بحب الاستطلاع».

احمر وجهي خجلا بسبب التهكم في صوته، ومرة أخرى كنت على حافة البكاء.

تقدم إيجور نحوي وأخذ كوب القهوة من يديّ، ووضعه على الصينية.

«ما قولك في أن نجربه؟» سألني، وقد أخذ يدي ووضع شفتيه على معصمي. كانت شفتاه باردتين وجافتين.

ثم رفع معصمي وبمهارة قيّده بذراع الكرسي.

قال بلطف: «في هذا الوضع، أنت الآن عبدة لي».

نطقت بكلمات لم يكن لها وقع كلماتي: «أي نوع من الهزل هذا؟».

سحب إيجور كرسيه إلى مكان قريب مني وأخذ يدي الأخرى.

«كان ذلك سريعا، أليس كذلك؟ أراهن أنك أعجبت بذلك. لقد تمرّنت عليه لساعات طويلة».

سحبت يدي منه. «كفى الآن. انزع القيد من فضلك. لن يكون هذا صعبا بعد كل ذلك التمرين الذي تمرنته». وكنت أفعل كل ما

أستطيع لرسم ابتسامة على شفتيّ.

أخذ يدي الأخرى من جديد، ووضعها على خده ومسّد عليها مرات عدة.

قال: «آه، يا بروفيسورة. إنك تملكين يدا من القرن التاسع عشر».

«أملك ماذا؟»

«يدك تشبه أوصاف الأيدي في روايات القرن التاسع عشر، يد بيضاء رقيقة».

وضع يدي على يده وقلبها كما يقلب القفاز.

«ما عليك إلا أن تقضمي أصابعك. مثل طفلة صغيرة». وبدون سابق إنذار دفن رأسه في حضني وقال: «ساعدي طالبا مسكينا، ألا يمكنك ذلك؟».

اعتدلت، وسحبت يدي منه، وجعلت أمسّد شعره. بقي في مكانه لبعض الوقت، ثم رفع رأسه وأخذ يدي ولحس راحتها قبل أن يضع معصمي بالقيد الثاني ويربطه بذراع الكرسي الآخر.

قال لي: «حسنا. الآن أنتِ ملكي، بكل ما تعني الكلمة من معنى».

قلت وقد احمررت خجلا من جديد: «لننهي هذه اللعبة الخرقاء، من فضلك؟»

قال ساخرا: «إذن، ما زلت تأملين أنها مزحة».

«توقف عن تصرفاتك الغريبة تلك يا إيجور. إن كنت تعتقد أنك عدت من أجل تقديمي للعدالة ...».

«العدالة! أنت واهمة، يا رفيقة. أنا لا أكترث بالعدالة إطلاقا».

«كان ســـبب إعطائي إياك درجة «راســـب» هو أنك وشيت بي لسيز دراسيما».

«أنا؟!»

«بعد الفصل الأول وشى أحد الطلبة لسيز بأننا لم نفعل شيئا في حجرة الدراســـة، وأن الأمـــر كان مضيعة للوقت، وأنني كنت أجبركم على الذهاب معي إلى المقاهي».

قال هازئـــا، بالإنجليزية التي هي لغة ســـخريته،: «لا تقولي ذلك!»

تولد لدي شعور بأنه لم يفاجأ البتة.

«لقد أخبرني سيز بكل شيء».

«واعتقدتِ أن ذلك الشخص هو أنا؟».

«إنه واحد منكم. أنت أو شخص آخر».

«ثم ماذا؟»

«ثم مـــاذا؟ لقد روّجتم الأكاذيب عني، ووشـــيتم بي، ولم تكن لديكـــم الجرأة أن تتحدثوا معي مباشـــرة. كلا، لقد هرولتم إلى سيز وأخبرتموه بذلك من وراء ظهري!».

«لذلك قررتِ أن تنتقمي منا».

«لم أكن أنتقم منكم. كنت أقوم بعملي»

«لكن ماذا لو لم يكن هناك أحد اشتكاك؟ ماذا لو كانت القصة برمتها من نسج خيال درايسما؟»

«ما الذي يجعله يفعل شيئا كهذا؟»

«من قبيـــل الهزل، ليس إلا. أو ليري قدرته على التلاعب بك وبنا جميعا بسهولة».

«لم يراودني ذلك الشــك، إذ بدا صادقا فيما قاله. بدا وكأنه يمتلك تقارير عن كل المحاضرات».

«أتعرفين رأيي يا رفيقة؟ لا أعتقد أن ســيز هو المشــكلة، ولا أعتقد أن المشــكلة هي نحن؛ إن المشــكلة هي أنتِ بالذات. أنتِ مــن كان يبحث عن ذلك. حتــى لو أننا كنا شــكوناك إليه، كان بإمكانــك تجاهل ذلك ونســيانه. أو كان بإمكانك معالجة ذلك. فنحن جميعا نواجه هذه المشكلة. كان بإمكانك أن تصفحي عنا. كان بإمكانك أن ترأفــي بأغبياء مثلنا. كان بإمكانك أن تتحدثي معنا لحل المشــكلة. كان لديك الكثير من الخيارات. أترين هذا؟ ولكن الحل الذي اخترته هو أن تشني حربا ضد الفصل بأكمله».

«ما الذي تتحدث عنه؟ أنا لا أفهم ما تقول».

«أخبريني، لماذا أعطيتني درجة راسب؟».

أجبتــه: «لا أعرف»، وكانت تلك أصــدق إجابة يمكن أن آتي بها.

قال بهدوء وهو يلمس ركبتي: «أنت تعرفين السبب حق المعرفة، أيتها السافلة. أنت فقط محرجة من الاعتراف بذلك».

«كيــف لك أن تخاطبني بمثل هذه اللغة! قم بفك هذه القيود، وإلا اتصلت بالشرطة».

«أنت مثيرة للشفقة يا رفيقة».

«مثيرة للشفقة؟»

«كيف تقترحين أن تضربي الرقم؟»

لم يكن لدي إجابة.

«ماذا تريد مني على أي حال؟»

«يبـــدو أنكِ تعلمت هذا التعبير من أحد الأفلام التجارية. ماذا أريد منك؟ لا أعرف ماذا أريد منكِ بنفس الطريقة التي لا تعرفين لماذا أعطيتني درجة «راسب». لنقل إنني أريدك أن تتشنجي بعض الشيء. أريد أن أسمع الطريقة التي تتحدثين بها عندما تضغطين على جرس الإنذار. أريد أن أعرف ماذا يجري حقا».

«ماذا يجري حقا؟»

«أوه، إنـــي أقرأك جيدا. أعرف كم أنت مرعوبة. ولكن هناك شـــيئا يمنعك من خلع قناع المعلم الذي ترتدينه. أشعر وكأني في دورة سخيفة تتعلق بالدفاع التافه عن حدود سيادة الذات».

«كفانـــي من هذا. ســـأبدأ بالصراخ». لم أصـــدق حماقة ما تلفظت به.

«اصرخي وسأصفعك صفعة ...».

رددت عليه: «لن تجرؤ على ذلك».

«أتراهنين؟»

وقبـــل أن أفتح فمي، صفعني على وجهي صفعة قوية. فقدت قدرتي على التنفس.

تمكنت من قول: «أنت مجنون!»

«وأنتِ»

قلت وأنا ألتقط أنفاسي: «كيف تجرؤ على هذا؟».

«إني شـــخص يمتلك الجـــرأة. يمكنك التخلـــص من تباهيك الفارغ».

«انظر يا إيجور. كل ما عليّ فعله هو الاتصال بالقسم وتغيير الدرجة».

«أنت تثيرين الشفقة مرة أخرى يا رفيقة. أنا طالب الامتياز، ولن تغيّر درجتك من الأمر شيئا».

لقد أفحمني. لم أجد طريقة للدفاع بها عن نفســـي. ولم تكن لدي الإرادة كذلك. أخذت نفســـا عميقا وقلت بحذر: «سامحني يا إيجور. سامحني. أرجوك».

قال بهدوء: «لا يبدو أنني سأنتزع ما أريد من صدرك».

«تنتزع من صدري ماذا؟»

«ما ينبغي قوله».

«لن تســـتطيع الآن ولا مســـتقبلا، لأني لا أملك ما تريد! فأنا أحاول ذلك منذ شهور».

كنت أرتجف من الغضب. مرة أخرى ســـمعت نفسي أتحدث مثـــل طالب أجنبي فـــي دورة لتعلم اللغـــة الكرواتية. حاولت أن أخرج يدي من القيد، ولكنني كنت أئن من الألم.

تعامـــل إيجور مع احتجاجي وكأنه يشـــاهد عملا مســـرحيا رديئا. ثم مدّ يده في جيبه وأخرج لفة من الشريط اللاصق.

«أين تحتفظين بمقصك؟»

قلت من خلال دموعي: «على الرف».

قطع «إيجور» قطعة من الشـــريط ووضعها على فمي بمهارة محترف.

«ها أنتِ هنا! لقد حصلت على ما تسعين إليه: فيلم الأسبوع. أنت فخورة بنفســـك، أليس كذلك. لديك رأي عالٍ في نفســـك؛ فأنت تعرفين أنك في مأزق حقيقي، ولكنك متأكدة من أن لديك ســـبل النجاة. أنت متأكدة من أن لديـــك مرتبة عالية وممتلكات

ورجـــل (بالرغم من أنه رحــل إلى اليابان) وشـــقة (بالرغم من أنهـــا مأهولة بالغرباء) ومكتبة (رغم أن الكتب لم تعد ملكا لك)، وشهادة دكتوراه (بكل ما تقدمه لك من ميزات). وفي زاوية دفينة في عقلك، أنت متيقنة من أن الحياة ســتعود كما كانت من قبل، وأن الحياة التي تعيشــينها الآن ما هي إلا نزهة قصيرة تقومين بها. كل ما عليك فعله هو أن تطقطقي أصابعك وتصيحين بأعلى صوتك بأن الأمور عادت إلى طبيعتها. ألست على حق؟ وبالرغم من أنك أمضيت شـــهورا وأنت تعدين أرجـــل المارة عبر النافذة، وبالرغم من أنك شـــاهدت الأفلام التجاريـــة بوفرة، إلا أنك لم تتخيلي نفســـك في ســـيناريو آخر: كأن تقفي في واجهة عرض زجاجية في المنطقة الحمراء تحاولين إغراء المارة إلى مضجعك الحقير، أو ملاطفة الرجال المسنين السذج مثل ميليها، أو القيام بتنظيف الحمامات مثل سليم.

هـــل فكرت يومـــا أن طلبتك قد يكونون أفضـــل منك؟ أناس أفضـــل؟ هل حدث ذلك؟ أنت لســـت شـــخصا غير حســـاس يا رفيقة. ربما يكون راودك شيء من هذا القبيل. ولكن هل راودتك إمكانيـــة أن يكون طلبتك يعرفون أكثر منك؟ إلا أنهم تعودوا على الذل، وألا يتباهـــوا بمعرفتهم. لقد علّمتهـــم التجربة أن الأمور نســـبية. والأمور نسبية حقا. حتى البارحة كانت المسافات تقاس بالســـنتيمترات، إذ كان يمكـــن أن تصيبك قنبلة مـــا. من المؤكد أنك تتعاطفين مع أولئك الذين عانوا، من أصابتهم تلك القنابل. ولكنك لن تعترفي بذلك لنفسك أبدا – ففي الأماكن الدفينة من عقلك أنت تظنين أن القنبلة تختار هدفها. وإن كان الأمر كذلك،

فـــلا بد من وجود ســـبب لذلـــك. هناك ما يمنعـــك من الخروج باستنتاجات وجيهة، من فهم أن كونك معلمتنا هو محض صدفة لا غير. كان من الممكن ببساطة أن يكون الأمر عكسيا تماما، أن تكوني أنتِ جالســـة معنا، وكان من الممكن على ســـبيل المثال، أن تكون ميليهـــا هي المعلمة. لقد دمّرتنا تلـــك القنبلة وحولتنا إلى أشـــباه بشر، ولكن يبدو أنك تظنين أنك أحسن حالا منا، ورفعت شعور الاستعلاء جاعلة منه قانونا من قوانين الطبيعة.

أخبريني، هـــل خطر ببالك أنه ربما كنت تعذبيننا طوال ذلك الوقت؟ هـــل خطر ببالك أن الطلبة الذيـــن كنت تجبرينهم على الاستذكار كانوا يتوقون للنسيان؟ إنهم كانوا يخترعون الذكريات لتسليتك بنفس الطريقة التي كانت قبائل «بابوا» غينيا الجديدة تخترع أســـاطير آكلي لحوم البشر لتسلية علماء الأنثروبولوجيا؟ طلبتك ليسوا مثلك، فهم يحبون هذا البلد. وبالرغم من أراضيها المنبســـطة وأمطارها المســـتمرة وصعوبة وصفها، إلا أن لهولندا ميـــزة فريدة - إنها بلد النســـيان، والبلد الـــذي يخلو من الألم. يتحول الناس إلى برمائيين هنـــا، طوعا دون إكراه. يحوّلون لون الرمال، ويمتزجون فيها قبل أن يتواروا، أشـــبه ما يكون بالأحياء البرمائية. هذا كل ما ينشدونه - التواري. السهل الهولندي عبارة عن نشـــافة ضخمة تمتص كل شيء - الذكريات والألم وكل ذلك الهراء...».

توقـــف إيجور عن الحديث. بدا مرهقا. أخذ كتاب «شـــينوا» مرة أخرى عن الرف وجعل يتصفحه وهو شارد الذهن.

شـــعرت بالدموع تسيل على خديّ. لم أستطع أن أحدد سبب

تلك الدموع. الإذلال؟ رثاء الذات؟ الطبيعة المأساوية للموقف الذي وجدت نفسي فيه؟ أو طبيعته الهزلية؟ يا إلهي! جعلت أفكر. أشعر بأنني أقرب من هذا الرجل في هذه اللحظة أكثر من شعوري بالقرب من أي رجل آخر في حياتي في الماضي، ولا أجد سبيلا لأبوح له بذلك. ولم أكن أشير إلى أن شفتيّ كانتا مغلقتين بالشريط، ؛ ولكنهما كانتا مغلقتين تماما دون وجود الشريط.

لا بد أن إيجور قد قرأ ما دار بذهني. عندما استدار ليواجهني، قرأ بصوت عال النص التالي: «بدأ مقياس ضغط قلبك بالهبوط، وبدأت عيناك تغرورقان بالدموع».

كنت في الجهة الأخرى. كان يفصلنا جدار غير مرئي من الجليد. هل من الممكن أن يقول إنه كانت لدي رغبة واحدة في تلك اللحظة، وهي أن أضرب رأسي فى عرض الجدار؟ احتجت إلى المساعدة. عانى قلبي من خطأ ما، ولكنني لم أستطع أن أحدد مدى خطورته. لقد كنت بحاجة ماسة إلى ملجأ، إلى حضن ألف نفسي فيه، إلى مكان انتظر فيه للتخلص من الألم، مكان آتي إليه، أعود فيه إلى نفسي.

«أرجوك أن تخبريني يا دكتورة»، قالها ملقيا الكتاب بشكل درامي على الأرضية، «ماذا أنا فاعل بك؟ إن أدبا هامشيا كأدبنا لا يستحق الجدل حوله. كلا، كلا، لا تقلقي. إنني آسف من أجلك، فأنت مدرسة لآداب هامشية، آداب صغيرة، والأسوأ أن هذه الآداب تقلصت في الآونة الأخيرة. ولكنك ما زلت تجرينها من خلفك حيثما ذهبت. الوقت يمر وقد أصبح متعذرا تغيير

حقــل التخصــص، إذ لا يمكنك التخلي عن تلــك الآداب هكذا، أليس كذلك؟ إذن، مــاذا أنت فاعلة؟ أن تتقذي ما يمكن إنقاذه. لقد ذهب كل شيء إلى الجحيم - الفتيان والفتيات، ولكن لنجمع القطع من بين الحطام كعلماء الآثار».

هــل فكرت فيما ذهب إلى الجحيم؟ أكوام من الكتب باللغتين الكرواتية والصربية، وباللغتين السلوفينية والمقدونية، وبلغات لا يحتاجها أحد. وعن ماذا؟ تعليم «الناس»، «الأهل» القراءة. الأدب الحقيقي لا يُعلــم الناس القراءة؛ إنه يفترض أنهم يســتطيعون القراءة. في الســنة التي نشرت فيها رواية «مدام بوفاري»، كانت زغرب قرية عدد ســكانها ١٦٦٧٥، ســتة عشــر ألفا وستمائة وخمسة وسبعين شخصا! عندما استل مثقفونا المحليون أقلامهم للكتابة، كان جميع العمالقة الأوربيين أمثال «جويث» و«ستندال» و«بلــزاك» و«جوجول» و«ديكنز» و«دوستوفيســكي» و«فلوبيرت»، و«موبســان» - يمــلأون الحياة الأدبية. في الســنة التي ظهرت فيها رواية «الجريمة والعقاب»، كان ثمانون بالمائة من الكرواتيين أميين.

لذا، كوني واقعية يا رفيقة. انظري من حولك. لقد غدا فصلك خاويا، فقد تخلى عنك طلبتك. خرجوا ليروا العالم الفسيح، فهم يملكون منظومات قيمية خاصة بهم، ويقرأون لغات مختلفة (إن كانوا يقــرأون فليكن ذلك، هذا إن كانت القــراءة ما زالت تعني لهم شيئا)، بينما أنتِ ما زلت تعيشين في العصر الذي لم يعرف «مهمة أنبل من نشــر النــور والثقافة والمعرفة بــين الناس». إن القلب الذي ينبض فــي صدرك هو ذلك القلب الذي كان ينبض

في صدر معلمة القرية «برانكا» في رواية «شينوا» قبل مائة عام. مــاذا تعرفين غير ذلــك؟ أنتِ لم تتعلمي حتــى اللغة الهولندية! وهذا وضعك خلف طلبتك بخطوة عملاقة.

ولعبــة الذاكرة تلك التي فرضتها علينا! خلال بضع ســنوات ســيتحول ذلك الهراء من الحنين إلى سيل من الأموال المتدفقة. كان السلوفينيون أول المســتفيدين من ذلك، فقد طرحوا قرصا مضغوطا في الأســواق يضم خطابات «تيتــو». وهنا تذكري ما أقول. ســتختفي فكرة الحنين إلى يوغسلافيا من أسماعنا. وإن أردت أن تعرفــي أكثر ما أتذكره عن الوطن البائد، ما أتذكره هو أن أولئك الســفلة المحليين أرادوا تجنيدي وإرسالي إلى الجبهة! مــن أجل الحفاظ على إنجــازات بلدهم. بلدهم؟ كل المكان ملك لي. أنت تعرفين الأغنية: «من فاردار في الجنوب إلى تريجلاف في الشمال ...».

كان «إيجور» في حالة انهيار - مناقضا لنفسه، ويلهث ليلتقط أنفاســه، ولكن تلــك كانت حالتي أيضا، ولم أر ســبيلا لتجميع نفسي من جديد.

«لم أجد أحدا يقف بجانبي. لا أحد إطلاقا. لو لم أنج بجلدي لكنت جثمانا اليوم. لم تقفي معي أنتِ أيضا. لكننا لم نكن بحاجة إلــى درجاتك، ولا إلى أدبك التافــه أيضا. ما كنا نحتاج إليه هو إنســان عاقل لمعالجة الأمور. في البداية بدا وكأنك في الطريق الصحيح، إذ كنت متلعثمة وقلقة. ولكن ســرعان ما استسلمت. لقد توقفت في منتصف الطريق. كان موضوعك يدور حول ثقافة فقــدت جوهرها بالكامــل، وقد غاب عنك ذكــر تلك الحقيقة.

ثم إنك لم تتحدثي إلا عن الماضي، فعندما ناقشتِ الكاتب «أندريتش»، لم تذكري أن مجموعة قصابي الثقافة الحاليين قد جزأوه إلى ثلاثة في الوقت الحاضر: أندريتش الكرواتي، وأندريتش البوسني، وأندريتش الصربي. وعندما ناقشتِ تاريخ الأدب، نسيت أن تذكري أن مكتبة جامعة سراييفو قد قصفت ومحيت من الوجود، وأن كتبها الآن تستخدم حتى في المواقد وتلقى في المزابل. في هذه الأمكنة تجدين التاريخ الأدبي الحقيقي للأمة اليوغسلافية. لقد حرقت الممتلكات عمدا. لم تتحدثي عن إحصاءات وأماكن الدمار. كلا، لقد التزمتِ بمنهاجك. لم تقفي بجانب ما كنت تعتقدين به، ولا حتى هنا حيث تتمتعين بقول كل ما تريدين. لقد أسأت إلى نفسك حقا.

في البداية، كما قلت سابقا، بدا وكأنك استوعبت الأمر. قلتِ إننا جميعا مرضى، وإنك أنت مريضة أيضا. ولكن سرعان ما أصابك الرعب، وقررت النجاة بجلدك. ويشبه هذا اعتقادك بأن الشيء الوحيد الذي له أهمية هو حقلك، لأن راتبك يأتي من التدريس في ذلك الحقل. لكن يا له من حقل بائس ومليء بالهراء. ومع ذلك اعتقدتِ إن كنت فتاة طيبة، فسيعطونك الوظيفة وتستقيم أمورك. لقد كنت مخطئة حقا. أنتِ لم تعولي على دراسيما، شخصية أخرى مثيرة للشفقة. ولكن عنده ميزة تفتقرين إليها، وهي أنه هولندي. إنه زائد عن الحاجة مثلك، وهو يعرف ذلك، ولكنه، على عكسك، يمتلك السلطة. لذا، أعطى الوظيفة لأناس تحت إمرته (زوجته)، أو لشخص يتفوق هو عليه (لاكي).

إني أشــفق عليك يا رفيقة. تمســكي بأول هولندي تقابلينه. لأن هذا البلد طيب، ولن يخذلك. وشــيء آخــر أريد أن أقوله. أنــت امرأة محظوظة، محظوظة لأنني أقول لك كل هذا. فهناك شيء من ثلاثة يحدث عندما تمرين بما مررنا به جميعا: إما أن تصبحي شــخصا أفضل، وإما أن تصبحي شخصا أسوأ، وإما، كما فعل يوروش، تطلقين رصاصة على رأسك».

توقف إيجور عن الحديث فجأة، وســاد الغرفة صمت يشــبه البلسم الشافي. لم تزل عيناه تحملقان فيّ.

«حســنا، لقد نزلت علــيّ اللعنة! وأنت تســتمتعين بكل هذا! إنك امرأة متوحشــة وجميلة، حقا إنك كذلك». مر بأصبعه على ملامحي، وكأنه يكتب رســالة: «أيا معلمتي الكرواتية الحلوة، أيا معلمتي الصربية الحلوة، أيا معلمتي البوسنية الحلوة ...».

حبست أنفاسي.

«مــا أنا فاعل بك يــا رفيقة؟ أخبريني. لقد انســحبتِ. أنت تختبئين. أنت ســلحفاة تحت صدفتك. لا أحد يستطيع الوصول إليك. أنت تستطلعين من خلال برقع غير مرئي».

توقف من جديــد. وضع يده في جيبه وأخرج شــفرة حادة. تجمــدت. انحنى فوقي، وأخذ يدي اليمنــى، وضغط كفها على ذراع الكرســي وقــام بجرح معصمي بهدوء وحــذر. كان الجرح قصيرا وضحلا. جرحني مرة ثانية، وثالثة بالطريقة نفسها.

لم أشعر بأي ألم، لكن الدموع انهمرت من على خديّ. من بين دموعي استطعت أن أرى تدفقا رقيقا للدم على طول يدي. بدت الجروح المغطاة بالدم في معصمي كسوار طبيعي.

«شيء تتذكرينني به. ساعتك في المعصم الأيسر وفي المعصم الأيمن - إيجور، طالب المعلمة المدلل ... حسنا، سأرحل. وبالمناسبة، رقم الشرطة هو واحد واحد اثنان».

رفع حقيبة الظهر عن الأرضية واتجه نحو الباب. ولكنه عندئذ استدار نحوي، وبحركة سريعة بيده نزع الشريط من على فمي. صرخت.

«اهدئي!» قال بحنو، واضعا يده على شفتيّ. ثم سحب يده، وانحنى من فوقي، وقبّلني قبلة رقيقة طفولية، وقد جمعت شفتاه الدموع في طريقها. «الآن لديك فرصة أخرى لتبوحي بسرّك يا دكتورة».

ربطت لساني عن الكلام معاندة.

قال بصوت هادئ يشبه الهمس، وهو يحملق في عينيّ «ماذا لو كنت ذلك الشخص الذي وشى بك لدرايسما؟ قد أكون أنا من فعل ذلك. لقد كرهت ثقتك الزائدة بنفسك، وشعورك بالنقمة، وشكوكك المصطنعة، وغياب الصدق في مشاركتك لنا في حياتنا. نعم، كان يمكن بكل بساطة أن أكون أنا. فقد تحولت أنا أيضا إلى بطل فيلم «الناهي»، إلى «شوارزنيجر». جمعينا شوازنيجر الذي يثرثر - المجرمون، والمحتالون، والأبرياء والضحايا، والناجون، واللاجئون، والأهل في الوطن، والأهل هنا- لقد تغيرنا جميعا. والحرب هي المسؤولة عن ذلك، إنها الحرب. لا أحد يخرج من الحرب دون خسائر. لا أحد سليم العقل. لكنك تبدين في غاية الإشراق والتألق، مثل كوب من البورسلين. بالطبع، كنت أريد أن أكسّرك،

وأهشّمك، وأنتزع شيئا من داخلك، شيئا من الحنو، ومضة عطف، أي شيء...».

حملق إيجور في بعينيه السوداوين المائلتين وكأنه يقيس روحي. أمسكت لساني عن الكلام.

بعد أن رحل وأغلق الباب من خلفه، ساد الغرفة صمت جديد مطبق. بقيت جالسة هناك لفترة من الوقت دون حراك مصغية؛ ثم فجأة تشنجت وبصقت رصاصة غير مرئية، تلك الرصاصة التي كنت أطبق عليها بين أسناني منذ البداية. خرجت من حنجرتي صرخة مدوية، الصرخة التي لا بد أن إيجور كان يحاول انتزاعها مني طوال الوقت. ولكن عندئذ كان إيجور قد ابتعد لدرجة لا يمكنه سماعها.

٢٧

بعد مغادرة «إيجور» ومضت في ذهني صورة لأول سنة لي في المدرسة. لم تكن الطريقة التي كانت المعلمة تعاقب فيها التلاميذ بإيقافهم في الركن، وإنما بإيقافهم خلف السبورة، والسبورة في ذلك الوقت كانت توضع على حامل خشبي. وبالتالي كانت عبارة - خلف السبورة - رمزا للعار والإذلال.

في تلك الصورة وقفت تلميذة خلف السـبورة كعقاب لها من المعلمة. كل ما استطعنا رؤيته من جسمها هو رجلاها في جوربين أبيضين يمتدان حتى الركبتين وقدمان في حذاء من الجلد الأسود. وكنا سننسـاها بالكامل لولا أننا سمعنا فجأة صوتا ضعيفا بدأ يعلو تدريجيا عندما توقفنا عن الكلام وحبسـنا أنفاسنا. عندها بـدا جدول رقيق من البول يقطر على الأرضية. جلسـنا وجعلنا نحملق بالسـيل الذهبي الذي يتزايد من بين رجليها، وقد شـق طريقة من على الأرضية نحو مقاعدنا.

بحجم مكبّر وبحركة بطيئة عرض المشـهد نفسـه الآن أمام عينـيّ. لم يزل جسـم التلميذة متواريا خلف السـبورة، فكل ما اسـتطعت رؤيته هو جدول البول يتدفق في تشـكيلة واسعة من القطـرات اللامعة. ثـم أدركت أنني أبول. كنت أحس بالسـائل الدافئ يقطر من على رجليّ. بقيت جالسة لفترة من الوقت، وأنا في حالة فقدان للوعي، أصغي إلى دقات قلبي. حبست أنفاسي، ورحت أتابع إيقاعه.

ثـم جاءت صور أخرى، بطيئة متثاقلة من أماكن بعيدة. بعيدة

جدا. كان أول ما طفا على السطح مشهد مألوف، وهو صورة بالأبيض والأسود من ألبوم أمي. لا بد أنني كنت في الرابعة أو الخامسة عندما التقطت تلك الصورة. أقف في قطعة أرض جرداء، ناظرة مباشرة إلى الكاميرا. إنه وقت الشتاء، ولكن ليس ثمة ثلج. كنت أرتدي معطفا رسميا بصدرية مزدوجة مصنوعة من الصوف الخشن، وبياقة وأطراف مزينة بالمخمل. إحدى اليدين في جيب (كان طرف المعطف مرتفعا بعض الشيء)، والأخرى على الجنب. يرتسم أثر لابتسامة على وجهي. لا يوجد شيء أمامي أو إلى جانبيّ. أنا الشيء الوحيد في الصورة. جسم بشري صغير قذف بيَ إلى بقعة خالية في مكان ما. وبالرغم من ألفة تلك الصورة، صعقت لأول مرة كم كان واضحا وبشكل مطلق أنني وحيدة.

أخرجتني قشعريرة مفاجئة من غيبوبتي، واندفعت في طريقي نحو الهاتف. لكن ما إن وصلت هناك حتى انهرت مرة أخرى، وتجمدت لبرهة. ثم تمكنت بطريقة ما من رفع سماعة الهاتف وضغطت الأرقام ١١٢، وأعطيت عنواني عبر السماعة. عندما ظهر شرطي عند الباب فيما بعد، ورآني مقيدة اليدين مع الكرسي، ورأى خطوط الدم المتخثرة على معصمي الأيمن، واشتم رائحة البول، قرأت شيئا استطعت أن أحدده في نظرته. شيء جاء متزامنا مع شيء آخر في تلك اللحظة، وأخيرا اكتشفت الصلة: لقد كان الشرطي يراقبني بنفس النظرة التي كنت أراقب بها الفتاة في البقعة الجرداء.

لقد كان إيجور محقا. لن أنساه. وهو لن ينساني؛ أنا متيقنة

من ذلك. لأنه كان بإمكاني أن أمتنع عن ذكر اسـمه للشـرطي، لكنني لم أفعل. والأكثر من ذلك، أنني اتهمته بالاغتصاب، والاقتحام، والتهجم، وعن الاغتصاب، سينال كما أعتقد، عدة سنوات في السجن، وسيحتفظ بسجل إجرامي سيلاحقه مدى الحياة. لو لم أفعل ذلك، لم يكن له أن يتذكرني. فعلتها من أجل ذلك. كنت قد نثرت بذوري. كنت معلمة، ألم أكن كذلك؟

ليس ثمة شيء اسمه الرحمة، ليس ثمة شيء اسمه الشفقة؛ هناك فقط فقدان السيطرة؛ هناك فقط الذكريات التي لا نهاية لها للإهانة والألم. ذلك هو الدرس الذي جلبناه معنا من البلد الذي جئنا منه، وهو درس لن ننساه. الصراخ والصياح بمثابة جرس بافلوف بالنسبة لنا؛ فنحن صُم عن كل شيء آخر. الإمساك برائحة الرعب هو لعب أطفال بالنسبة لنا؛ لا شيء يدغدغ أنوفنا أكثر منه.

السوار الطبيعي من الجروح الصغيرة الثلاثة في معصمي الأيمن، ورائحة البول، كانا القيود غير المرئية التي تربطنا، أنا وتلميذي. رأيت ذاتي المستقبلية تقوم علي بإيماءة مكتسبة حديثا، نوع من التقلص اللاإرادي الذي لن أتخلص منه لوقت طويل. تكونت من طبع الفم على المعصم، وضغط الشفتين ببطء على الخطوط الرقيقة الثلاثة وتقبيلها، ذلك هو ختم إيجور، علامة إيجور - ثم المرور عليها برأس اللسان للتأكد من أنها ما زالت هناك، وأخيرا تحريك المعصم ببطء ورفعه عاليا نحو الضوء، حتي أن الخطوط الآن رطبة من الرضاب وتشبه عرق اللؤلؤ.

الجزء الخامس

٢٨

همتي دمتي قعد على الجدار
همتي دمتي سقط سقطة مهولة
كل خيول الملك وفرسانه
لم تستطع جمع أشلاء همتي دمتي معا.

لقد داهمتني الكوابيس في بداية الحرب، ثم عادت مرة أخرى عندما غادرت أنا وجوران زغرب. اتسمت بالبنية نفسها، وكانت تدور حول أحد المنازل. كان لذلك المنزل جانبان: واجهة أمامية وجانب آخر. كنت أعرف الواجهة الأمامية، لكني لم أعرف الجانب الآخر إلا في أحلامي. قفزت الواجهة الجانبية في وجهي مثل لعبة مشدودة بزنبرك في صندوق عند فتحه. في الحلم كنت أصادف بابا ودرجا وممرا يؤدي إلى جزء مواز من المنزل الذي لم أشك في وجوده قط، أو بطريقة أخرى كنت سأكتشف أن المنزل كان عائما إلى حد ما، مثل القلاع الموجودة في الهواء وفق الأمثال السائرة. كنت أزحزح بعيدا رفا عن الجدار لأجد حفرة تهب من خلالها رياح قوية، أو لا أجد جدارا البتة، ثم كنت أنظر إلى الخارج فأرى المنزل متدليا بسلك نحيل، بال.

كانت المساحات الموازية في أحلامي تدل على تحذيرات وحشية، وتشوهات ملامح الوجه، والمكر. كانت الأحلام تأتي مثل هبات مفاجئة من الريح، يعقبها فترات من الهدوء، ومن ثم

تهب من جديد بقوة متزايدة. ولكنها في النهاية تضعف وتتوقف تماما.

مع مرور الأيام، كانت تلك الأحلام تلف كشـلة خيط واحدة، وكنت أضعها جانبا. كلها فيما عدا حلم واحد، الذي جعلت شغلي الشاغل أن أتذكره. ذلك المنزل في الحلم كان أشبه بالتيه. كان ذا مستويات عدة ومصنوعا من عدد من المواد المتنافرة. كان السقف عاليا جدا وبدا أكثر ملاءمة لكنيسة. فجأة لاحظت أن السقف كان ينتفخ مكونا شكلا لشيء يشبه الأنبوب، وقبل أن أميزه، انفجر السقف ولم ينزل عبر الأنبوب سوى جدول من الكتب. بدأ القطر بحجم حبة قمح لكنه انتهى بحجم كتلة جليدية، والصفحات تتساقط عبر هواء يعج بغبار الكتب. لم يكن جوران موجودا، لكنني كنت أرى أمي واقفة في الجهة الأخرى من الغرفة، وهي تحملق في السقف مندهشة. جريت إليها وأخذتها من يدها، وجرينا إلى الشارع قبيل انهيار السقف، وكأن المنزل كان من الكرتون.

صرخت أمي: «المفتاح! هل لديك المفتاح؟».

«كلا»، رددت شاعرة بالذنب، علما بأنني كنت مدركة تماما سخافة ذلك القلق: فما الفائدة من وجود مفتاح من دون وجود المنزل؟

قالت يائسة:«إذن، لا يوجد معنا الآن حتى مفتاح».

تكونت شقة جيرت، وآنا من غرفة للمعيشة، وغرفة للنوم، ومطبخ صغير جدا بشرفة، وممر ضيق وحمام صغير. كان يوجد جهاز تلفاز، ومجموعة من أفلام الفيديو على منضدة منخفضة

في غرفة المعيشـــة، ونبتة من شـــجر المطاط نصف ميتة بجانب جهاز التلفاز. وكان هناك رف يتكئ على أحد الجدران به بضعة كتـــب، وأريكة قديمة عليها غطاء متســـخ باهـــت تقابل الجدار الآخر. زين الجدار فوق الأريكة بملصق متآكل للمصور دوســـان بيتريتشـــيك وخارطة لبلغـــراد حين كانت يوغســـلافية ذروتها. وجدت قائمة إرشـــادات لآنا على المنضدة التي تعلوها أشـــرطة الفيديو: في القائمة أرقام تلفونات شركتي الهاتف والغاز، وموقع محبس الصنبور، وما إلى ذلك. كان الســـجاد في غرفة المعيشة ملطخا بالبقع الترابية ومنفوش الخيوط، وورق الجدران أسمال بالية، والنوافذ من دون ســـتائر وغائمة. كانت الســـتائر المعدنية مكسوة بطبقة سميكة من الغبار.

من دون إعطاء المسألة تفكيرا كثيرا، خرجت واشتريت أنواعا مختلفة من المنظفات، وفرشـــات الحك، والإسفنج. بدأت بغرفة النوم حيث كل الأشـــياء التي يمكـــن أن تقلب فيها قلبتها. نظفت النوافذ والباب. مســـحت خزانة الملابـــس بالكحول للتخلص من الرائحة النتنة. ومسحت الستائر المعدنية بالكحول أيضا. نظفت كل شيء بالمكنسة الكهربائية بما فيها الجدران. ثم علقت ملابسي في الخزانة، ورتبت الأسرة مستخدمة الشراشف الجديدة التي اشتريتها. أصبحت غرفة النوم قابلة للاستخدام. وهكذا انتهيت من إحدى الغرف.

بعد ذلك جمعـــت القمامة. وتخلصت من كومة من الصحف، والطعام الذي ترك في الشـــقة، وبعض الأطباق المكسورة. نزعت الملصق عن حائط غرفة المعيشـــة وأفرغت الحمام من كل شيء

يمكن تحريكه. وضعت هذه الأشياء جميعا في أكياس بلاستيكية سوداء وتركتها بجانب الباب الأمامي. سأجرها إلى الأسفل في الصباح. ثم ألقيت نظرة شاملة على الحمام، وملأت خزانة الأدوية بمساحيقي الخاصة، وزينت المغسلة بإناء للصابون من البورسلين كنت قد اشتريته من قبل. بعد أن أصبح الحمام مقبولا إلى حد ما، أخذت دشا، واستلقيت على السرير في غاية التعب، ونمت طوال تلك الليلة.

في اليوم التالي انتقلت إلى تنظيف المطبخ. أمضيت الكثير من الوقت، وبذلت الكثير من الجهد في إزالة البقع عن الخزائن، والثلاجة، والفرن، والبلاط، والنوافذ، والباب. وعلى الرغم من الألم في معصمي، انتقلت إلى غرفة المعيشة حيث نظفت الجدران، والسجادة، والأريكة بالمكنسة الكهربائية، وعملت كل ما أستطيع للتخلص من الرائحة الكريهة المنبعثة من السجادة، والأريكة قبل أن أنقض عليهما بالفرشاة السلكية ووسائل التنظيف. وبما أن ورق الجدران متسخ جدا، خرجت واشتريت بعض فرش الصبغ، وعلبة من الدهان وسلما. أمضيت اليومين التاليين وأنا أغطي ورق الجدران، الذي كان لحسن الحظ من النوع الذي يمكن الدهان فوقه، بطبقة رقيقة من الطلاء الأبيض. بدا المكان بشكل أفضل الآن، ولكن الجدران التي دهنت للتو لم تظهر سوى شكل الأعمال الخشبية الرمادية. لذا، قمت بصنفرتها ثم طلائها بالطلاء النفطي الأبيض. قد استغرق ذلك يومين أو ثلاثة أيام أخرى.

ثم بدأت عندي حمى التسوق. وجدت شرشفا أنيقا بلونه

الأبيــض المائل للزرقة، وبعد أن نشــرته علــى الأريكة، ووضعت مصباحا كنت قد اشتريته من قبل على المنضدة، وملأت المزهرية بالــورود اليانعة، وعلقت ملصقا بإطار قوي للمصور لويس هاين بالأبيــض والأســود لمجموعة من العمال وهــم يدخنون من فوق عارضة في مبنى «إمبايرستيت» في الولايات المتحدة الأمريكية، أصبحت غرفة المعيشــة في وضع يمكن من استخدامها. صحيح أن المكان لــم يـزل «شـقـة طلابية» إلى حـد كبيـر، بيـد أن ذلـك لم يزعجني البتة.

زودت خزائن المطبخ بما تحتاج إليه من الأشــياء الضرورية، واشــتريت إبريقا للشــاي وكوبا صينيا أنيقا. لم أغفل عن نبتة المطاط، فأخذتها إلى الشــرفة، وأعدت زراعتها في إناء أوسع، وأضفــت الســماد للتربة، وقلمــت الفروع الميتــة، وأزلت الغبار عــن الأوراق، ثم أعدتها إلى غرفة المعيشــة. تفحصت مجموعة أشــرطة الفيديو التي تركها جيرت وآنــا، وأزلت الغبار عنها، ثم رتبتها بشــكل أنيق على الرف. ومســحت أغلفة الكتب الموجودة بالكحول، ووضعتها علــى الرفوف من جديد بجانب الكتب التي كنت قد اشتريتها.

بينما كنت ألقي نظرة شــاملة على الشقة لأرى إن كان هناك أي شــيء يحتــاج إلى تصليح، لاحظــت أن ورق الجدران الواقع مباشــرة فوق الباب الذي يــؤدي إلى غرفة المعيشــة قد انتفخ بعض الشيء. أحضرت الســلم من المستودع حيث عدادي الغاز والكهرباء، وصعدت عليه لفحص المكان المنتفخ بإصبعي. انفجر الانتفاخ وكأنه بالون، ناشــرا قطع الورق على الأرضية وكاشــفا

جدارا أسـمنتيا مغطـى بالكرتون وصور المجـلات، وقد أصبح مصفرا بالكامل. عندما نزعت قطعة لألقي نظرة أفضل، ظهرت عـدة طبقات من الدهان، وسـقطت بقوة علـى الأرض. وقفت مواجهـة مجموعة من صور إباحية مثلية قد يكون رسـمها على الأرجح المستأجر الذي سكن الشقة قبل جيرت وآنا.

نزلت عن السلم وجلست على الأريكة، غير قادرة على الحركة، مصغية للصمت. فجأة سـمعت صوت فرقعة ونظرت إلى أعلى، حابسة أنفاسـي، فرأيت ورق الجدران ينفتح على طول الجدران صانعا سلسلة التموجات، وفي آخر الأمر تنضم في طرق. راقبتها تتشقق، وتتقشـر، وتتمايل، وتتلوى، مثل الزنبركات حتى انفصلت وسـقطت محدثة صوتا مكتوما هشا، وجافا. كنت محاطة بجدار من الغبار أقامته ريح غير مرئية. ألقيت نظرة على الباب الأمامي، لكن، كلا، كان المفتاح يقبع في القفل. في أثناء ذلك، ساد الصمت من جديد. نظـرت إلى يدي. لقد احمرتـا وانتفختا، فالمنظفات فعلت فعلها: فكانت يداي عبارة عن جرح كبير، وقد تقشـر الجلد في رقائق دقيقة، كاشفا عن الخطوط الثلاثة بلون الدم.

ظهـر لي أنني لم أنظر إلى الخارج عبر النافذة حتى ولو مرة واحدة في الأيام القليلة الماضية. لم أعرف كيف كان الجو، أو كم كانت الساعة. كنت قد فقدت كل الاتجاهات. كنت أجلس هناك هكذا، حاملة تأشيرة غير مرئية لحياة متواضعة، وأنا أتقشر في الداخل.

أدركت أنه كان علي أن أستجمع قواي وأفعل شيئا، أي شيء. كان علي أن أجابه اليأس الذي تمكن مني مؤقتا. وقفت، وأخذت

أول شريط فيديو صادفته، وأدخلته في جهاز الفيديو. ثم عدت إلى الأريكة، ونفضت الشرشف للتخلص من قطع الورق التي سقطت عليه، ثم تمددت على الأريكة.

في وقت ما أثناء الليل، أيقظني طنين جهاز التلفاز. بدا أن الثلج الظاهر على الشاشة قد تسلل إلى داخل الغرفة. فتحت النافذة، فدخل هواء شهر يوليو. كان الميدان مضاء بنور القمر وأضواء النيون لمتجر «بيسس». إلى اليمين بالكاد كنت أرى إحدى زوايا القبة الفيروزية المتواضعة للجامع المحلي. كان في الساحة بعض أشجار الكستناء الصغيرة المتوجة، وبعض المقاعد. كان هناك رجل يجلس على مقعد تحت إحدى الأشجار، وكان يرتدي عمامة. بدا أنه نائم.

كانت شقة جيرت، وآنا تقع في واحد من تلك المجمعات السكنية الرمادية المزدحمة، الرخيصة سابقة التجهيز التي كانت تحيط بمركز المدينة مثل مفاتيح في حلقة لآمر إحدى القلاع. كان البعض يطلق على هذه المجمعات اسم «الجيتو». أما هذا فأطلق عليه «الدار البيضاء الصغيرة»، لكنني لم أعرف هذه التسمية إلا فيما بعد.

٢٩

نحــن همجيون. يحمل أفراد قبيلتنــا علامة كولومبوس غير المرئية على جباههم. نسافر غربا وينتهي بنا المطاف شرقا، حقا، إننا كلما مضينا إلى أقصى الغرب فإننا نبلغ أقصى الشـــرق. إن قبيلتنا ملعونة.

نحن نستقر في ضواحي المدن. نختارها لكي يكون في إمكاننا جمع خيمنــا عندما يأتي الوقت لنرحل من جديد، نتحرك غربا لنبلغ الشرق. نعيش في مجمعات سكنية سابقة التجهيز، رمادية، مزدحمة، رخيصة، تحيط بمركــز المدينة مثل المفاتيح في حلقة لآمر إحدى القلاع، ويسميها البعض بالجيتو.

جميع تلك المجمعات الســكنية متشــابهة. يمكن تمييزنا من خلال أطباق «الســتلايت» التي تبرز من شــرفاتنا، تلك الأجهزة التي تمكننا من الإحســاس بنبض الناس الذين تركناهم خلفنا. نحن، الفاشلون، ما زلنا نستنشق هواء الوطن الذي تركناه «نحن» وراءنا. «هم» لا يملكون أطباق «الســتلايت»، «هم» لديهم كلاب. «نحن» نخاف من الكلاب. في الشفق تخرج كلابهم إلى الشرفات وتنبح برسائلها بعضها لبعض. يرتد النباح جيئة وذهابا من المباني الأســمنتية مثل ارتداد كرات تنس الطاولة في أثناء اللعب. يثير الصدى الكلاب إلى حد الجنون، مما يجعلها تنبح بصوت أعلى.

نحن لدينــا أطفال. نحــن نتكاثر بصورة خطيــرة. يقال إن حيوانات الكنغر تتكاثر فــي مراحل متتالية، فمع الكنغر اليافع، ثمة آخر في الجيب، وثالث في الرحم أوشك على الخروج، ورابع

على شكل بيضة مخصبة حديثة تنتظر أخذ مكانها. ونساؤنا مثل حيوانات الكنغر تلد في مراحل متتابعة، أشبه ما تكون بالمفاتيح التي في حلقة زوجة آمر لإحدى القلاع. لأطفالنا أعناق مستقيمة، وبشرة سمراء، وشعر داكن، وعيون سوداء، أطفالنا مستنسخون، فالذكور رجال مقزمون، وهم نسخة طبق الأصل عن آبائهم، والإناث نساء مقزمات، وهن نسخة طبق الأصل عن أمهاتهن.

هنا نحن نحضر إلى منازلنا الأغذية الملفوفة بأناقة من محلات «بيسس»، و«آلدي» و«ليدل»، و«ديرك فان دي بروك»، حيث نشتريها بأسعار الجملة. أسواق سمكنا تفوح بروائح السمك الكريهة. محال الجزارة تفوح بروائح الدم. متاجرنا قذرة: نحن نشتري اللحوم الموضوعة في براميل بلاستيكية ضخمة مملوءة بالماء المالح. نحن نتفحص بأصابعنا كل شيء، ننتقيه، ونجسه، ونقلبه، ونصغي إليه، ونجره من كشك إلى آخر. إن السوق الشرقي يشكل جوهر وجودنا.

مجمعاتنا أشبه ما تكون بالواحات: فهي تلبي كل ما نحتاج إليه. تتوافر فيها مدارس الروضة، والمدارس الابتدائية، ومدارس تعليم القيادة، ويوجد فيها مكاتب بريد ومحطات وقود، وشركات هواتف توفر مكالمات إلى الوطن بأسعار رخيصة، وكذلك فيها محال لكي الملابس، وأماكن عامة لغسيل الملابس وصالونات للحلاقة، حيث يقص مواطنونا شعر مواطنينا، وفيها أيضا مقاه، حيث يحصل الشباب على الحشيش، والمراكز الشبابية الأخرى. الفطائر تركية، وفيها كذلك مكان للعبادة، وحانتان أو ثلاث

للرجال. نحن لدينا حاناتنا، ولديهم هم حاناتهم. فأماكن الوجود محـــددة بدقة. لا يدخـــل أماكننا أي من الســـياح، إلا إذا ضلوا الطريق. أما أفراد الطبقة الراقية، «سكان القناة»، فيقولون إنهم يحتاجون إلى تأشيرة لولوج الأحياء الفقيرة. وماذا سيفعلون هنا على أي حـــال؟ لذا، هم يبقون في أماكـــن وجودهم في المدينة، ونحـــن نبقى في أماكننا. الكل يشـــعر بأمان أكثر بهذه الطريقة، وبمزيد من الارتياح.

نحـــن همجيون. نحن الوجـــه الآخر للمجتمـــع المثالي، نحن عفريت العلبة عند طرف إبهامه، ونصف عالمه، وجانبه الســـفلي القبيح - عالمه الموازي. نحن نخوض في قاذوراته، كلابا وآدميين، نحن نواجه جرذانه في الصبـــاح الباكر، وعندما نعود متأخرين ليـــلا. تأتي الريـــاح لنا لتنتشـــر القمامة في الهـــواء - الأكياس البلاســـتيكية التي خلفناها من ورائنا، وأكياس الحلوى «مارس»، و«كيت - كات»، و«ســـنيكرز»، التي يرميها أطفالنا. في كل مساء تأتي طيـــور النورس لتتغذى على بقايا الطعـــام الرديء المتعفن، والغربان لتنقر بقايا الفطائر التركية.

شـــبابنا جامحـــون، عابســـون يملؤهـــم الغضب. فـــي الليل يتجمعون في الســـاحات الأســـمنتية المهجورة مثـــل مجموعات من الكلاب الضالة، وينفســـون عن مشـــكلاتهم حتى الســـاعات الأولى من الصباح. يطارد بعضهم البعض في الملاعب المهجورة، ويتأرجحـــون على الأراجيـــح، ويقفزون ويصرخـــون، وينتزعون الســـماعات مـــن أكشـــاك الهواتف العامـــة، ويرمون شـــبابيك الســـيارات بالحجارة، ويسرقون كل ما تقع عليه أيديهم، ويلعبون

كرة القدم بعلب البيرة الفارغة التي تطلق أصواتا تشـبه أصوات الرشاشـات الأوتوماتيكيـة، ويقـودون الدراجـات النارية مثل المجانين عبر المجمعات السـكنية. الليل هو وقتهم المفضل. نحن نختبئ ونرتجـف كالفئران: فمواؤهم ينشـف الدم في عروقنا. تفصل مسـاحات واسعة بين نقاط الشـرطة في منطقتنا، مما يفسح المجال للصرخات أن تأكل في أجسادنا كالحمض. شبابنا سريعون في استخدام السكاكين: فسـكاكينهم امتداد لأياديهم. شـبابنا أبطال في البصق: فبصاقهم يحدد مناطقهم كما يحدد بول الـكلاب مناطقها. ودائما ما يتجولـون معا، في زمرة، مثل أوغاد القرية.

شاباتنا يتسـمن بالهدوء. هن ترين أن مجرد وجودهن سبب للإحراج لهـن، ويرى ذلك فـي وجوههن. يتسـللن عبر المدينة كأستار، يغطين شعورهن بالأوشحة، وعيونهن تحملق في الأرض. إن صادف ورأيت إحداهن في الترام، فستكون منحنية فوق كتاب الصلوات، تقضم المقاطع المقدسة كأنها بذور نبات عباد الشمس. سرعان ما تترجل، من دون أن تنظر يمينا ولا يسارا، وتعدو، وهي لم تزل تلوك النص، وشفتيها في حركة مستمرة، كشفتي جمل.

يتجمـع رجالنـا ذوو الحواجب السـوداء الكثة حـول القبة الفيروزيـة الأسـمنتية للمسـجد الذي يشـبه دار حضانة أكثر منه بمكان للعبادة. في الصيـف، يقرفصون متكئين على حائط جامعهم، يحكون ظهورهم بجدرانه ويبحثون عن ملجأ من الحرارة (علـى الرغم من عدم وجود شـمس). يطوفـون هائمين، وهم يشمون بعضهم البعض، ويدورون حول المسجد، وأيديهم مشبكة

خلف ظهورهم، ثم يتوقفون، ويحولون ثقل أجسامهم من قدم إلى أخـــرى، ويربت بعضهم على ظهور البعض، ويعانق بعضهم بعضا البعض يتقابلون وعندما يفترقون، وفي بعض المناســبات عندما يكون المسجد ممتلئا، يفيضون خارجين إلى الأسفلت، ويسجدون في مواجهة الشـــرق. يمكث رجالنا في المســـجد من الفجر حتى حلول الظلام.

عندما تهبط الشـــمس إلـــى انخفاض كبيـــر وكأنها تلامس رؤوســـنا، وعندما يهوي مقيـــاس الضغط ويصبـــح الهواء رطبا ونصبح نتنفس عبر خياشـــيمنا، عندئذ تثقل أجســـامنا وتسقط إلـــى القاع حيث لا توجد مناطق محددة، وحيث نزحف على أربع بغير هدى، مرهقين مثل الأسماك بعد وضعها للبيض. وفي ذلك المكان فقط، في القاع الصخري، تمس حراشفنا بعضها البعض، وتتقابـــل زعانفنا عند مرورنا، وتضغط خياشـــيمنا بعضها على بعض.

نحـــن همجيـــون. ليـــس لدينا طريقـــة للكتابة، نحـــن نترك توقيعاتنـــا في الهـــواء: فنحن نصـــدر أصواتا، ونبلغ بإشـــارات نداءاتنا، وصيحاتنا، وصرخاتنا، وبصاقنا. وبهذه الطريقة نحدد منطقتنا. تطبل أصابعنا على كل شـــيء تلمسه: سلال القمامة، وزجـــاج النوافـــذ، والأنابيب. نحن نطبـــل، إذن، نحن موجودون. نحن نحدث جلبة، والجلبة مؤلمة مثل وجع الأسنان. نحن نجعجع في الأعراس، ونندب في الجنائز، حيث تضرب أصوات نســـائنا المتشنجة الواجهات الأسمنتية كالزوابع. نكسر الكؤوس، ونذهب لممارسة الجنس: فالمفرقعات النارية هي ألعابنا المفضلة. الصوت

هــو أبجديتنا، الجلبة التـــي نصدرها هي الدليـــل الوحيد على وجودنا، والأثر الوحيد الذي نتركه وراءنا. نحن نشــبه الكلاب: نحـــن ننبح. ننبح باتجاه الســـماء الرمادية التي تهبط ثقيلة على رؤوسنا.

نحن النائمـــون. نحن همجيون. يحمل أفـــراد قبيلتنا علامة كولومبوس غيـــر المرئية على جباههم. نســـافر غربا وينتهي بنا المطاف شـــرقا، حقا، إننا كلما مضينا إلـــى أقصى الغرب فإننا نبلغ أقصى الشـــرق. إن قبيلتنـــا ملعونة. العودة إلى الأرض التي أتينـــا منها تعني الموت، والبقـــاء في الأرض التي أتينا إليها تعني الهزيمـــة. وهكذا يســـتمر التكرار الأبدي في أحلامنا لمسلســـل الرحيـــل، فلحظـــة الرحيل هي لحظـــة الانتصـــار الوحيدة في حياتنـــا. أحيانا، ونحن في طريق عودتنا إلى المنزل من المســـجد يســـيطر علينا النعاس ونلوذ إلى مقعد تحت شجرة تجهد للنمو. الهواء رطب ودافئ، والقمر بدر، وسماء الليل زرقاء داكنة. هكذا ننام في الواحة الأســـمنتية، تحت الشجرة الأسمنتية، ونعود إلى مسلسل الرحيل الذي يلازمنا. نأخذ خيمنا، ونربط حقائبنا على ظهورنـــا، وتأتي ريح عاتية وتنثر رمـــال الصحراء، وتبدأ صورنا بالتلاشي، ثم نتوارى تماما في ستارة الرمال السميكة.

٣٠

وقفت، ثم تناولت أول شريط فيديو وقعت عليه يدي، وأدخلته في جهاز الفيديو. ثم عدت إلى الأريكة، ونفضت الشرشف للتخلص من قطع الورق التي سقطت عليه، ثم تمددت على الأريكة.

كان الفيلم لفيليب كاوفمان عن رواية «خفة الوجود التي لا تحتمل» لكونديرا. سبق أن قرأت تلك الرواية مرتين. كان لدي شكوك حول الإنتاج السينمائي للأعمال الأدبية، فحتى أفضل تلك الأفلام بدت غير جديرة بنماذجها. لقد وضعتني الصور السينمائية الأولى على أهبة الاستعداد: فكل من دانيل دي - لويس وجولييت بينوش كانا يبدوان أكثر تشيكية من العديد من التشيكيين، لكن بينوش كانت تحاول التحدث بالإنجليزية بلكنة تشيكية، وكان الشيء الوحيد الذي لفظته بشكل صحيح هو اسم آنا كارنينا. كذلك نفرت من طريقة الفيلم في إضفاء الشاعرية عند عرض الحياة اليومية في ظل الحكم الشيوعي: كاللقطات الحقيقية لأجساد قبيحة عارية يلفها البخار، أو لرجال مسنين يلعبون الشطرنج في حمام للسباحة، والمشاهد التشيكية لمنتجعات المياه المعدنية المتهدمة (التي كان من الممكن أن تكون في كرواتيا)، وشوارع مدينة براغ (التي تذكر بمدينة زغرب). ربما كان سخطي ناتجا عن ردة الفعل اللاإرادية (ماذا يعرفون عنا؟) التي كنت قد سمعتها كثيرا، وذلك كان مجرد تكبر من المقيمين في المستعمرة، وبالتالي لا تعد أكثر من تعزية لغطرسة

من أنشـــأوا المستعمرة. وبناء على نظام الأشـــياء، فإن كاوفمان البريء أصبح مســـتعمر المنطقة التي لا يوجد، في تلك اللحظة، من يملك حق العيش فيها غيري.

لكن عندما ظهر المشهد الوثائقي بالأبيض والأسود للاحتلال الروســـي لتشيكوسلوفاكيا على الشاشة، أصبت بالذهول عندما رأيت الدبابات الروســـية في براغ، ومشـــاهد الاحتجاج والعنف في الشـــوارع، التي توجت بصورة مقربة لجندي روســـي يصوب مسدسه على المشـــاهدين، بمن فيهم بينوش. ذلك المسدس كان مصوبـــا نحوي. ولـــم تعد بينوش، التي أُدخلت في ذلك المشـــهد بمهـــارة، وكانـــت تلتقط الصور للدبابات بســـعار، لـــم تعد تثير أعصابي. لم يصبح الفيلم «موثوقا فيه» فقط، لكنه أيضا أصبح قضية شـــخصية «قصتي الشـــخصية»، أو هكذا أحسست، على الأقل. وشعرت بالدموع تسيل على خديّ.

تســـاءلت: ما الذي كان يجري؟ لقد كنت في السادسة عندما غزا الروس تشيكوسلوفاكيا، لذا كان من غير الممكن أن أتمكن من تمثل القصة بجلاء وســـهولة. بدأت القيام بجولة من الحسابات المحمومـــة. وإذا كانت، كما تقول مقدمة الفيلـــم، رواية كونديرا نشـــرت في العام ١٩٨٤، وصور فيلـــم كاوفمان في العام ١٩٨٧، فإن الفيلم ظهر قبل عامين من ســـقوط جدار برلين، وقبل أربعة أعوام من اندلاع الحرب في يوغســـلافيا، وهذا يعني أنه كان من الممكن أن أشـــاهده في زغرب (لكن ذلك لم يحدث). بدأ رأسي يلف من تلك الحســـابات الفارغة، وقبل أن أدرك ذلك، كنت قد فقدت إحساسي تماما بالزمن. كنت مثل أولئك الجنود اليابانيين

الذين تركوا في الأدغال الفلبينية بعد الحرب، ثم عندما وجدوهم فيما بعد، كانوا يعتقدون أن الحرب لم تزل مستمرة. لقد خلطت كل الأشــياء معا - الأطر الزمنية، والأطر الســينمائية، ولم أعد قادرة على ترتيبها. فما حدث في الماضي البعيد بدا حديثا الآن، والأحداث القريبة جدا انتقلت إلى الماضي البعيد. بدا أن الإطار الزمني الوحيد عندي هو ذلك الشريط القديم. جعلت أتلفت من حولي وكأني بحار تحطمت ســفينته، وقذفته المياه إلى الشاطئ. كنت في شقة ليست شقتي، وفي مدينة ليست مدينتي، وفي بلد ليســت بلدي، محاطة بجدران متصدعة ورائحة الطحالب. كنت أمسك بجهاز التحكم عن بعد الذي لم يزل يعمل، ولكن بطاريات جهاز تحكمي الداخلي كانت قد نفدت، ولا سبيل إلى تشغيلي من جديد. تساءلت متى وجدت الأشــياء التي حدثت وقتا لتحدث، وما الذي جعلني أنظر إلى فيلم كاوفمان وكأنه الخبر الرئيس في نشرات أخبار الـ «سي.إن.إن» في ذلك اليوم، وإلى اتفاق «ديتون» الهش الذي وقع قبل عامين فقط وكأنه تاريخ ســحيق أســتطيع تجاهله بكل فخر.

كانــت الضربة التــي تلقيتها للتو أكثر تعقيــدا مما بدت في البداية. فعبارات مثل «متلازمة الطرف المستأصل»، أو «الحنين»، كانت عبارات مجردة تشــير إلى الصفعة العاطفية المعقدة التي تأتــي من الضياع، واســتحالة العودة. وهي توحــي بأنه لا فرق عمليا بين أن نتصالح مع الضياع، أو أن نشــعر بالراحة لتمكننا من نســيان الماضي، أو من رغبتنا بالعودة إليه. ذلك لأن الضربة لا تفقــد قوتها بهــذه الطريقة. فالحنين، إن كانــت تلك الكلمة

المناســبة لذلك، هو مهاجم، متوحش غادر يتبع أسلوب الكمائن، ويهاجم في الوقت الذي لا تتوقعه، وينفذ مباشــرة إلى الضفيرة الشمســية. يرتدي الحنين دائما قناعا، ومن دواعي الســخرية، أننا نقع ضحية له بمحض المصادفة. يظهر الحنين لنا بأشــكال مختلفة - عادة ما يكون شــكلا سيئا - بعد رحلة معقدة، ليست مختلفــة عن لعبــة الأطفال المســماة «الهاتف» تســري العبارة المهموسة في الأذن المجاورة له، فتمر عبر سلسلة من الآذان إلى أن تبرز من فم آخر اللاعبين مثل أرنب يبرز من قبعة ساحر.

تلك الصفعة التي تلقيتها أخيرا في الضفيرة الشمسية كانت قــد مرت برحلة طويلــة ومعقدة، مارة عبر عدد من الوســطاء والوســائط، حتى، بعد التوســط فيها بما لا يحصى من المرات، ظهرت على شــكل جوليــت بينوش. كانت بينــوش آخر من في صف أجهزة التحول، الشــخص الذي ترجم ألمي الشخصي إلى لغتي. في اللحظة المناسبة. لأنه في وقت آخر مختلف قد تصبح ترجمتها كلاما غير مفهوم. في تلك اللحظة فقط وليس غيرها، كانت مشــاهد كاوفمان، التي تشبه كثيرا إعلان كوكاكولا مثاليا، قــادرة على أن تطلق هجومــا مفاجئا علــى اللاوعي خاصتي، وتصدعت تماما.

على الرغم من أنني شــعرت بأن القصة الوحيدة التي ملكت حق تأليفهــا تماما كانت «القصة اليوغســلافية»، فإنه في تلك اللحظــة كانت كل القصص ملكي. بكيت من أعماق أعماقي وأنا أســتعرض الشبكة الخيالية المتشابكة التي حملت اعتباطيا اسم أوروبا الشــرقية، والوســطى، وشرق - وســط أوروبا وجنوب -

شرق أوروبا – أوروبا الأخرى. لم أستطع التعامل معها صراحة: فهنــاك ملايين الــروس الذيــن اختفوا في معتقلات ســتالين، والملايــين الذين قتلوا في الحرب العالميــة الثانية، وأيضا أولئك الذين احتلوا التشيك، والتشيك الذين احتلهم الروس، والمجريون – الذيــن احتلهم الــروس أيضا – والبلغار الذيــن زودوا الروس بالطعام، والبولنديون، والرومانيون، واليوغوســلاف السابقون، الذين احتلوا أنفسهم بشكل أساسي. كنت أضرب رأسي بحائط الخســائر البشــرية. ومثل نادب بلقاني رحت أنوح بكربي على الفرد وعلى الجميع، وكربي وحده كان أبكم. حزنت على زغرب، وسراييفو، وبلغراد، وبودابست، وصوفيا، وبوخارست، وواجهات مدينة ســكوبي التي تهدمت. كنت متأثرة بالذوق السيئ المحبب لغلاف الشــوكولاتة في شــبابي (فضلا عن طعم تلك الشوكولا الــرديء للغاية)، وتحســرت على مقطع من لحــن رن في أذني مصادفة، أو وجه برز عشــوائيا من الظلمــة، أو صوت، أو نبرة لصوت، أو بيت من الشــعر، أو شــعار، أو رائحة، أو مشــهد ما. جلســت هناك، محملقة في مشــهد الخسائر البشــرية، وقلبي يبكي. بــل إنني ذرفــت دمعة مع خــدع كاوفمان الســينمائية، التي اســتطاعت أن تثير مشــاعري، ودمعة أخرى على شريطي السينمائي «لبينوش».

ثم فكرت بطلبتي. فمن المؤكد أن مشــهدا كهذا سيؤثر فيهم. كانت المشــكلة، أن تحولهم/انسلاخهم أضأل فرصة في النجاح فقــط: فقد فاتهم الوقت المحدد بثانيــة، أو بجــزء مــن الثانية. كلا، ســينتهي تحولهم بالفشل. أحســســت بذلك في خضوعهم

الذاتي، وفي مسحة الحزن في أعينهم، وفي الصفعة غير المرئية على وجوههم، وفي كتلة الاستياء الغامضة في حناجرهم.

في أي دقيقة الآن، في أي ثانية، ستنهض قبيلة جديدة مختلفة تماما من نبت جراح ما بعد الشيوعية تحمل رسائل دكتوراه بعناوين معبرة مثل: «فهم الماضي كوسيلة للنظر إلى المستقبل». سيكونون أطفال توماش، وتيريزا الذين عادوا إلى تشيكوسلوفاكيا فقط لكي يموتوا هناك، لأن العودة تعني الموت، والبقاء يعني الهزيمة. سيكونون أيتام توماش وتيريزا. سيشرعون في العودة مثل سمك السلمون، لكن العصور الأخرى تعني جداول أخرى، ورفاق مسافرين آخرين من الوطن، الأناس الذين «يتطلعون إلى المستقبل» حقا، والذين لن يتمكنوا من «فهم الماضي»، أو على الأقل، ليس بالطريقة نفسها. ولاعبوا هذه الفرق الجديدة من «المياه الرمادية الراكدة» في منغوليا، ورومانيا وسلوفاكيا، والمجر، وكرواتيا، وصربيا، وألبانيا، وبلغاريا، وبيلاروسيا، ومولدوفيا ولاتافيا، ولتوانيا، جيل الطفرة الانتقالية هذا سيجتاح الجامعات الأوروبية والأمريكية، وسيتعلم أخيرا ما يلزمه تعلمه. سوف يشكلون فريق شاب رنان من المتخصصين والمنظمين، ومضاربي الأسهم، وقبل كل شيء، المديرون، خبراء إدارة الأعمال، والإدارة السياسية، والإدارة البيئية، والإدارة الثقافية، وإدارة الكوارث - إدارة الحياة برمتها. سيكون هؤلاء نوعا يتكاثر بسرعة وحشية، وكأن التكاثر هو هدفهم الوحيد في الحياة. هم من النوع الذي يقف على قدميه دائما، ولا يشعرون بوخز الضمير من العيش على مصائب الناس الذين قدموا لهم المساعدة، فحتى الكوارث تحتاج

إلى إدارة: فعدم القدرة على إدارة الكوارث هو الفشـــل بعينه. هم الناس الذين ســيقومون برعاية المعاقين في بلغاريا، والبوســـنة، وبيلاروســـيا، ومولدافيا، ورومانيا، ورعاية الأيتام في البوســـنة وجورجيا، وطاجاكســـتان، وكازاخســـتان، والشيشان، وكوسوفو، وأذربيجـــان، وأرمينيا، ورعاية الأقليـــات في أوروبا وروما في أي مـــكان، وهم الخبراء لضحايا الجنس، وتجارة العبيد من البيض، والسود، والصفر ، وهم رعاة اللاجئين من المهاجرين، والمهجرين، ورعاة المتشـــردين. إنهم الطفرة الذين ينتشـــرون بفاعلية تشـــبه فاعلية الفيروســـات في المختبر، ينشرون أشـــراكهم، وشبكاتهم علـــى الإنترنـــت، ومظلاتهـــم، ومظلـــة منظماتهـــم، ومراكزهم، وأدوات الربط. ســـوف يصبحون رؤساء أقسام السمع - مرئيات، والاتصـــالات، وهم أنـــاس الشـــبكة العنكبوتية. ســـوف يكونون مصممين لمهنهم، وحيوات الآخرين واثقين بأنفســـهم. ســـيكونون مفكرين بعمق، وقراء نهمين، ومصممين بارعين. سيملكون هويات متعـــددة: فهـــم مواطنون عالميـــون، متعددو الثقافـــات، قوميون، وعرقيون، وشـــتاتيون، الكل مجتمعا . ســـيرتدون قبعات مختلفة، ويكونون مرنين إلى أقصى حد، دائما مســـتعدون لتعريف وإعادة تعريف أنفســـهم، وأن يعكسوا صورة أنفســـهم أو ينحرفوا عنها، وابتكار وإعادة ابتكار أنفسهم، وتركيب وتفكيك أنفسهم. سيكونون أبطـــال الديموقراطية في هذه الفتـــرات الانتقالية، وبما أن كل شـــيء كان ولا يزال دائما في حالة من التغيير، فإنهم سيمضغون كلمتـــي «الحركة»، و«المرونة» مثل العلكة في أفواههم. ســـيكونون تقدميين، وصغار الســـن بشـــكل صـــارخ، فهم مفوضـــو التكامل

والتوسع الأوروبي أصحاب الرواتب العالية، ورواد النظام العالمي الجديد، ومخترعو «ما بعد الوحدات السياسية»، ما بعد القومية، وتجمعات ما بعد القومية الجديـــدة، ومناصرو «العولمة» كنقيض للمحلية، والعكس بالعكس، ومدافعون: مدافعون متحمسون للدفاع عن أي شـــيء يحتاج إلى الدفاع عنـــه. وبالرغـــم من ولادتهم في مناطـق أوكـرانية نائية، إلا أنهم يدرسون تاريخ العصور الوسطى في «كييف»، والمصطلحـــات الإنجليزية التجارية في «برمنغهام»، ويكتبون أطروحاتهم العلمية حول علاقة تاريخ العصور الوسطى بالمصطلح التجاري. سيتنادون من مدينة «فيلينوس» في «ليتوانيا» حتـــى مدينة «وارويك» في إنجلترا، ليدرســـوا الاقتصاد الخاص والعـــام، وليتخصصوا في أســـاليب الحكم الرشـــيد والســـلام القابـــل للديمومة في المجتمعات التي مزقتها الحروب. ســـيأتون من مدن «فورونتش» و«كاوناس» و«تيمشـــوارا» و«بيكس»، ليعملوا لدى المنظمات غير الحكوميـــة، والاتحاد الأوروبي، ووكالة الأمم المتحدة للاجئين. ســـيأتون مـــن «يولان باتـــور» عاصمة منغوليا ومعهم شـــهادات الماجســـتير في الاقتصاد لدراسة تطبيق أدوات السياسة الاقتصادية. سيأتون من يريفان، من ألما أتا، من فيليكو تورنوفو، من طشـــقند وفارنا، ومنســـيك ليصبحوا القادة ونخبة المســـتقبل في أوروبا الموحدة. ســـيأتون من «إياش» في رومانيا، و«روس» في بلغاريا، و«تيتوفو» في مقدونيا، وفي جيوبهم شهادات الدكتـــوراه فـــي اللاهوت التقليـــدي الرعوي، وســـيمكثون بضع ســـنوات في «فرايبورغ» لدراســـة العلاقات الدولية، وينخرطون في الدراســـات الإســـتراتيجية في سالونيكا، وبوســـتون، وبراغ،

ويعقدون سلســلة من الجلسات التعريفية بأجور سخية في معهد روماني، أو بلغــاري، أو لتواني، حول موضــوع التكامل الأوروبي - الأطلســي وسياســة الدفاع، متباهين بوفرة علمهم الفاســد. ســيتمتعون بموهبة لغوية عالية، إذ إنهم يتحدثون لغات متعددة، ويصنعون لكنة أوروبية خاصة بهم، متبلينها بمفردات شــخصية. وسيعطون كلمة «التوسع» التوكيد اللازم بكتابتها بالحرف الكبير، لأنها بالنســبة إليهم تتبئ بعهد جديد، وإنسانية جديدة، ونهضة، وتنوير، فكلمة توســع تلفها جميعا في واحد. وســتضم عباراتهم الطنانة كلمــات الإدارة، والتفاوض، والتقنيــة، والدخل، والربح، والاســتثمار، والتكاليف، والمعنى المســتتر، وما إلى ذلك. وإذ هم يســارعون في أخذ مناصبهم وعيونهم أبدا على الفرص المهمة، وإذ هم يمتازون بمرونة عالية كالقطة بسبع أرواح كما يقال، فإنهم ســيكونون مجدين في العمل، ومتقنين لمهــارة التواصل وأوفياء، وحصيفين، ومتسامحين، وودودين، وماهرين بالتعامل مع المواقف الصعبة. ســيكون لديهم اهتمــام خاص بالمزايا الديبلوماســية. سيأتون من مدينة «ســمارا» الروسية بعد مهماتهم القصيرة في شركة كوكاكولا - سمارا، وشركة سمارا لايت وباور لينضموا إلى أكاديمية «فلتشير» في القانون، والديبلوماسية، وأكاديمية البحر المتوسط في الدراسات الديبلوماسية. وسيبهرون طلبتهم بعبارات مثــل «التحدي هو دافعي، والكمال هو هدفي النهائي»، والرطانة بمثل «الأنا المعاصرة»، و«الولادة غير الشرعية لعصرنا»، و«مرحلة ما بعد الاســتعمار»، و«الســوقنة»، و«تكتيكات الخلق، وحساسية التدريب والاتصالات المباشرة».

لكن سينسون في طريقهم أن المرونة، والحركة، والسيولة، التي قذفت بهم إلى السطح، ستترك وراءها حشدا من العبيد في القاع يعوزه الاسـم. فعبر كل تلك المياه الرمادية الراكدة، سيجهد الناس فـي الحصول على دخول حقيرة من خـلال صناعة البضائع التي تطلبها كبار الشـخصيات في أوروبا الغربية. وسـيقومون بالبحث عن الطعام في سـلال القمامة، ويتعاملون مع الشـواذ، ويخلفون أطفالا مشـردين، يخلفون بدورهم مزيدا من الأطفال المشـردين. وسـيبيعون حيواناتهم المنوية، وكلاهم، وأي عضو يأتيهم بالمال من السـوق السوداء العالمية. وسـيؤجرون الأعضاء التناسلية الفاعلة من أوروبا الشـرقية، للناس الذين يعانـون من الضعف في أوروبا الموسـعة. وربما يسـاعدون إخوانهم من الزبائن المثليين الكروات، على سـبيل المثال، للسـفر إلى بلغاريا حيث يتوافر اللحم البشري بشكل أرخص. وسـيقطع بعضهم كل الطريق ليصلوا إلى شواطئ أوروبا الغربية حيث سيجمع سعيدو الحظ زنابق الهليون في ألمانيا، وزهور التيوليب في هولندا، بينما سينظف الأقل حظا الحمامات.

يبدو أن طلبتي قد فاتهم القارب، كما حدث معي أنا في هذا الشـأن، ولكن بفارق ثانية واحدة فقط. لقد وقفنا هناك بأفواه مفتوحـة متجاوزين الوقـت بثانية، وفقدنـا الفرصة في دخول العهد الجديد. كل ما نسـتطيع فعلـه الآن هو محاولة الحفاظ على الوضع الذي نحن فيه. لقد شقت الحشرة الخاسرة طريقها إلى قلوبنا، وأضعفت العضلات الموجودة فيه.

كنـت أجلس في الغرفة محاطة بالجدران المتقشـرة ورائحة الغبار القديم. كان ذلك يناسـبني تماما: إذ كان يعود لشـخص

آخر ويتماشـــى مع تأشــيرة دخول الحياة الوضيعة التي حصلت عليها حديثا، ومع بعض قطع المتاع التي كان من الممكن أن أتركها ضحيـــة للعفن في خزانـــة عامة لحفظ الأمتعـــة. لو كنت فعلت ذلك، وقامت الســلطات بإرجاع المتاع لي، لكان علي أن أخبرهم عن محتوياته، التي لم يكن بالإمكان تفسيرها. إذن، كنت أجلس في المكان محاطة بالجدران المتقشرة، وكنت أملك مهنة، لم يكن بالإمــكان تفســيرها أيضا، وبلدا تحطم، ولغـــة قومية أصبحت ثلاث لغات، أشــبه ما تكون بتنين له لســـان متشعب. جلست في المكان وقد تولد لدي شعور بالذنب لا أستطع أن أضع يدي على مصدره، وشعور بالألم تعذر تحديد مصدره أيضا.

ضغطت علـــى «زر التوقيف» و«زر الإخراج» في جهاز التحكم من بعد، ثم أخرجت الشريط من جهاز الفيديو وأعدته بسلاسة إلى مكانه على الرف. رأيت أن أحسن خيار أمامي هو المضي في تفحص المكان، وتوزيـــع ما ينبغي أن أقوم به يوما بيوم، والانتهاء من عملـــه. فكرت أن أبدأ غدا بالحصـــول على صحيفة لمعرفة التاريـــخ (فأنا لم أكن متأكدة من المدة التي كنت قد قضيتها في الزنزانة التي حبســـت نفســـي فيها)، وتحديـــد أقرب مكان عام لغســـل الملابس. ثم كان علـــي أن أتخلص مما تبقى من الفوضى في المكان، وأشـــتري ورق جدران جديدا للأماكن التي كانت قد انتفخت وســـقطت. لكن كان علـــي أولا أن أزيل البقع القذرة من علـــى الجدران. وفي هذه المرة ســـأنظـف الجـــدران بالصنفرة، وأملأ الشـــقوق بالمعجون قبل إلصاق الورق. بل قد أقوم بدهانه - باللون الأبيض، طبعا.

ذهبت إلى النافذة وفتحتها. كانت الساحة الأسمنتية مضاءة بالنـــور الخافت لمصابيح الشـــارع والحروف المشـــعة في اســـم متجر «بيســـيس» في الجهـــة الأخرى. كان الهـــواء ينفث رطوبة حارة وثقيلة شـــبه اســـتوائية. في أقصى اليمين كنت أرى جزءا من القبة الفيروزية في أعلى المســـجد الأســـمنتي الصغير. كان لأكاليل أشجار الكستناء لمعان مكبوت خاص بها، وتلألأت أطباق الســـتلايت المعدنية على الشـــرفات القريبة بلونها الأبيض عبر الظلمـــة. كان المكان هادئا بشـــكل غير عادي. أشـــعرني المنظر بالراحـــة. خطر ببالي: ربما كنت قـــد وصلت إلى الوطن بعد كل هذا.

ثم خارجا من الظلمة، داخلا شـــبه الظلمة الأسمنتية ظهرت هيئة رجل. شـــق طريقه ببطء وصعوبة، كأنه كان يخوض خلال المحيـــط. فجأة نفض شـــيئا بإصبعـــه على الأرض بـــدا كعقب ســـيجارة، وكان هناك ارتداد ســـريع حاد. لقد كانت لعبة نارية. وبمـــا أنه لم يدرك أن شـــخصا ما كان يراقبـــه، فإن ذلك العابر الغريـــب ترك علامته على تلك الليلة، باعثا رســـالة بلا محتوى، قبـــل أن يختفي فـــي الظلمة. بينما كان يتوارى، بدا أنه يمشـــي بزاوية خفيفة، مثل كلب.

٣١

سوى الإعصار المنزل بالأرض، برقة عالية
- غير معهودة في الأعاصير - وسط ريف في
غاية الجمال. كانت المروج الخضراء الجميلة
في كل مكان، مع الأشجار المهيبة التي تحمل
الفاكهة الوافرة، زكية الرائحة. وصفوف من الورد
البهي عند كل جانب، والطيور بألوان ريشها النادر
البراق
كانت تغرد وترفرف داخل الأشجار
وفي الدغل. وفي مكان ليس ببعيد كان
جدول، يتدفق ويتألق بين المروج الخضراء،
ويهمس بصوت ممتن لفتاة صغيرة عاشت
لزمن طويل جدا في البراري الجافة، الكئيبة

من ساحرة أوز الرائعة للكاتب ل. باوم

غادرت الشقة متجهة نحو محطة المترو. كنت قد وصلت تقريبا عندما أحسست بلكمة على ظهري كانت من القوة بحيث أفقدتني القدرة على التنفس. بعد ثانية أو ثانيتين شعرت بأحد يسحب بإصرار حقيبتي التي كانت تتدلى من فوق كتفي. منعت شفرة كتفي حزام الحقيبة من الانزلاق، واستدرت ساحبة الحقيبة نحوي، لأرى ثلاثة صبية صغار يحملون حقائب مدرسية على ظهورهم. كانوا في طريق عودتهم للمنزل من المدرسة.

من المؤكد أنهم لم يتجاوزوا العاشـــرة مـــن العمر. رأيت أحدهم يمسك بمدية جيب لعبة في يده. خفض ناظريه وأسقطها. كانت نظرات الصبية الثلاثة عابسة متجهمة كنظرات الرجال الكبار. لا أســـتطيع قياس المدة التي وقفنا فيهـــا جميعا دون حراك في المكان. هي ثانيتان أو ثلاث على الأكثر. من الواضح أن أحدا منا لـــم يعرف كيف يتعامل مع الموقف. لكن ســـرعان ما تولى أغرب أولئـــك الصبية الأمر، وأطلق صيحة مدوية طويلة يملؤها الكره، فاتحا فمه ومصوبا بؤبؤيه السوداوين إلى وجهي. كان الكره غير متوقـــع وكان قويا كصعقة كهربائية. لقد خـــرج من أعماق غير معروفة، ومن ظلمة غير معروفة، خرج من ســـنين ضوئية بعيدة ليتحطم أمامي، عاريا وحادا كســـكين، وقد انفصل بالكامل عن الموقف والصبي، الذي شكلت رئتيه وحنجرته وفمه مجرد وسيط بمحض المصادفة.

استدار الصبية وهربوا. جروا بشكل أخرق وطفولي متعثرين، وحقائبهم المدرسية ترتد صعودا وهبوطا على ظهورهم. وعندما شـــعروا بأنهم كانوا على مســـافة آمنة، توقفوا واستداروا. أثار منظري وأنا واقفة في المـــكان هكذا، محملقة باتجاههم العديد من إيماءات السخرية من طرفهم، وبعدها انفجروا في ضحكاتهم العالية. ربما منيت محاولتهم الأولى للســـرقة بالفشل، لكن هذا الجـــزء كان ممتعا جدا. وقفت مراقبة إياهـــم حتى تحركوا من مكانهم.

فتحت يدي لأجد نفسي ممســـكة بالسكين. لم أستطع تذكر أننـــي انحنيت كي ألتقطها. وبينما كنـــت أنظر إليـــها، أدركـت أن

ما حدث للتو كان مؤثرا، ومرعبا في الوقت نفسه. كانت صرخة الصبي المملوءة بالكره لم تزل تدوي في أذني.

كان الوقت أصيلا. كان الغسق رائعا، والشمس تصب أشعتها السمراء الضاربة للحمرة البراقة على كل شيء. لقد خف الألم، وغادرت المكان، وأنا لم أزل أمسك بالسكين، لكنني لم أعد أعرف إلى أين كنت متجهة. لجأت إلى التنفس العميق لكبت الحادث، الذي كان من الممكن أن يحدث لأي شخص، وفي أي جزء من المدينة، وفي أي مكان. شعرت وكأني أعيش في أكبر بيت للدمى في العالم، حيث كل شيء يكون تقليدا، ولا شيء حقيقيا. وإذا كان كل شيء غير حقيقي، إذن فلا داعي للخوف من أي شيء، هكذا فكرت، وشعرت بثقة تنبعث في خطواتي. كنت تقريبا أمشي وكأنني أمشي في الهواء.

انحلت صور مدينة «مادرودام» المصغرة أمامي مثلما تنحل شلة خيط من الصوف. لم أستطع التخلص من حقيقة أن كل شيء بدا جديدا: تلك الأشجار المقزمة التي تحاكي أشجار البلوط الضخمة، وبقع الحشيش التي تحاكي المروج الخضراء المترفة. كان كل شيء فجأة واضحا جدا، واضحا وضوح الشمس. كانت ساحة «مادرودام» في رقة ورق الأرز. الأفق المزرق يتورد عن بعد. كان النظر إليها بهذه الطريقة، وكان قلب المدينة له شكل بيت عنكبوت مشطور جزئيا. ظهر أولا جسر «ماجير برج»، الذي كانت زركشته بالغة الدقة ذكرتني باليعسوب، ثم المتجر الصيني للسمك في «سوق نايوو» بسمكه الذي يتلوى، ثم السوق الشعبي في ساحة «واترلو». لمعت المشاهد مارة من أمامي، هشة، شبيهة

بالشــريط الزيني، الشفاف الموجود على قلنسوات رؤوس البنات فــي لوحة الرســام نيكولس فان دير فاي. رأيــت قنوات متدلية تظللها الأشــجار، ورأيت واجهات المنازل علــى طول القنوات - «الهيرينغراتش»، و«الكايزيرســجراتش»، و«البرينســينجراتش» و«الســنجال» - تقف في صفوف رائعة كاللؤلؤ، ورأيت منتورين، وهو سوق الورد والفنون، وأخذت بمنظر المتحف النباتي الدافئ المسكر. كانت المدينة كلها ممتدة أمامي، مدينة من سماء، وزجاج، وماء. وقد كانت وطني.

رأيــت أمام متحــف «آن فرانك» الصغير طابورا يشــبه دودة الأرض. في الداخل، وجدت نفســي أمام شاشــة عرض تطرح أســئلة عــن صاحبة المتحــف: (١) من أول من شــاركت آن في غرفتها؟ (٢) من كان عليها أن تشاركه الغرفة فيما بعد؟ (٣) ماذا كانــت آن تفعل لتحيي غرفتها؟ (٤) من صنع خزانة الكتب؟ (٥) من أي بلدة هربت عائلة فرانك؟ (٦) هل كانت جميع صديقاتها من اللاجئين؟

فجــأة أدركت أن المنزل في «برينســينجراتش» رقم ٢٦٣ كان يشــبه بوضوح المنازل التي لازمتني في كوابيســي، وأحسســت بالراحــة عندما صعدت الســلالم المفترضــة، وفتحت وأغلقت الأبــواب المفترضــة، وغادرت المنــزل بضغطي علــى زر مفتاح النجاة. لم يعد عندي شيء أخاف منه: فالنجاة كانت دائما أحد الخيارات.

تصورت محكمة لاهاي بحجم علبة الثقاب، وبقضاة صغيري الحجم يرتدون أروابا صغيرة، في وجود متهمين، وشهود صغيري

الحجم، ومستشــارين بأحجام صغيرة للدفــاع، والادعاء العام، وبدلاء صغيري الحجم يحاكون حياة يوجد فيها حق وباطل. في الحقيقــة، لا يوجد أناس على حق وآخرون على باطل، ولا أناس طيبــون وآخرون أشــرار. هناك فقط التقنيــات المتصلة بالأمر كله، الدوران. الشـــيء الوحيد الذي لـــه تأثير هو الفعل، فالفعل هـــو الأمر برمته. الفعــل، هو ما يدير طواحــين الهواء، صغيرة ونشـــطة، كعصافير المدينة، وهو ما يجعل الجسور ترتفع وتنزل، والقـــوارب تطن عبر القنوات كذباب يتم التحكم به من بعد، وما يجعل بائعات الهوى بأحجامهن الصغيرة يفتحن ويغلقن ســـتائر عروضهن في المنطقة الحمراء، بأناقة ودقة تشبه بيوت التنبؤات الجويـــة التقليديـــة، وهو ما يجعــل رجال الشـــرطة بأحجامهم الصغيـــرة يقومـــون بجولاتهم على صهوة خيولهـــم التي لا تزيد على حجم الفئـــران الصغيرة البيضاء. مادامت الســـتائر تنفتح وتنغلق، ومادامت طواحين الهواء تدور، ومادامت أشـــجار الزينة تنمـــو، ومادام الدم يتدفق في عروقنا وإلى داخل قلوبنا، فإن كل شيء ســـيكون على ما يرام. ولا يوجد في لغة مدينة «مادرودام» كلمات الأمر المحتوم، والقضاء والقدر. الآن، اســـتقررت هنا في «مادرودام»، ســـواء كان ذلك بإرادتي أم لا، فهذا شـــيء علي أن أفهمه.

١ – ما اســـم البلد الذي يقع في جنوب أوروبا وانهارت ســـنة ١٩٩١؟ (أ) يوغوسلوفاكيا، (ب) يوغوســـلافيا، (ج) سلوفيناكيا. ٢ – ما كان اســـم ســـكان تلك البلـــد؟ (أ) اليوغوســـلاف، (ب) المنغوسلاف، (ج) السلافويوجو. ٣ – أين يعيش الآن هؤلاء الناس

الذين اختفت بلدهم؟ (أ) هلكوا جميعا، (ب) هم بالكاد على قيد الحياة، ج) انتقلوا إلى بلد آخر. ٤ - ماذا ينبغي على الناس الذين انتقلـوا إلى بلد آخر أن يفعلـوا؟ (أ) ينبغي أن ينخرطوا في تلك البلد، (ب) ينبغي أن يحافظوا على هويتهم، (ج) ينبغي أن ينتقلوا إلى بلد آخر.

يجـب علـي أن أفهم أن المحـاكاة هي كل شـيء، وإذا كانت المحاكاة هي كل شـيء، إذن فأنا لست مذنبة، إذ أنني هنا تحت سماء «مادروودام» المتألقة «لست مذنبة بأي شيء»، والأمر برمته وجهة نظر. فالأشـياء كبيرة بقدر ما نشعر أنها كبيرة، وصغيرة بقـدر ما نشـعر أنها صغيرة، وأنه، بالنسـبة إلينا، نحن سـكان «مادروودام»، فإن الغربان التي تصطف على الأسطح، أشد خطرا بكثير من صيحة الصبي المفاجئة وغير المبررة التي فاضت كرها، والتي سببت لي ألما لا يتناسب مع دلالتها.

كان الوقت أصيلا. كان الغسق رائعا، والشمس تصب أشعتها السـمراء الضاربة للحمرة البراقة على كل شـيء. كنت متجهة نحو الغابات، وقدماي بالكاد تلامسـا الأرض. سـاد هدوء غير عادي: فـكل ما كنت أسـمعه بين حين وآخر إزيـز مرور راكب دراجة هوائية. رأيت النسـوة المرتديات مناديل الرأس جالسات على العشـب مثل أمهات الدجاج، والصغار من حولهن. انتفخت خياشـيمي من رائحة العشـب المجزوز حديثا. دخلـت الغـابة. لم تكن الأشـجار كثيفة، فتمكنت من رؤية زرقة البحيرة من بين الأشـجار. وعلى الرغم من أنه شهر أغسطس، شعرت بالخريف في الهواء. امتصصت ذلك الهواء إلى داخل رئتي أثناء مسيري.

لا أستطيع أن أحدد بدقة المدة التي سرتها أو المدة التي احتجتها للوصول إلى الأرض مقطوعة الأشجار.

... فـــي الغابـــة التي كانت مغطاة بمســـاحات مـــن الأزهار البرية اليانعة، وجدول شفاف غير عادي يتدفق وسطها، وأشعة الشـــمس الذهبية تخترق الأغصان الكثيفة المتشـــابكة لأشجار البلـــوط المحيطة. كانت تجلس على جذل شـــجرة قرب البحيرة فتاة معافية، قوية البنية، بعينين سوداوين. تجمع شعرها الغزير عند عنقها، وقد انســـدل على جســـمها المتناسق قميص صيفي من القطن الوردي، وتدلى من عنقها صليب صغير معلق بشريط أســـود، وأمامها على العشب استقرت قبعة وكتاب للأغاني. كان يجلـــس امامها مجموعة من أطفـــال القرية الحلوين، وجميعهم، الصبية، والبنات، بدوا بوجوه مفعمة، فرحة، وعيون متألقة، في ملابـــس نظيفة ناصعة البياض، فكان النظر إليهم بهجة للنفس. كان العديـــد من الفتيات يضعن أكاليل مـــن الأزهار البرية على رؤوســـهن. ترفع الفتاة يدها وتصدر لحن أغنية لأفراد المجموعة الذيـــن انتبهـــوا فرحين بحركة ســـبابتها، ومـــا إن فتحت ثغرها الصغير حتى خرجت منه أجمل الألحان. لقد كان مشهدا رائعا: الوجوه اليافعة الفرحة، والصبية يهزون رؤوســـهم بحيوية تزامنا مـــع اللحن، والفتيـــات، وهن الأكثر اســـتغراقا، يرفعن ظهورهن باستقامة كالشـــمع، وفي وسطهن ذلك الوجه الذكي الذي يتألق بابتســـامة الرضا، والعينان الســـوداوان الحادتان اللتان تراقبان جميع البراعم التي في عهدتها. وليس ببعيد عن المعلمة جلســـت فتاتـــان تصنعان إكليلا كبيرا من الأوراق الخضراء. وحالما انتهتا

منه، نهضتا وســـارتا بخفة إليها، ووضعتا الإكليل على رأســـها.
وعندما انتهـــت الأغنية، التف الأطفال حـــول معلمتهم كالنحل، وهم يتصايحـــون بفرح بأعلى أصواتهم. نهضت المعلمة، وارتدت قبعتها، وشـــقت طريقها خارج الغابة عبر الحشـــد المشـــجع من الأطفال، أشـــبه ما تكـــون بجنية في إحدى حكايـــات الجنيات الخرافية.

خاتمة

آلام الحنين للوطن تلك!
ذلك الجيشان المكتشف منذ زمن طويل!
أنا لا أبالي به تماما
مثلما لا أبالي أين سأكون

وحدي أو كيف أجر حقيبتي
من السوق إلى منزل أو وطن
وطن لم يعد لي أكثر من
مشفى أو حامية؛

لا أبالي بأي نوع من الناس
سينظرون إليِّ، فالأسد المحبوس، انتصب شعره
ولا أبالي - كما يجب أن أكون - بأي نوع من العالم
سأنفي إليه

نفسي ومشاعري الخاصة
مثل دب كامتشاتكا دون جليد طاف،
لا أهتم بإعداد مكان
(ولا أحاول) ولا أين سآكل الغراب.

ولم أفتن بأمي
وبلغة نداء أمي، المتملقة الدسمة:
فأنا لا أعطي شأنا كبيرا للغة قد
يستعملها الآخرون لإساءة فهمي

(القراء وحدهم المنكبون علي
حلب كلام الصحافة الأحمق)،
لأنهم نتاج القرن العشرين هذا،
وأنا آتية قبل القرون.

أنا مشدوهة مثل زند خشبي ترك ليشتعل
على درب من الأشجار. جميع الناس
سيان عندي، الكل سواء عندي،
وأكثر الأشياء سواء
وأكثرها قربا، قد يكون، الماضي.
كل ملامحي، كل الآثار، كل التواريخ
قد اختفت داخل مستنقعها:
فأنا مجرد روح قد وُلدت - في مكان ما.

لقد خذلني الوطن خذلانا تاما
لا بد أن عيون الشرطي السري الحادة
تفتش الروح رأسا على عقب
وستفشل في اكتشاف جذور الوطن.

كل منزل غريب، كل معبد خال،
الكل سواء، الكل واحد، الكل مجرد قمامة.
وإن كان ثمة شجرة بجانب الطريق
فإنها احتمال لتكون جبل رماد ...

مارينا تسفيتافا

تكون الحياة في بعض الأحيان مربكة لدرجة أنك لا تستطيع أن تتأكد ماذا حدث أولا، وماذا حدث فيما بعد. للسبب نفسه، لا أعرف إن كنت أسرد هذه القصة للوصول إلى نهاية للموضوعات أو بدايتها. منذ أن عشت خارج الوطن، جرّبت لغتي القومية - مثلما ترد عند الشاعر الكرواتي في شعر الوجد، هي «لغة» ذات حفيف، ترن، ترجع الصدى، وتقعقع، وترعد، وتزأر، وتدوي، كتلعثم، أو.. أو لعنة، أو تشويه سمعة، أو ثرثرة، عبارة متاجرة رتيبة خالية من المعنى. ذلك هو السبب الذي يجعلني أشعر أحيانا - وأنا محاطة بالهولنديين وأتواصل معهم بالإنجليزية - بأنني أتعلم لغتي القومية من البداية. والأمر ليس سهلا. فأنا أبتلع الكلمات، أقذف بأحرف العلة والحروف الساكنة. إنها معركة خاسرة: إذ أفشل في إيصال ما أريد أن أقول، وما أقوله يبدو فارغا. قد أقول كلمة، ثم لا أحس بجوهرها، أو أنني أحس بجوهرها، ولكنني لا أجد له كلمة. لا أزال أتساءل إن كانت لغة قد شوهت بهذا الشكل، لغة لم تستطع أن تكشف الواقع قط، واقع مركب مثل التجربة الداخلية الحقيقية، ستكون قادرة على فعل أي شيء بالمرة، شيء كسرد القصص، مثلا.

لقد عاملتني الحياة بشكل جيد. لقد تعلمت كيف أبقي ستائري مفتوحة. حتى أنني أحاول اعتبار ذلك فضيلة. لقد سجلت نفسي في دورة لتعلم اللغة الهولندية. ومثل بقية زملائي، أفرط في استخدام ضمير المتكلم «أنا». فالعالم يبدأ بـ «أنا» أنا تانيا لوسيتش، أنا من يوغسلافيا السابقة، أنا أمشي، أنا أُحلق، أنا أعيش، أنا أتكلم، أنا أتنفس، أنا أسمع، أنا أبكي... في الوقت

الحالي لا يلزمني ضمير المتكلم بأي شيء، فهو مثل لعبة من لعب الأطفال، مثل لعبة «الاستغمّاية». يقول الناس إن أسهل طريقة هي الاختفاء في العراء. في الجبال الهولندية. وراء ذلك الضمير الصلب - أنا.

صحيح، أن كوابيسي عادت من جديد. أنا الآن أحلم بالكلمات، وليس بالمنازل. في الحلم أتحدث لغة غير مدققة، وغير مسيطر عليها، لغة بشقلبة جانبية، كلماتها تقفز مثل لعبة «عفريت العلبة» الذي يخرج متحديا إياي. كوابيسي عادة مشاهد مناجاة تعكس مزاجي المتقلب. أتفحصها وأمر عليها بمشط ذي سن رفيع. إنها قائمة طويلة مؤلمة لا تنتهي من الشكايا. غالبا ما أصحو بسبب أنين مؤلم يصدر مني، أشبه ما يكون بأنين الكلب. في الحلم أملأ المكان حولي بالكلمات. تتبرعم هذه الكلمات، وتلفني مثل النباتات المتسلقة، ثم تنبثق كالسرخس، وتتسلق كالنبات المتسلق، وتتفتح بسعة كالزنابق، وتجتاحني كأزهار السحلبية البرية. ثم تتركني جُمل الغابة الخصبة لاهثة. في الصباح، أكون مُخرّبة، ولا أستطيع أن أفسر وفرتها المعجمية ما إذا كانت تعني عقابا، أم مغفرة.

لكن الحياة عاملتني بشكل جيد. الزوجان الأمريكيان، بول وكيم، اللذان كنت أعتني بأطفالهما أربعة أيام في الأسبوع، دفعا لي بسخاء. وقد أصبحت خبيرة في أغاني الأطفال: «أغانينا»، والأغاني الإنجليزية، وحتى بعض الأغاني الهولندية. لم يبخل بول وكيم بتعريفي إلى أصدقائهما، وأقاربهما، قائلين: «هذه تانيا، مربية أطفالنا. إنها رائعة مع الأطفال. فهي تعرف كيف تعاملهم حقا...».

وأمي بخيـــر أيضا، إن كانت «بخير» الكلمة المناســبة لذلك. فهي تنتعش كلمــا اتصلت بها. تتحدث عن الحياة مثلما يتحدث الأطفال بعضهم عن بعض: فتخرج قائمة شكاواها، وتستمر في الحديث عن مرض الســكر الذي تسميه «لعنة السكر»، والتهاب المفاصل، وارتفاع تكاليف المعيشة... وهـي لا تسـأل عنـي إطلاقا: فأنا موجودة فقط لأســجل شــكاواها. لقد تصالحت مع دوري هـــذا، ونما عندي التعود على أن حوارنا يجري من طرف واحد. لقد تعلمت ألا أدع ذلك يؤلمني كثيرا.

لم يعد والد جوران معنا. قالت أولجا وهي تنتحب على الهاتف: «كان من الممكن أن يضعوه في كيــس للقمامة» «كيس للقمامة!» كان قد دخل في غيبوبة، فاتصلوا لإرســال سيارة إسعاف، لكن لم يتمكن المرضون من إدخال الحمّالة إلى المصعد، مما جعلهم يلفونه ببطانية وينزلون به خمسة طوابق. مات في المستشفى بعد بضعة أيام. أخبرتني بكل التفاصيــل عندما اتصلت بها معزّية. ثم أضافت بنبرة غريبة، واضعة بذلك نهاية حزينة لهذا الحدث، غير أنها فاترة: «على كل حال، كان لا بد من النهاية المحتومة».

نجت «آنا» بعد عودتها إلى بلجراد لمدة أقل من ســنتين، فقد كانت تعمل مع فريق تلفزيون بلجراد الذي مات في الهجوم الذي شنّه حلف شمال الأطلنطي على المدينة. مازلت أحتفظ بالرسالة التي بعثتها لي بعد بضعة شــهور مــن مغادرتها إلى هناك. لقد أرســلت ملاحظة مقتضبة تقول إنها قد وجــدت وظيفة، وإنها تبلي بلاء حســنا، وإنها غلفت موضوع إنشــاء قصيــرا بعنوان «المحطة»، وهو إسهامها الحديث في متحفنا الخيالي عن الحياة

اليومية في يوغسلافيا. كان وصفا كئيبا للمكان الذي تتجمع فيه خطوط ترام بلجراد للاستراحة - وصفا للأصوات، ولغروب الشمس الصيفي القائظ، ولرائحة الهواء المثقل بالغبار. كتبت: «ضعيه في حقيبتنا البلاستيكية ذات الخطوط الحمر، والبيض والزرق». لقد تأثرت بالحماقة الحلوة لتلك اللفتة. أما جيرت، فقرر البقاء في بلجراد. ليس لدي فكرة عما يعمل، أو كيف يتدبر أمر معيشته. يتصل بي من وقت لآخر، وأستطيع أن أحكم من صوته أنني، أنا الأجنبية، كنت حلقة وصله الوحيدة بـ «الوطن». فأنا مازلت أسكن في عنوانه.

أما البقية، فيبدو أنهم متماسكون. لايزال آنتي يعزف الأكورديون في جميع أنحاء المدينة. يقوم بذلك في «نوردرماركت» كل يوم سبت. يرمي إليه المارة قطع النقود في القبعة التي أعطاها إياه ذلك الرجل من مدينة «فيروفيتيكا» الذي لديه كشك للقبعات هناك. كل «أهلنا» يعرفونه. وقد تزوجت نيفينا من أحد «شبابنا» وعندها طفلة منه الآن. وهي تعمل في أحد فروع بنك «رابو». ميليها في سراييفو. وقد تمكنت من استعادة شقة العائلة وإخراج الناس الذين كانوا يقطنونها بشكل غير قانوني. أما والداها فلم يعد لهما أي علاقة بتلك المدينة: فهما لم يعودا إليها ولو مرة واحدة منذ أن انتقلا إلى هنا. تعيش ميليها الآن مع رجل هولندي أنشأ منظمة غير حكومية لمساعدة «المستضعفين». أكمل ماريو دراسته الجامعية، ووجد وظيفة في التصميم الإلكتروني. لديه طفل أيضا. انضم بوبان إلى طائفة بوذية، وحلق لحيته، وتحول إلى نباتي، وحصل على الرعاية

الاجتماعيــة. كانت جوهانكــي الوحيدة التي تركــت الجامعة، فقد هربت أختها الكبرى. والآن تعيش مع والدها في البوســنة. لقد تحطمت حياتها. أصبح ســليم متعصبــا يقضي أياما عدة مع المتســكعين في متنزه «فونديل». يدمــدم قائلا: «علينا نحن البوسنيين أن نضرب أولئك الصرب الأوغاد بقوة، ثم من بعدهم الكروات، وجميع الأوروبيين، والأمريكيين أيضا». أما زول، الذي جاء إلــى الصف مرة واحدة أو مرتــين، فيفترض أنه ذهب إلى كندا مدعيا أنــه «ضحية مزدوجة» لميلوســيفيتش وقنابل حلف شــمال الأطلنطي معا. ولكن من المرجح أنه كان يعمل مع المافيا الصربية المحلية، ثم انشق عنها وهرب للنجاة بجلده.

حصلت على كل هــذه المعلومات من داركو عندما التقيته في أحــد الأيام بمحض المصادفة على شــاطئ مهجور بالقرب من «واســينار». كان المشهد ســرياليا. فقد عرفته بصعوبة: صار ذا بشرة برونزية، وشعر أشــقر فاتح، وارتدى نظارة شمسية أنيقة وحمل جهاز موســيقى. كان على صهوة حصان. بدا كأنه عارض أزياء لدى «كالفين كلين»، أو، بالأحرى، محاكاة هشة له. أخبرني بأنه يأخذ دروسا في ركوب الخيل في نادي «واسينار» للفروسية. كان أحد أصدقائه رجلا أعمال أمريكيا ناجحا، وكانت له علاقات بمجتمع المثليين. ولكنه الآن ترك تلك الحياة الفاسقة، التي طالما تحدث عنها صراحة، واســتقر في منزل في «ربجيويرسلاتش». والشــكر هنا لصديقه الذي طيَّــر مليونا كاملا على ذلك المنزل، نعم، مليون دولار ...

قال: «اكتشــفت أننــي أحب ركوب الخيل». ثــم أضاف، وهو ينظر إليّ بحنان: «ســجلي في أي دورة هنا، أي دورة - يوجا، أو رقص السالســا، أو أي شيء آخر. هذا ما أقوله للجميع. ومادام الأمر يتضمن تمرينا بدنيا، فإنه سيعود بفائدة جمة عليك».

قلت: «أنا أتعلم اللغة الهولندية الآن».

قال، كأنه يخاطب شخصا في مكان آخر: «هذا جيد!».

عندئذ لمحت انعكاس صورتي على نظارته الشمسية، وسرت قشعريرة في عمودي الفقري: لقد كان في النظارة وجهان يلمعان في العدستين، ولم يكن وجهي من بينهما.

ولكــن أغرب تلك القصص كانت قصة إيجور. يقول الناس إنه ذهــب إلى آخر مدى. بداية حصل على وظيفة مترجم في محكمة لاهاي، حيث، لم يكن الوحيد - بالمناســبة - من جماعتنا في تلك الوظيفة. لكنه طــرد من ذلــك العمل لأنه توقــف عن الحضــور. ثم في أحد الأيام وُجد - أو الأقرب للحقيقة، أنه وجد نفسه - في مطار ما أو آخر، في «كلكتا»، أو «كوالالمبور»، أو «سنغافورة». قيل إنــه كان يعاني أعراضا تظهر بعد صدمــة عاطفية عنيفة تحمل اســم عظيم، اسم موســيقى الفوجا، «الفوجا الفصامية». نوبات أعراض الفوجا تظهر عادة بعد رحلة مفاجئة. وتستمر مدة تتراوح بين بضعة أيام وبضعة شهور، وتسبب فقدانا كاملا للوعي، ويكون علــى المصاب بها أن يخترع هوية له، فهو لا يدرك من هو، ولا من أين. وعندما يعودون إلى حالتهم الطبيعية، لا يتذكرون أي شــيء حدث لهم أثناء «الفوجا الفصامية». إنها حالة مرضية جنونية من الضياع ثم العودة، لم يسمع بها أحد من قبل. ويدعي بعض الأطباء

النفسيين أن «الفوجا الفصامية» لا تحدث هكذا، وأن سببها هو الإفراط في تناول الخمر. قد يكون الأمر كذلك، ولكن داركو لا يتذكر أن إيجور كان مفرطا في الشرب. لم يعرف أحد أين كان أو كيف كان يدبر أمره. ربما عاد إلى الوطن. أما الآخرون، فقد ذهب كل في طريقه. لقد فقدوا التواصل فيما بينهم.

قال داركو، بصوت فيه مسحة مرحة مفرطة بعض الشيء: «بالمناسبة، لقد توصلت إلى اكتشاف آخر».

«وهو؟».

رد مشيرا إلى جهاز الموسيقى: «الأوبرا. أنا مولع بفيردي».

توقف واسترخى بخفة ملحوظة، وقد غشا وجهه الطفولي الناعم الوسيم طيف رقيق.

قال مترددا، كأنه يبصق الرمل من فمه: «إنها تلك الليلة مع يورش... بعد ذلك العشاء عندما احتفلنا بعيد ميلادك، أتذكرين ذلك؟».

قلت: «أذكر ذلك».

«حسنا، أوصلته إلى البيت، (...)، لقد كنا ثملين...».

«لماذا تخبرني بهذا؟»

هز كتفيه.

«لا أعرف... إن ذلك يسبب لي إزعاجا مستمرا...».

فيما يتعلق بمحكمة لاهاي، تتراكم الأضابير، وكومات الورق تتزايد؛ وأشرطة فيديو المرافعات يمكنها أن تغطي طول وعرض الأرض التي اختفت. في حقيقة الأمر، يبدو أن كل خسارة تم العناية بها، سواء كان ذلك بعبارات واقعية، أو ساخرة، أو غريبة.

لقد شــفيت جراح البعــض إلى حد بعيد، عنــد آخرين مازالت هزيلة، لكنها على كل حال تشــفى. حتى الندوب بدأت تتلاشى. الكل موجود في مكان مــا، والبعض يقومون بما يجيدون عمله، بينما يبذل آخــرون أقصى جهودهم. كانت الحياة أكثر كرما مع البعــض من غيرهم، ولكن كل فــرد وجــد موضعا مناســبا له. لــم يحص عدد القتلى والمختفين حتى الآن، والعديد من مرتكبى الجرائم مازالوا طلقاء، والكثير من الحطام لم يزل موجودا بعد، ولم يتم إبطــال مفعول العديد من الألغام، لكن العاصفة هدأت. تســتمر الحيــاة وهي في الوقــت الحاضر، علــى الأقل، جيدة للجميع.

يوما ما ســوف يمثل أمام محكمة لاهاي أكبر المجرمين على الإطلاق، وســوف أذهب لألقي نظرة عليه. ســوف يكون مرتديا بدلة رمادية، وقميصا أبيض، وربطة عنق حمراء ساطعة. سيكون لون ربطة العنق مماثلا للون روب القاضي. ســيجلس المتهم في القفص الزجاجي، وفكه مشدود، وفمه على شكل حدوة مقلوبة. ســوف تُبيِّن ســاعة الحائط الوقت، ولكنه لن يكون الوقت نفسه في العالم خارج المحكمة. سوف أصدم عندما أكتشف أنني خلال الســنوات القليلة التي مضت نسيت كل شيء، وأنني أستطيع - بصعوبة - أن أتذكر أســماء الناس الذيــن عبثوا بحياتنا كثيرا. سوف يتولد لدي الشعور بأن مائة سنة مرت منذ اندلاع الحرب، وليست تسع أو عشر ســنوات. سوف أجابه نسياني وجها لوجه بإحســاس عميق بالرعب. سوف يتحدث الرجل ذو رابطة العنق الحمراء بلغة لم أعد أفهمها. وسوف أتذكر التفاصيل الآتية: كان

المتهم يتصفح الاورق التي أمامه، وهو يلحس أصابعه مثل صاحب دكان في القرية؛ وسوف يرفع رأسه كأنه يريد شم الهواء الموجود حولـــه، ثم ينحرف بنظره إلى قاعـــة المحكمة؛ وفي تلك اللحظة ســـوف تلتقي العينان اللتان خلف الزجاج بعينيّ، وســـوف تكون هاتان العينان معتمتين، وبليدتين وخاليتين من أي تعبير. ســـوف يذكّرني فكه المشدود بإحكام، ونظرته الباهتة، بدب قطبي؛ بعد ذلك سوف يرفع كفه ويطرد الذباب غير المرئي عن أنفه، قبل أن يعود إلى النظر أمامه مشدوها.

في بعـــض الأحيان أفكر في يورِوش، وأرجح أنه اتخذ القرار المناسب. يأخذ معه أقلامه، ووسائده، وقبعات اليرملك المخملية، واحدة لكل يوم في الأسبوع. ينظف أسنانه، وإن سمحت الظروف، يســـتدير ليتجه نحـــو حائط المبكى المقدس. متعرقا كمحاســـب منهمك في حساباته، يكتب مظالمه، وصلواته على قصّاصات من الورق. يلفها في أنابيب صغيرة، ثم يحشـــرها داخل الشقوق بين حجارة الحائط.

قـــال إيجور: «نحن نخرج من كل ما مررنا به من خلال واحدة من ثلاث طرق». «إما نخرج أحسن، وإما أسوأ، وإما مثل يورِوش - برصاصة في الجمجمـــة». وأنا لا أعرف أين أقف الآن، فيما عدا أنني طرحت الرصاصة جانبا.

وبمناسبة الحديث عن إيجور، لم أخبر داركو أنني أعرف عن ظروفه أكثـــر مما أخبرني في ذلك اليوم على الشـــاطئ. وأحد الأســـباب هو أن البلاغ الذي أعطيته إلى الشرطي لم يصل إلى إيجور قط. فمن المؤكد أن الشـــرطي الذي جاء إلى شقتي شعر

بأنــه فعل كل ما يجــب عليه فعله بفك القيود عن يديّ. لقد كان محقا، إذ إنني استخففت بفطنته.

يعمــل إيجــور حاليا مع بعــض البنائــين الأيرلنديين. يجيد الأيرلنديون الأعمــال اليدوية، فهم نجارون مهرة. إنهم يجددون البيوت والشقق، ويهدمون الجدران ويبنونها من جديد، ويسحبون كل الخردة التي تجمعت عبر الســنين، ويقومون بجميع ما يلزم. والأمر ليس أن أمســتردام ينقصها «أهلنا»، ولكن إيجور يريد أن يبتعــد عنهم. تعود إيجور على القيام بهذا العمل اليدوي الصعب حديثــا إلــى حد ما. إنــه يضع كل ما يملك مــن جهده في هذا العمل، كأنه يستخدمه ككفّارة لشيء ما. ربما هو مدفوع بالفكرة المجنونة، وهي أنه بعرق جبينه يستطيع أن يعيد نوعا من التوازن، وأنه بكل جدار يبنيه هنا، سينهض واحد هناك من تحت الحطام، في قرى البوسنة، أو كرواتيا، أو أي مكان يحتاج إليه.

الحياة عاملتنا بشــكل جيد. يغادر إيجــور البيت ويعود إليه مبكرا. يتوجه مباشــرة إلى الحمام، وينظف ما علق به في أثناء العمــل، ويرتدي ملابس نظيفة، ويطوي أكمام قميصه، ثم يأخذ مكانه على طاولة الطعام. أقدم وجبة طازجة. نأكل ببطء وبغرابة متناهيــة، ونتكلم قليلا. كلماتنا جافة كالرمــل، وأنا أحب كونها كذلك. ربما أصبحنــا كالهولنديين. يقال إن الهولنديين يتكلمون فقط عندما يكون لديهم شيء ليقولوه.

أحيانــا يكون لقلقــي اليد الطولــى. وعندما يحــدث ذلك، آخذ حقيبتــي، وأرمي بمعطف على كتفيّ، وأغادر الشــقة على

عجل. توقــف إيجور عن عرضه للذهاب معـــي، إذ إنه يمنحني حريـــة القرار، وهو يعرف إلى أين ســـأذهب. عادة ما أذهب إلى الشـــاطئ، واحد من تلك الشـــواطئ الرملية الطويلة. فأنا أحب الشـــواطئ الهولندية المهجورة في أواخر الخريف، وفي الشتاء. أقف هناك محملقة في البحر الرمادي والســـماء الرمادية، أقف هناك مُســـمّرة في مواجهة جدار خيالي. ثـــم أفتح فمي وأنطق بالكلمـــات، ببطء في البداية، ثم بتســـارع أكثـــر وصوت أعلى. أُرجرج لســـاني مثل تنين في قصة خرافية، فتتشعب منه ألسنة كرواتية، وصربية، وبوســـنية، وسلوفينية، ومقدونية... وبينما أنا أمام الجدار غير المرئي، أدفع رأســـي في الريح بطريقة إيقاعية وأتكلم. وبينما الريح تلفني، وقد طُبعت في المنظر الطبيعي مثل مشاهد عرض في آلة الشرائح، أنا، المعلمة فخر جيلي، أقول ما ينبغي علـــيّ أن أقوله، أردد دعائي البلقانـــي. أفرز الكلمات من فمي مثل حبر الحبار. أرســـل الأصوات إلى المجهول مثل رسالة في قنينة. وبعد أن أرميها في مهب الريح، أشـــاهدها تتطاير في الهـــواء. أراقبها وهي تلتف في أنابيب صغيرة، وترســـم حلقات، وتنقض غاطســـة في جـــدار الماء، حيث تذوب فـــي الحال. مثل الملح. وعندما تستســـلم أوتاري الصوتيـــة، وعندما تفقد جبهتي الإحساس بســـبب الريح، أترك الشاطئ، وقد لملمت نفسي، من دون أن أخلِّف أي أثر البتة.

الأفق الهولندي نافع، فهو أشـــبه ما يكون بورق النشّاف الذي كنا نستعمله عبر السنين في المدرسة، إنه يمتص كل شيء ...

ليتك تُلعن في هذا العالم والعالم الآخر.
ليتك لا تعيش لترى شروق الشمس.
ليت النسور تلتهمك.
ليتك تختفي من على وجه الأرض.
ليتك تمشي في حقل أشواك وأنت حافي القدمين.
ليت الله يجعلك أنحف من خيط وأكثر سوادا من قدر.
ليتك تحصد المُر أينما زرعت الريحان.
ليت الشيطان يعذبك.
ليت الشيطان يلعق حساءك.
ليت الشيطان يُملح حساءك.
ليت الغربان تنعب عليك.
ليت دمك يسبب لك الألم.
ليتك تتلوى من الألم.
ليت البرق والرعد يصعقك.
ليت البرق يصعقك ويفصلك إلى نصفين.
ليتك تتيه في الأرض أعمى.
ليت أفعى تلدغك في القلب.
ليتك تعاني كدودة تحت اللحاء.
ليتك تغرق في ماء راكد.
ليت قلبك يتمزق وينفجر.
ليت سهما ينفذ من قلبك.
ليتك لا ترى ضوء النهار ثانية.
ليت الجميع يتخلون عنك.

ليتك تفقد كل شيء عدا اسمك.
ليتك تمحى من الجذور.
ليتك تصبح أصم، أبكم.
ليت حياتك تصبح جرداء قاحلة.
ليت أفعى تلف نفسها حول خصرك.
ليت أفعى تلتهمك مرة واحدة.
ليت الشمس تحرقك وأنت على قيد الحياة.
ليت سكّرك يصبح مرا.
ليت فمك وعنقك يتبادلان الأمكنة.
ليتك تختنق بالخبز والملح.
ليت الشيطان يصيبك بالطاعون.
ليت الله يفعل بك ما فعلته بي.
ليت البحر يرمي بعظامك على الشاطئ.
ليت العشب ينمو بين عظامك.
ليتك لا ترى إلا سوادا، وليت عينيك تبيضان.
ليتك تتحول إلى غبار ورماد.
ليت الله يحرق عينيك ويبقي محجريهما.
ليت فمك لا ينطق كلمة.
ليت اللعنة تحط عليك.
ليتك تبول دما وقطرانا.
ليت جرحا حيا يلتهمك.
ليت النار تلتهمك.
ليت المياه تفيض من فوقك.

ليتك تحترق حتى الموت.
ليتك ترقد في قبر بلا حراك لمائة عام.
ليتك لا تتزوج ولا تعرف المتعة.
ليتك يكون مصير اسمك النسيان.
ليتك لا ترى الشمس.
ليتك تموت من الصدأ.
ليتك تصعق بالرعد والبرق.
ليتك تقتل كل يوم في السنة.
ليت وجهك يتحول إلى قار.
ليت جذورك تجف.
ليتك تنفجر.
ليتك تلعق الرماد.
ليتك تتحول إلى صخر.
ليت قلبك يتحول إلى صخر.
ليتك تموت في الظلمة.
ليت روحك تسقط منك.
ليتك تختفي في كسوف.
ليتك تأكل ولا تشبع.
ليتك تقع ميتا على قارعة الطريق.
ليت أفراحك تتحول لنواح.
ليتك تتجرف دون مستقر.
ليتك تفقد السمع والنطق.
ليتك لا تملك شيئا.

ليتك تذبل من الجذور.
ليتك تبكي لحليب أمك.
ليت الأرض تلفظ عظامك.
ليت الديدان تلتهمك.
ليتك تفقد روحك وأظافرك.
ليتك لا يكون لك ضيف طول الحياة.
ليتك لا ترى منزلك مرة أخرى.
ليتك لا تجد الخبز عندما يكون لديك الملح.
ليتك تتحول إلى خشب وصخر.
ليت صخرة تسقط على قلبك.
ليت تمنياتي الحارة تقتلك.
ليتك لا تسمع مرة أخرى.
ليت ضفدعا يبول عليك.
ليتك لا تنهض من نومك في المرة القادمة.
ليت دموعي تقتلك.
ليت شمعتك تنطفئ.
ليت أيامك تسود.
ليت لسانك يتوقف عن النطق.
ليت البؤس يبتسم لك.
ليتك تترك عظامك خلفك.

المؤلفة في سطور

دوبرافكا أوجاريسك

- كاتبة روائية كرواتية.
- ولدت في ٣ مارس ١٩٤٩ في مدينة «كونتينا» في كرواتيا.
- ألّفت العديد من الروايات الأدبية، وعددها ١١ رواية.
- حازت العديد من الجوائز الأدبية المحلية والعالمية، أشـهرها جائزة الدولة النمساوية في الأدب الأوروبي سنة ١٩٩٩.

المترجم في سطور

أ.د. محمد فرغل

- من مواليد بلدة سوف (الأردن) العام ١٩٥٦.
- حاصل على شـهادة الدكتوراه في اللغويات من جامعة إنديانا الأمريكية - بلومنجتون العام ١٩٨٦.
- عمل أستاذا للغويات والترجمة في جامعة اليرموك لمدة خمسة عشر عاما قبل أن يلتحق بجامعة الكويت منذ العام ٢٠٠١ حتى الآن.
- نشر عشرات الأبحاث اللغوية في المجلات العلمية الإقليمية والعالمية.
- ألف العديد من الكتب آخرها كتاب بالإنجليزية يدور حول قضايا الترجمة بين العربية والإنجليزية.
- ترجـم العديد من الأعمال الأدبيـة والمقالات العلمية آخرها رواية الطريق للكاتب الأمريكي كورماك مكارثي (إبداعات عالمية أكتوبر ٢٠٠٩).
- حصل على جائزة عبدالحميد شـومان للعلماء العرب الشباب (الأردن) في العلوم الإنسانية العام ١٩٩٣. كما حصل على جائزة الباحث المتميز في العلوم الإنسانية من جامعة الكويت العام ٢٠٠٦.

المراجعة في سطور

د. سامية دياب

- من مواليد جمهورية مصر العربية ١٩٥١.
- حاصلة على دكتوراه علم الفولكلور والأدب الشعبي - جامعة أودفش لوراند - بودابست - المجر - العام ١٩٩٠.
- لهـا عدة كتب مترجمة وهي: عندما جاء السـردين (القصة القصيرة في منطقـة جنوب أفريقيا) - مسـرحيتا: اللص الفاضـل، واحد عريان وواحد في بدلة السـهرة - كيـف ظهرت النجوم (قصة للأطفـال) - الفولكلور في الأرشيف - الدمية (رواية) - مونولوجات نسائية.
- كما لها عدة مقالات منشورة في المجلات.

إصدارات قادمة

مجموعة قصص أفغانية

تأليف: محمد آصف زاده

ترجمة: د. زبيدة أشكناني

مراجعة: أ. عبدالقادر عقيل

ترجمت عن الفارسية

ما صدر من هذه السلسلة

318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار	تأليف : جونتر جراس
	الجرة المكسورة	تأليف : هاينرش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : أندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
337	اليبروح	تأليف : نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف : جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: أرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1)	تأليف: سليمان جيغو ديوب
	الطفل الملك	
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

	الأدغال والسهول العشبية تحكي	
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: 1- محنة الأخ جيرو 2- تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتبعها فن الهايكو مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: 1- صناعة تاريخ 2- ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: 1- تلاميذ الخوف 2- الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساروبان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيـام الخمسة الأخيـرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يـوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولندا)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تـألـيـف: رُوبــين دايـڤـيـد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: 1- سهرة في المقهى 2- موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	–	١٢	–	١٢	–	٢٥	–
الأفراد داخل الكويت	١٠	–	٦	–	٦	–	١٥	–
المؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	–	١٦	–	١٦	–	٣٠	–
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	–	٨	–	٨	–	١٧	–
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	–	٥٠	–	٣٠	–	٢٠	–	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	–	٢٥	–	١٥	–	١٠	–	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	–	١٠٠	–	٥٠	–	٤٠	–	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	–	٥٠	–	٢٥	–	٢٠	–	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ **تجديد اشتراك** ☐

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	**مدة الاشتراك:**
المبلغ المرسل:	**نقداً/ شيك رقم:**
التوقيع:	**التاريخ:** / / ٢٠٠م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 **- الصفاة - الرمز البريدي** 13147

دولة الكويت

أسماء وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ – الحرة – قسيمة 34 – الكويت – الشويخ – ص.ب 64185 – الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	00971 242629273	00971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية – الرياض – حي المؤتمرات – طريق مكة المكرمة – ص.ب 62116، الرمز البريدي 11585	00966 (01) 2128000	00966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية – دمشق – البرانكة	00963 112127797	00963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية – القاهرة – 6 شارع الصحافة – ص.ب 372	00202 25782700-25782632	00202 25782632
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب – الرباط – ص.ب 13683 – زنقه سجلماسه – بلفدير – ص.ب 13008	00212 522249200	00212 522249214
تونس	الشركة التونسية للصحافة	تونس – ص.ب 719 – 3 نهج المغرب – تونس 1000	00216 71322499	00216 71323004
لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	لبنان – بيروت – خندق الغميق – شارع سعد – بناية فواز	00961 1666314/5 01 653259	00961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية – صنعاء	00967 2/3201901	00967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان – تلال العلي – بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	00962 65300170 - 65358855	00962 65337733
البحرين	مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف	البحرين – المنامة – ص.ب 10324	00973 17 480801	00973 17 480819
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص.ب 473 – مسقط – الرمز البريدي 130 – العذيبة – سلطنة عُمان	00968 24492936	24493200 00968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر – الدوحة – ص.ب 3488	00974 4557809/10/11	00974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله – عين مصباح – ص.ب 1314	00970 22980800	00970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان – الخرطوم – الرياض – ش المشتل – العقار رقم 52 – مربع 11	002491 83242702	002491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	00213 (0) 31909590	00213 (0) 31909328
العراق	شركة الازدهار للتوزيع	Al Izdihar (alizdihar__co@yahoo.com)	-	-
نيويورك	Media Marketing	Long Island City, NY 11101 – 3258	00718 4725488	00718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	(0) 0044 2087499828 0044208 7423344	44208 7493904

سلسلة إبداعات عالمية

«إبداعات عالمية» سلســـلة دورية تصدر كل شهرين عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وكانت في السابق تصدر - شهريا - عن وزارة الإعلام تحت اسم سلسلة «من المســـرح العالمي» حتى بعد انضمامها إلى المجلس الوطني العام ١٩٩٤، وكانت تعنى بنشر المسرحيات العالمية فقط.

وقد صدر العدد الأول من سلسلة «من المسرح العالمي» في أكتوبر ١٩٦٩، تحت عنوان مســـرحية «ســـمك عسير الهضـــم»، تأليف: مانويل جاليتش، وبعد تغيير مســـماها إلى سلســـلة «إبداعات عالمية» العام ١٩٩٨، أصبحت تعنى بنشـــر الترجمات الإبداعيـــة الراقية من لغـــات مختلفة، وتنطلق أهداف السلســـلة (إبداعات عالمية) من فلسفتها في نشـــر الوعي الثقافي القائم على التراث الإنساني، من خلال نشـــر وتقديم ترجمات رصينة مـــن الآداب العالمية، من روايات وقصص قصيرة ودواوين شعر ومسرحيات... وغيرهـــا، من لغاتها الأصلية، بهدف تزويد المكتبة العربية بآثار هذه الثقافات المختلفة.

وترحب السلســـلة باقتراحات النشر والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون وفق الشروط التالية:

١ - أن تكون المادة المقترح ترجمتها مميزة في المستوى الفكـــري والأدبـــي الرفـــيع، ولم يســـبق نشـــرها في أي مكان آخر.

٢ – يجـــب ألا يزيد حجم المـــادة على ٣٥٠ صفحة من القطع المتوســـط، وأن تكـــون مصحوبة بنبـــذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدواه.

٣ – يجب تقديم النص الأدبي المقترح نشره، أو ترجمته مـــع الكتاب في لغته الأصلية، ويرســـل مطبوعا على الآلة الكاتبة مع وضع نســـخة من النص المترجم في ديســـك أو CD، مـــع تدوين أرقام صفحات الكتـــاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة.

٤ – السلســـلة غير مســـؤولة عن إعادة الكتب الأجنبية والنصوص الأصلية أو المترجمة التي لا يتم قبولها.

٥ – المواد المقدمة للنشـــر أو الترجمة تخضع للتحكيم العلمـــي على نحو ســـري من قبل هيئة تحرير السلســـلة، ويجـــري إرجاع النصوص إلى أصحابها لإجراء التعديلات أو الإضافـــات اللازمـــة عليها قبل نشـــرها، كما يجب ألا تحتوي النصوص على عبارات منافية للدين أو الأخلاق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المترجم للنشر تصـــرف مكافأة للمترجم بمعدل ٢٠ فلســـا عـــن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي.

وفي جميع الحالات ينبغي إرســـال ســـيرة ذاتية وافية (C.V) للمترجم، تتضمن البيانات الرئيســـية عن نشاطه الأدبي الســـابق، وعنوان المراســـلة التقليدي والإلكتروني، واســـمه الثلاثي باللغة الإنجليزية حســـب جواز ســـفره، بالإضافة إلى كتابة اســـم البنك الـــذي يتعامل معه ورقم حسابه الذي ستحول المكافأة عليه.

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب